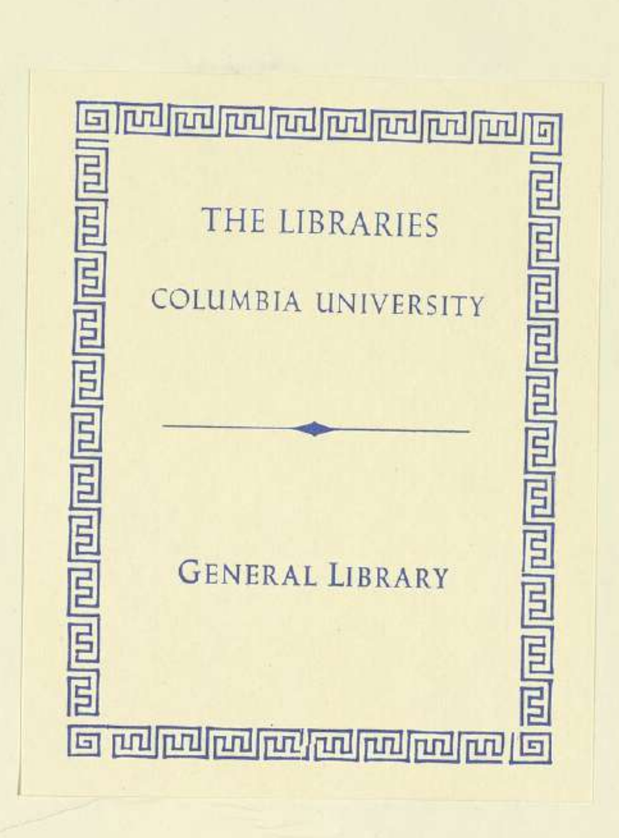



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



(vol. 5)

دكتور عبد اللطيف حمزة

ادب المقالة الصحفية في مصر

الجزء الخامس

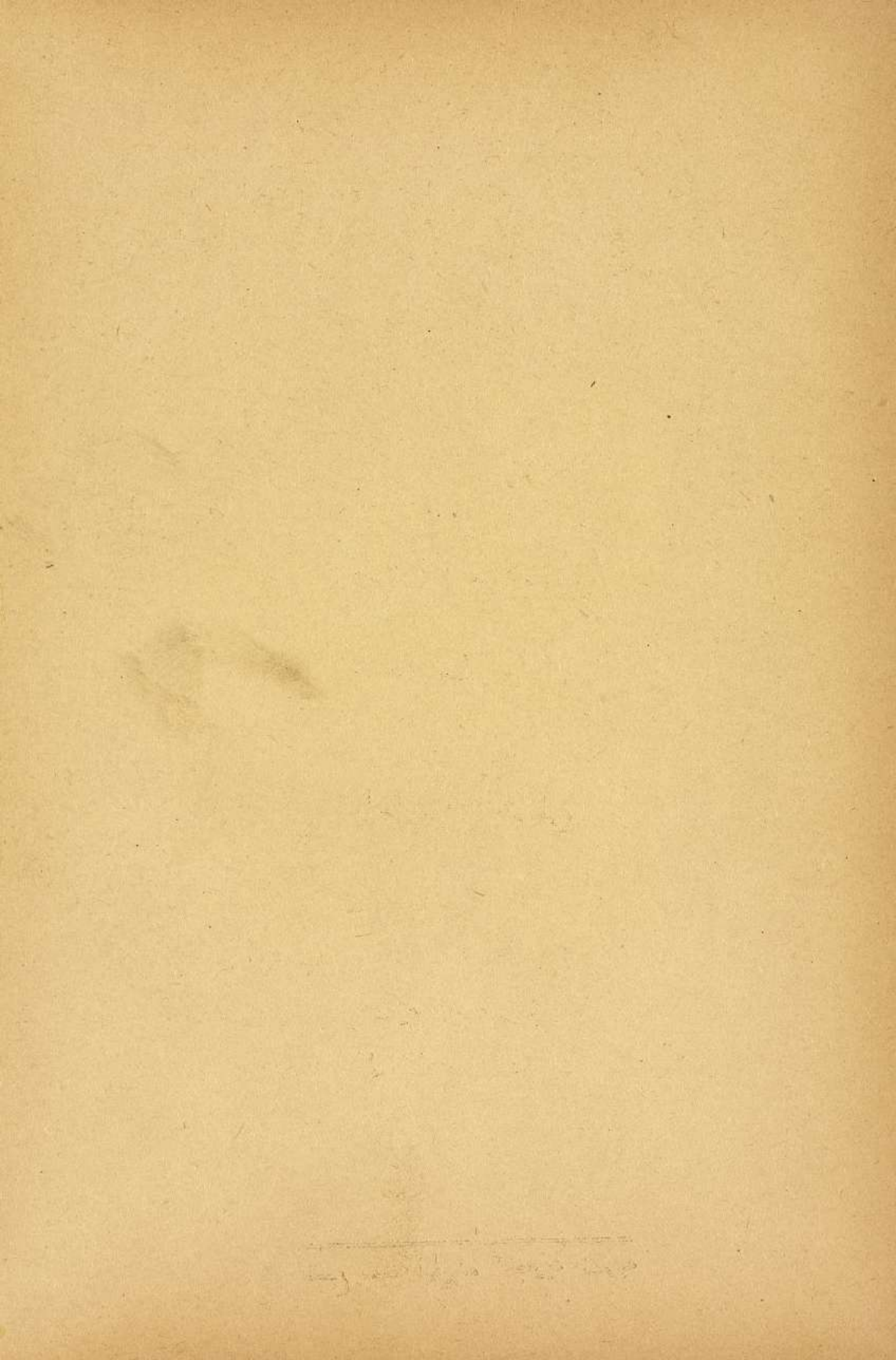
مصطفى كامل

صاحب اللواء

الطبعة الاولى

ملتزم الطبع والنشر
لجنة الجامعيين لنشر العلم

طبع بمطبعة الجريدة التجارية المصرية



دكتور عبد اللطيف حمزة

ادب المقالة الصحفية فى مصر

الجزء الخامس

مصطفى كامل

صاحب اللواء

لطبعة الاولى

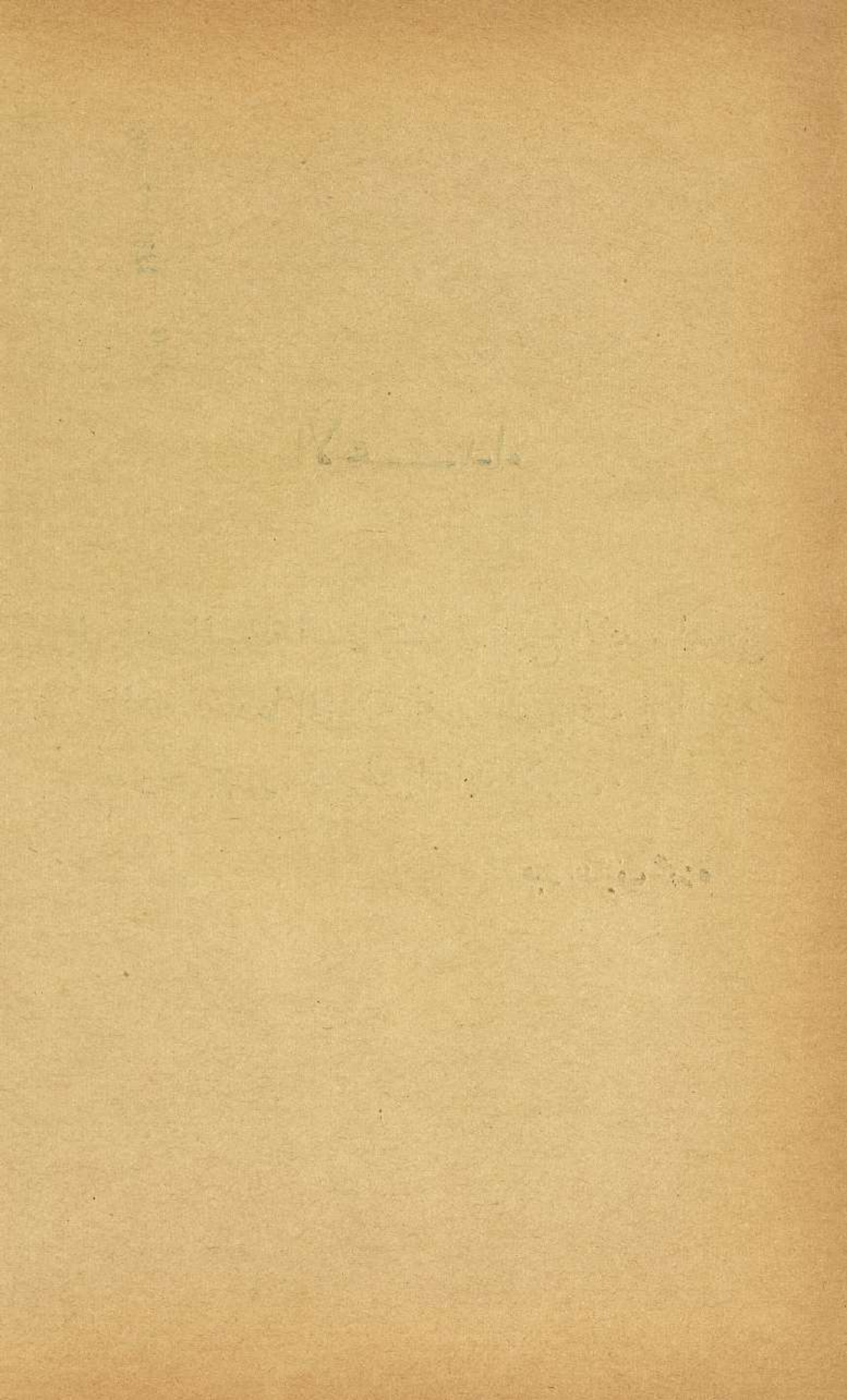
ملتزم الطبع والنشر
لجنة الجامعيين لنشر العلم

طبع بمطبعة الجريدة التجارية المصرية

الاهـــداء

إلى مصر المستقلة أهدى كتاباً فى تاريخ الأدب الصحفى لمصر المحتلة ضارعا إلى الله القدير أن يصون لها عزها ومجدها وحريتها واستقلالها إلى أبد الآبدين .

عبد اللطيف حمزه



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

حقيق بنا حين نقدم للقراء هذا الجزء الخاص بصاحب اللواء أن نصـل بينه وبين الأجزاء الأربعة التي سبقته ، وفي الجزء الأول من هذه السلسلة التي خرجت باسم

«أدب المقالة الصحفية في مصر»

تحدثنا عن المدرسة الأولى من المدارس الصـحفية التي ظهرت في هذا القطر ، وهي المدرسـة التي كان على رأسها رفاعة الطهطاوي محرر « الوقائع المصرية » و« روضة المدارس » ومن رجالها عبد الله أبو السعود محرر جريدة «وادي النيل» ومحمد أنسي محرر صحيفة «روضة الأخبار» وميخائيل عبد السيد محرر جريدة «الوطن» وغيرهم .

وقصارى القول في هذه المدرسة أنها حاولت إنشاء المقال الصحفي ، ولـكنها تعثرت في الطريق . والسبب في ذلك أنها كانت مقيدة بميراث أدبي هزيل لم يعنها على القيام بهذا الفن الجديد الذي اضطلعت به ، وهو الصحافة .

ثم في الجزء الثاني من هذه السلسلة تحدثنا عن ثلاثة من أعلام المدرسة الصحفية الثانية ، وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم فرأينا أعلام هـذه المدرسة ينجحون نجاحا عظيما في كتابة المقال ، وعلى أيديهم كتب لمصر نجاح تام في هذا الميدان . ولـكن ثلاثتهم كانوا أدباء ، فغلب على صـحافتهم الأسلوب الأدبي الممتاز . وتقدم أديب اسحاق على صاحبيه في هـذا المضمار . ثم كان محمد عبده واسطة هذا العقد من الـكتاب . أما ثالثهم وهو النديم فلا مراء في أنه كان صحفي مصر الممتاز في القرن المـاضي غير مدافع ، وكان من وسائله الصحفية الناجحة إذ ذاك وسيلة الحوار في قصة رمزية حيناً ، وأخرى غير رمزية حيناً ، وكان يكتب باللغة العربية تارة ، ويكتب بالعامية تارة أخرى . وكان حـوار الرجل في الميدانين لايشق له غبار .

ثم كان من أعلام هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة رجل أغرانا كثيراً بأدبه ، واستمالنا اليه بروعة قلمه ، وبهر أعيننا بثروته اللفظية والفكرية ، وراعنا أخيراً بتلك الوسيلة الأدبية ونعنى بها القصة الخيالية ، يكتبها فى نقد السياسة أو المجتمع . وقد حملنا كل ذلك على أن نخصه بالجزء الثالث من أجزاء هذه السلسلة . وهذا الأديب الممتاز الذى صنع بنا كل ذلك وصنعنا به كل ذلك هو ابراهيم المويلحى .

ثم فى الجزء الرابع من أجزاء هذه السلسلة بدأنا الحديث عن المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر ، وزعيمها السيد على يوسف صاحب المؤيد . وهو أول من فصل نهائياً بين الكتابة الصحفية الخالصة والكتابة الأدبية الخالصة . وعرف الفرق الواضح بينهما . لذلك وللظروف التى ظهرت فيها « المؤيد » قلنا عن هذه الجريدة الشهيرة « إنها ظهرت فى الوقت الصحيح ، واختار لها القدر الرجل الصحيح ، واتخذت لنفسها المنهج الصحيح » .

وبظهور السيد على يوسف على مسرح الصحافة المصرية بدأت هذه الصحافة طوراً جديداً من حيث الاصالة ، ومن حيث الفن ، ومن حيث الاسلوب .

أما الاصالة ، فلأن هذه الصحافة أصبحت بالفعل صحافة رأى وفكرة ، أو صحافة هذا الحزب أو ذاك من أحزاب الأمة . وكان لكل منها رأى فى المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية و غيرها .

وأما الفن الصحفى فلأن صحيفة « المؤيد » وزميلاتها من الصحف اليومية الأخرى « كاللواء » و« الجريدة » وغيرها أصبح لها نظام خاص فى تبويب الصحيفة ونظام خاص فى طريقة العرض . كما أصبح أكثرها يجرى وراء هدف رئيسى واحد : هو مقاومة الاحتلال البريطانى فى مصر .

وأما الأسلوب فلأن صاحب « المؤيد » كان — كما قلنا — يفرق بين الكتابة الأدبية والكتابة الصحفية ، ولأنه كذلك وضع للناس نموذجا جديداً فى كتابة المقال السياسى .

وهانحن بعون الله تعالى وحسن توفيقه نصل بقرائنا إلى الجزء الخامس من أجزاء هذه السلسلة . وهو الجزء الخاص بالزعيم الشاب مصطفى كامل.

ومصطفى كامل فى نظرنا تلميذ مجتهد من تلاميذ المدرسة الثالثة ، كتب بأسلوبها ، واتبع منهاجها ، وأصبح لاينفرد عن رجالها إلا بميزتين واضحتين :

أولاها — الاسترسال فى اصطناع الأسلوب الخطابى .

والثانية — إثارة الشعور بالمعانى الوطنية الجديدة التى جرت على لسانه وكان لها أعظم صدى فى مواطنيه .

وسنحاول فى هذا الجزء الخامس أن نشرح الظروف التى أحاطت بهذا الحوارى وجعلت منه زعيما فى السياسة ، وزعيما فى الصحافة ، وزعيما فى الخطابة ، وزعيما فى الدعاوة لمصر فى جميع أنحاء العالم الأوروبى .

ولقد درج زعماؤنا المصريون فى أوائل هذا القرن على خطة سديدة ، وفكرة سليمة ، عادت بالفائدة عليهم وعلى الشعب المصرى فى ذلك الوقت . فحرص كل واحد من أولئك الزعماء على أن تكون له صحيفة باسمه تعبر عن رأيه ، وتصل بين أفراد الشعب وبينه ، وتشارك فى تكوين ما يسمى بالرأى العام المصرى . فكان من النادر أن يمر يوم فى حياة صحيفة من صحف الرأى فى مصر دون أن تشتمل هذه الصحيفة على مقال قيم لصاحبها . وكانت اللواء من أسبق الصحف المصرية يومئذ إلى إبداء الرأى . والذى لاريب فيه أن صاحب اللواء كان من أغنى الزعماء الصحفيين السياسيين فى زمانه بالمعانى الوطنية الجليلة ، والعواطف القومية الشريفة ، والمعنى الجليل إذا خطر ببال صاحبه تطلب لفظا جليلا . والعاطفة الشريفة إذا إزدحمت فى صدر صاحبها طلبت كفؤاً لها من العبارات القوية . وكذلك كان أسلوب صاحب اللواء فى الكتابة ، وأسلوبه فى الخطابة .

وقد جعلت هذا الجزء من أجزاء السلسلة فى ثلاثة كتب:

أولها — كتاب عنوانه « على هامش الحركة الوطنية فى مصر » هو خلاصة

قراءات ، وثمرة مراجعات فى التاريخ الحديث ، وفى السياسة العالمية فى تلك النهضة المباركة التى نسميها « حركة الوعى القومى فى مصر » .

وثانيها — أى ثانى الكتب التى اشتمل عليها هذا البحث كتاب عنوانه « حياة مصطفى كامل » أعترف منذ الآن بأنى انتفعت فيه كثيراً برجلين ، هم : المرحوم على بك فهمى شقيق مصطفى كامل باشا والمؤرخ الكبير عبد الرحمن بك الرافعى صاحب تاريخ الحركة القومية في مصر .

وأما ثالثها — فكتاب عنوانه « مصطفى كامل والصحافة » . وهذا الاخير هو الثمرة المرجوة من وراء هذا البحث ، وهو الذى قضيت فى سبيله معظم الوقت ، ولأجله رجعت إلى صحف « الأهرام » « والمؤيد » و « اللواء » أتتبع فى كل منها قلم هذا الشاب الذى هام بحب مصر ، وهامت به مصر . فاذا بى تجاه صورة رائعة لعقله وقلبه ونفسه . وهى صورة جذبتنى وسحرتنى وجعلتنى أصيح فى نفسى قائلا :

« إن كل مصرى لا يقرأ سيرة مصطفى كامل ويستوعبها فى صدره جيدا يعتبر فى نظرى ناقصا فى تربيته الوطنية نقصاً ليس له ما يعوضه » .

(وبعد) ففى الفترة الاخيرة من كفاحنا القومى ظهر شبابنا العربى وكأنما أعياه العثور على أمثلة حية للعظمة الحقيقية . فالى هذا الشباب العربى الوثاب أقدم هذا الكتاب راجيا أن يجدوا فيه طلبتهم ويظفروا فيه ببغيتهم ، ويروا فى الوطن أنه خليق بمحبتهم ، وأنه أهل لتضحيتهم ، كما ضحى فى سبيله ذلك الفتى الخالد الذكر مصطفى كامل ، طيب الله ثراه ، وجزاه عن أمته الجزاء الاوفى .

وقف هذا الشاب خطيباً فى حفل افتتاح مدرسته وذلك فى غرة شهر مارس عام ١٩٠٢ فكان مما قال :

« يحار بعض الناس فى أمر هذه الديار إذا رأوا ماصارت اليه ، ويقولون إنها دخلت فى عداد البلاد الميتة ، ويضربون صفحاً عن التاريخ وماحوى ، كأنه ليس

المرشد الأكبر للشعوب ، والمعلم الخبير الذى لاريب فى قوله ، ولاشك فى صدق حكمه .

قام هذا النزاع فى التاريخ بين قضيتين عظيمتين :

الأولى — يزعم أصحابها أن مصر ماتت ولن تحيا أبد الدهر لأن أمة حكمها الأجانب هذا الحكم الطويل ، وتقلبت عليها دول الأرض ،واستعبدها الزمان وأهله ، وقهرتها الليالى والايام ، لا تجد من مادة الحياة مايكفى لنهضتها وارتقائها ، ودخولها فى ميدان العمل والمنافسة .

وقال أصحاب القضية الثانية : إن أمة لاقت من الاهوال مالاقت أمة مصر ، وأساءت اليها الحوادث بهذا المقدار ، وكلفتها الليالى هذا الكفاح الشديد ، ثم لايزال فى بنيها من يحس ويشعر ، ويعمل ويجد ، ولاتزال هى حافظة لشكلها ، باقية على عهدها لأمة دونها كل الأمم . والجاهل من يزعم أنها فقدت مادة الحياة ، وتجردت عن عوامل القوة .

ثم قال رحمه الله : ليست حاجة مصر إلى شيء فى هذا الزمن مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدى الكلمة ، متفقى الرأى ، عارفين بتاريخها ، معتبرين بعبر حوادثها ، ناهضين بها ، مجدين فى سبيل إسعادها وليس لنا بانشاء هذه المدرسة غاية غير هذه . فانما نحن لانرمى إلى تربية موظفين ، أو إعداد طلاب للشهادات ... ولكننا نرمى إلى تخريج رجال ، خلائقهم محبة الوطن ، والتمسك بالفضيلة ، والارتباط ببعضهم البعض ، والتفانى فى خدمة هذه البلاد . نرمى إلى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل ، وتهوى الشرف والمجد ، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء » إلى آخر ماقال رحمه الله .

ونحن نقول — الحق أن مصر كافحت من أجل استقلالها بكل الطرق ، ومارست فى سبيل خلاصها وحريتها كل وسيلة ممكنة . فاذا أردنا أن نتخذ لأنفسنا عبرة من كل أولئك فلنؤمن ايماناً قوياً يملأ قلوبنا ، ويمتزج بدمائنا ، ويسيطر على نفوسنا أن مصر العزيزة لن يتم لها إستقلالها المنشود ، ولن تنعم بحريتها الكاملة إلا بقوى ثلاث :

هي قوة الجيش ، وقوة العلم ، وقوة الخلق .

ويقيني أن في واحدة من هذه الثلاث متى كملت وبلغنا بها المدى ما يضمن نجاحنا وبلوغ أملنا . فما ظنك بنا حتى نستكمل جميع هذه القوى ؟ إننا نرقى بسرعة عظيمة إلى مصاف الدول الكبيرة . وإنا لخليقون بهذه المنزلة في القريب العاجل باذن الله .

مصر الجديدة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٥٢

عبد اللطيف حمزه

الكتاب الاول

على هامش الحركة الوطنية فى مصر

« لكل لوحة فنيـــة (صورة) . ولها كذلك ما يسمى (بخلف الصورة) . والصورة هنا هي حياة مصطفى كامل وبلاؤه العظيم فى ميدان الصحافة . وأما (خلف الصورة) فهذا الكتاب الأول الذى جعلته على مقدمات ثلاث :

أولاها — عن أوروبا والاستعمار .

والثانية — عن أوروبا والاسلام .

والثالثة — عن بناة الوعى القومى فى مصر » .

المؤلف

المقدمة الاولى

اوروبا والاستعمار

كانت أوربا فى القرن التاسع عشر تضطرب اضطراب المحيط وتغلى غليان المرجل . فقد كان ذلك العصر عصر ثورة فى السياسة ، وثورة فى العلم ، وثورة فى الصناعة ، وثورة فى الاقتصاد ، وثورة فى المجتمع الاوروبى نفسه آخر الامر .

فأما الثورة السياسية فاقترنت بالثورة الفرنسية التى جعلت شعارها : الحرية والاخاء والمساواة . وأما الثورة العلمية فقد بذر بذورها بيكون وديكارت وغيرهما من العلماء . وكان من آثار هذه الثورة أن عرف الناس نظريات جديدة فى أصل الانسان ،ومبدأ الخليقة عارضت ما جاء فى الكتب المقدسة فأشاعت بين الناس موجة حادة من الألحاد سلبتهم إيمانهم ، وسلطت عليهم شياطين الشك تنوشهم من كل جانب . وأما الثورة الصناعية فقد أتت لتقويض المجتمع الاوربى من أساسه إذ كان من نتائجها المحتومة أن انطلق الانسان كما انطلقت الجن من قمائم سليمان ، وطفق يزاحم الطيور فى السماء والأسماك فى الماء ، ويربط بين أجزاء العالم كله بخيوط من حديد وأخرى من كهرباء .

ثم فى أحضان الثورة الصناعية نشأت الثورة الاقتصادية ونمت وترعرعت فى ظل الرأسمالية ، ووجدت برهانها ساطعا ، وغذاءها وافرا فى ذلك التعاون البعيد الذى كان بين هاتين الطبقتين المتمايزتين ، وهما طبقة العمال وطبقة أصحاب الأعمال .

ويستطيع الكاتب أن يؤدب التاريخ . أعنى ينظر اليه نظرة أدبية فى أكثرها فيتألف له من تلك الحوادث مسرحية ذات مشاهد مختلفة ، من الخير أن نعرض لبعض مشاهدها .

المشهد الأول

فيه تنشب الثورة الفرنسية ، وتعلن فى الناس مبادئها وتصيب عقول المفكرين الأوروبيين بهزة عنيفة . ومن هؤلاء « جيته » المفكر الألمانى الذى لم يكد يشهد الحرس البروسى بقوته وجبروته يرتد مهزوما أمام الفرنسيين الذين أسكرتهم نشوة النصر فى معركة « ڤالمى » حتى صاح قائلا « إن عصراً جديداً فى تاريخ البشرية لا ريب قد بدأ »

ثم إن هذه الثورة الفرنسية تمخضت عن ذلك الفتى الكورسيكى الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، وظفر بآيات من التعظيم والتبجيل لم يظفر بها الأولياء والقديسون وذلك الفتى الكورسيكى العجيب هو « نابليون »

كان نابليون كالسرطان فى جسم أوروبا . فلم يكد يظهر على مسرح السياسة الأوربية حتى أشاع القلق فى أنحاء أوروبا : فقد حارب فى إيطاليا ، وهزم الأتراك فى مصر وسوريا ، وغزا أسبانيا ، واستوى على عرشه فى الروسيا . ثم لم يكد يعبر بحر المانش حتى شهد الراية الإنجليزية وهى تخفق على تلك الجزيرة المنيعة فى عزة وشموخ أنف فارتد على عقبه وعاد إلى بلده . وكأنما كان الشاعر الفرنسى « لافونتين » يشير إليه حين قص علينا فى إحدى خرافاته قصة الثعلب الجائع الذى مر على كرم عنب ناضج . فلما أعياه الوصول إلى هذا الكرم قفل راجعاً يقول : أى قيمة لهذا الكرم . إنه حصرم »

ولكن الجزيرة لم تدع القائد الفرنسى يمضى فى طريقه كما مضى الثعلب فى خيال الشاعر الفرنسى . فقد نجح الانجليز فى تعبئة جيوش النمسا وبروسيا والروسيا ضد نابليون . وانتهى المطاف بهذا البطل العظيم إلى جزيرة « سنت هيلانه » حيث قضى له الرجل ما بقى من حياته يكتب مذكراته ويعيش فى أوهامه ثم يأتى

المشهد الثانى

من مشاهد هذه المسرحية . فيرتفع الستار عن انجلترة وقد قطعت شوطاً

بعيداً فى ميدان الانقلاب الصناعى الذى ظهرت طلائعه من قبل على يد كارل ماركس فى المانيا . وكان من أثر ذلك أن تغيرت ملامح المجتمع الانجليزى تغييراً بعيد المدى . فقد حلت الآلة محل العامل فى صناعات الغزل والنسيج وغيرهما . وانتشرت أساليب الزراعة بالآلات الحديثة فى انجلترا . وكان من نتائج ذلك أن هجر الفلاح الصغير مزرعته ، وأهرع إلى المدن فوجدها مزدحمة بالعمال وأصحاب رؤوس الأموال . ومن ثم انقسم الشعب الانجليزى كما يقول «دزرائيلى» قسمين بل أمتين : أمة الملاك وأصحاب رؤوس الأموال ، وهى التى أثرت إلى حد التخمة . وأمة العمال وصغار الملاك وهى التى افتقرت إلى حد يقرب من الاملاق

وغمرت المنتجات الانجليزية أسواق العالم فى مستهل عهد الانقلاب الصناعى . ولكن القرن التاسع عشر لم يكد ينتهى حتى كانت الثورة الصناعية قد انتشرت فى جميع الدول الغربية وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت منافسة تجارية حادة بين تلك الأمم الأوربية . وبعد أن كانت انجلترا فى مستهل القرن التاسع عشر تأخذ نفسها بمبدأ حرية التجارة الذى نادى به « آدم سمث » أصبحت فى نهاية ذلك القرن مضطرة بازاء المنافسة التجارية الحادة إلى أن تلتمس لنفسها أسواقا لتصريف بضائعها ، بل لا ترى بدا من استخدام القوة المادية بغية الحصول على هذه الأسواق !

ومن هنا بدأت انجلترا حركتها الاستعمارية الواسعة . فتمت لها السيطرة على بوغاز جبل طارق وغيره من المواقع الهامة فى البحار والمحيطات . وامتدت سيطرتها إلى استراليا وكندا ونيوزيلندة ، وجنوب افريقيا ، ومصر والسودان ووصلت إلى الهند .

ولكن – ترى هل تقف الدول الأوربية مكتوفة الأيدى أمام تقدم الانجليز فى هذا الميدان ؟ كلا – فقد تطلعت هذه الدول هى الأخرى إلى أسواق توزع فيها بضاعتها ، وأخذت تسعى فى تكوين امبراطوريات تضارع امبراطوريتها . وقد أفضى كل ذلك إلى احتكاك دائم بين جميع تلك الدول .

وما كان حادث « فاشودة » كما سنرى الا مظهراً من مظاهر هذا الاحتكاك بين انجلترا وفرنسا . أما الألمان فحين رأوا الانجليز سبقوهم إلى احتلال مصر والسيطرة على الهند روجوا لمشروع « سكة حديد بغداد » يرومون به الوصول إلى أسواق الشرق عن طريق البر إذ حيل بينهم وبين الوصول إليها عن طريق البحر

على أن نتائج الانقلاب الصناعى لم تكن مقصورة على ظهور التنافس الاستعمارى أو التجارى بين دول الغرب ، بل كان من آثاره كذلك ظهور الصراع الاجتماعى بين الطبقات وتبلور المذاهب الاشتراكية على يد « كارل ماركس » « وبرنارد شو » ، و « وب » فى انجلترا وإن كان المذهب الاشتراكى الذى قده كارل ماركس على قدر المجتمعات الصناعية فى المانيا لم يقدر له أن ينتصر انتصارا تاماً إلا على يد لينين في الروسيا .

وكأنى بمخرج هذه المسرحية التاريخية التى نتحدث عنها قد أحب أن يريح أعصاب النظارة بعد مشهدين ثائرين عاصفين من مشاهد هذه المسرحية ، فأتى بالمشهد الثالث منها هادئاً لا يتحدث فيه إلى عواطف الجماهير بل يتحدث فيه إلى عقولهم ، ولا يحتكم فى قضاياه إلى السيف بل يحتكم فيه إلى العقل وإلى العلم . ومن ثم أتى .

المشهد الثالث

وفيه نشر « شارلس ليل » **Charles Lyell** كتابه «مبادىء الجيولوجيا» وذلك بين عامى ١٨٣٠ ، ١٨٤٣ وقال فيه إن تاريخ العالم كله مكتوب على صخوره وإن قراءة هذه الصخور قد أثبتت أن عمر العالم يقدر بألوف الألوف من السنين

ثم نشر شارلس داروين **Charles Darwin** كتابه « أصل الأنواع وطريقة الانتقاء الطبيعى عام ١٨٥٩ ثم لم يلبث أن قفاه بمؤلفه العظيم « تسلسل الانسان » فكانت هذه المؤلفات كلها هي القارعة التى أيقظت الناس من سباتهم ، ونبهت عقولهم كما يقول بيكون فى « القسطاس الجديد » .

أجل — أحدثت هذه النظريات الجديدة آثارها العميقة فى الدين والسياسة ،

أما فى الدين فقد أشاعت فى الناس موجة من الشك والالحاد كما ذكرنا .

وأما فى السياسة فقد حاول القادة فى أوربا أن ينتفعوا من بحـــوث علم البيولوجيا فنادوا بتشجيع السلالات القوية وتعقيم السلالات الضعيفة . وغالى بعضهم بعد ذلك إلى حد أنه أخذ يروج للنظرية القائلة بتفوق جنس على جنس وطفق الانجليز أنفسهم يقسمون البشر إلى بيض وسود . ويزعمون أن معدن البيض مخالف لمعدن السود . وما برحت هـــذه النظرية تتطور مع الزمن حتى تبلورت فى إنجيل الثورة الالمانية ، ونعنى به كتاب « كفاحى » لهتلر . وهو الكتاب الذى دعا فيه الرجل إلى سيادة الجنس الآرى على بقية أجناس البشر ثم شاء القدر أن يكون تعصب هتلر على هذا النمط عاملا من العوامل التى أسرعت بألمانيا نفسها إلى سوء المنقلب .

* * *

وندع هذه المسرحية الاوربية جانباً لنلقى نظرة أخـــرى على هذا العالم الاوربى بعد إذ غدا مسرحا للتنافس التجارى والتنافس الاستعمارى ، وأصبح كالمحموم الذى أخـذته رعدة قوية وعجز عن أن يقف اهتزازات جسمه العنيفة من أثر هذه الرعدة .

ففى الثامن عشر من شهر يناير ســنة ١٨٧١ أزيح الستار فى بهو « المرايا » بقصر فرساى عن حادث جلل هو إعلان الامبراطورية الالمانية ، وكانت هـــذه الامبراطورية بل الوحدة السياسية الالمانية ثمرة جهود قوية بذلها ذلك السياسى الذائع الصيت « بسمارك » وقد نجح ذلك الداهية فى إغراء فرنسا باحتلال تونس ليتلهى الفرنسيون بهـا عن الالزاس واللورين . ووقف يرقب النزاع بين الانجليز والفرنسيين حول مصر والسودان . واستطاع ذلك السياسى الخطـــير كما يقول الاستاذ محمد رفعت باشا فى كتابه « التيارات السياسية فى حوض البحر الابيض المتوسط » أن ينتهج لنفسه خطة من شأنها أن تكفل لألمانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية فى القارة الاوربية .

قامت خطة بسمارك على إضعاف فرنسا ، وعلى الايقاع بينها وبين انجلتره ، وخاصة منذ أصبحت الأولى ناقمة على الثانية بسبب انفرادها بتلك الغنيمة الباردة مصر ، حتى إذا نشبت الثورة المهدية في السودان وأصبح هذا القطر هو الآخر غنيمة لمن يسبق صاحبه إلى الظفر به في ميدان الاستعمار تطلعت فرنسا إلى هذه الصفقة الجديدة تريد أن تظفر لنفسها بحظ منها . فأرسلت حملة بقيادة المارشال ماريشان Marechand إلى الكنغو الفرنسى فسارت الحملة إلى هناك ثم اتجهت إلى الشمال قاصدة بحر الغزال إلى أن وصلت إلى « فاشودة » عند مصب السوباط . وهناك رفعت الحملة الفرنسية علمها على تلك البلدة . وكانت فرنسا ترمى من وراء هذه الحركة إلى أغراض شتى :

منها أن ترغم انجلتره على الاعتراف بنصيبها فى السودان . ومنها مفاوضة انجلترا عند ما تسمح الظروف بذلك فى أمر الجلاء عن مصر .

ولكن كتشنر خيب ظنون الفرنسيين منذ تصدى لحملتهم عند « فاشودة » وأقنعهم بالانسحاب عن هذه المنطقة بحجة أنها مصرية .

ولقد كان لهذا الحادث الخطير أسوأ الأثر فى نفوس الوطنيين المصريين الذين علقوا آمالهم فى جلاء الأنجليز على مناهضة السياسة الفرنسية للسياسة البريطانية الاستعمارية . ثم جاءت رسائل مصطفى كامل التى أخذ يبعث بها إلى مدام جوليت آدم تفيض بالألم وتفصح عن خيبة الرجاء . قال فى إحداها : « إن السياسة الأوروبية تبغض إلى بكل جوارحى المدنية الحديثة . ولكن السياسة الفرنسية تعكس أمرى وتجعلنى ذاهلا أمام التناقض الغريب المسطور فى تاريخها . عجبا — أنسيت فرنسا فاشودة ؟ إن الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحدا يجعلنى آملا فيها الخ » .

وفى سنة ١٨٨٨ اعتلى عرش المانيا الأمبراطور « وليم الثانى » وكان شابا طموحا شديد الغرور بنفسه ، محبا للظهور ، أشربت نفسه حب الروح العسكرية البروسية فأعلن أنه ليس هناك غير سيد واحد في المملكة الألمانية هو « أنا » .

ومن أجـــل ذلك عزل بسمارك مؤسس الأمبراطورية الالمانيةوبطلها الاوحد. ومنذ يومئذ وألمانيا تفتقر إلى سياسى كفء يقود سفينتها .

ثم لم يلبث الامبراطور أن فاه بتصريح خطير أعلن فيه « أن المانيا أصبحت بفضل صناعاتها وإتساع نفوذها الاقتصادى دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيانها أن يكون لهـا أسطول بحرى يضارع أكبر أسطول فى العالم » .

أجل ـ لقد كان هذا التصريح الذى نطق به الامبراطور الالمانى فى أوائل القرن العشرين أخطر تصريح له فى حياته وحياة المانيا . وهو إن دل على شيء فانما يدل على جهل هذا الشاب بنفسية الشعب الانجليزى وجهله بآماله وطبيعة كيانه فان الانجليز وإن استطاعوا أن يغمضوا جفونهم على القذى ، ويطووا بطونهم على الطوى يستطيعون السيطرة على أعصابهم ولا يقدرون على ضبط نفوسهم إذا رأوا سيادتهم على البحار أصبحت مهددة بخطر .

ومهما يكن من شيء فقد كان من نتائج هذه السياسة الألمانية الجديدة أن يئست انجلترا من صداقة المانيا . ثم زاد الطين بلة أن اعتلى عرش الامبراطورية البريطانية « ادوارد السابع » وكان شديد الكراهية لقريبه وليم الثانى امبراطور المانيا . فسعى الملك ادوارد في التقريب بين السياسة الانجليزية والسياسة الفرنسية وكللت جهوده بنجاح تام بهذا الاتفاق الودى الذى عقده عام ١٩٠٤ وبمقتضى هذا الاتفاق أطلقت فرنسا يد انجترا فى مصر والسودان ، وأطلقت انجلترا يد فرنسا فى شمال أفريقية . وبذلك وضع الاتفاق الودى كما يقول السير « ادوارد جراى » حدا نهائيا لسياسة وخز الابر التى كانت قائمة بين فرنسا وانجلترا فى كثير من أنحاء العالم .

وإذا كان حادث فاشودة قد آلم المصريين ، وفت فى عضدهم إلى حد كبير فقد كان الاتفاق الودى قاصمة الظهر التى أطاحت بكل ما بقى لهم من أمـــل فى

مساعدة فرنسا لهم فى محنتهم . يقـول مصطفى كامل فى رســالة له إلى مدام جوليت آدم :ـ

« ليس فى وسعى أن أتسلى عن همومي أمام هذا الوفاق الانجليزى الفرنسى المشئوم الذى سيكون من ورائه أسوأ النتائج على وطننا التعس وخديوينا السيء الحظ . كما أنه ليس فى وسـع جميع مدارس المعمورة أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . إن مواطني يكرهون اليوم فرنسا أكثر من انجلترا نفسها أقول ذلك وإن كنت أعلم أنه من القساوة المتناهية أن أقوله لك . ولـكن أليست الصراحة أساس كل مودة وروحها ؟ . إنى أتألم ألماً مزدوجا أتألم لك ولى وإلا فأذكرى أن فرنسا هي أول دولة صادقت على الاحتلال بعقـد رسمى . أما أذل الوطنيين المصريين والفرنسيين ؟ إنك لاتدرين مبلغ تشامخ الانجليزفى الوقت الحاضر. فانهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنساولهم الحق أن يسخروا وأن موقفى الذاتى يصير مع ذلك من أضعف المواقف وأخطرها. فان جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا إما أصـــدقاء للانجليز وإما يائسون » .



المقدمة الثانية

أوروبا والاسلام

منذ أصبحت أمم الشرق هدفا من أهداف الاستعمار الاوروبى و الساسة الاوربيون يفكرون جديا فى هدم كيان هذه الأمم وتوهين قواها وحل الرباط الذى يربط بينها ، سواء أكان هذا الرباط سياسيا كما تصوره العلاقة بين الدولة العلية والأقطار الاسلامية التى تدين لها بالزعامة الحقيقية ، أم كان هذا الرباط معنويا كما تصوره العقيدة الاسلامية التى تتعلق بها جميع الدول العثمانية . ومن ثم انصرفت جهود أولئك الجبابرة المستعمرين الى تلك الدولة العلية يريدون اضعافها وقد كانت هذه الدولة من حظهم تعانى اذ ذاك من آلام المرض والشيخوخة ما أطمع فيها تلك الدول الأوروبية . فاجتمعت كلمتها على تمزيق الدولة العلية وتقسيم هذه الدولة التى عرفت فيما بينهم باسم « الرجل المريض » ورمزوا الى فكرة تقسيمها باسم « المسألة الشرقية » .

والمسألة الشرقية فى نظر المؤرخين عامة — ومصطفى كامل بوجه خاص — هى مسألة وجود الدولة العلية من قلب القارة الاوروبية وكان من أسباب عداوة الأوروبيين للعثمانيين اختلاف هؤلاء وهؤلاء فى الدين ورغبة الأوروبيين فى تقسيم الدولة العثمانية كما قلنا بحجة حماية رعايا المسيحية .

وكانت انجلترا من بين الدول الأوربية اشدها بغضا للاسلام والمسلمين ، واكثرها رغبة فى إغتنام الفرصة الثمينة التى تتيح لها امتلاك جزء من املاك العثمانيين . وقد أصبحت هذه المسألة الشغل الشاغل للعلماء والساسة على السواء . فأما العلماء فقد كتبوا فى موضوع الاسلام كتبا شتى ومنها على سبيل المثال كتاب المستر بلانت « مستقبل الاسلام » وأما السياسيون فقد تمخضت أفكارهم عن مشروع (الخلافة العربية) ليحل محل الخلافة العثمانية .

ومهد ذلك لدخول الانجليز مصر واشتراكهم مع المصريين فى امتلاك السودان فيما بعد. وهكذا نبه المستر بلانت فى كتابه السابق الذكر إلى أن العالم الاسلامي قوة كبيرة، وأن المدبر لأموره يكون قوياً واسع السلطان، وأن نابليون كان من أغلى أحلامه تحقيق تلك الأمنية وأن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون فى المدينة أو مكة، وأن خليفة المسلمين يجب أن يكون رئيساً دينياً لا ملكا دنيوياً. (١)

هكذا وصف مصطفى كامل المسألة الشرقية من بعض نواحيها بأنها مسألة النزاع القائم بين إنجلترا وبعض الدول الأوروبية بما فيها الدولة العلية وقال بعد ذلك: — « فواجب المسلمين أن يلتفوا جميعاً حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة، وأن يعززوها بالأموال والأرواح. فى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم، وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها. (٢)

وسترى فى بعض فصول هذا الكتاب كيف عنيت جريدة اللواء عناية تامة بالمسألة الشرقية، وشغلت نفسها طويلا بأخبار الحرب المقدونية. وذلك فضلا عن أن صاحب اللواء بدأ حياته السياسية بتأليف كتاب خاص بالمسألة الشرقية هو هذا الكتاب الذى اقتبسنا منه العبارتين السالفتين.

تلك إذن نظرة العالم الأوربى كله إلى العالم الاسلامى كله. وأنظر بعد ذلك إلى عبارة مصطفى كامل، وهى العبارة التى يقول فيها

«وكان من المنتظر من اللورد كرومر — وهو الحاكم المطلق على أمة غير أمته لها آداب غير آدابه وعادات غير عاداته — أن يتقرب ما استطاع من نفس الأمة التى يحكمها ليقف على شىء من أفكارها، وليجذب إليه ثقتها وإخلاصها. أى أنه كان المنتظر منه أن يخفف من مرارة الحكم المطلق فى النفوس باتباعه سبيل المستبدين الشرقيين فى احترام آداب الأمم التى يحكمونها، والوقوف بأنفسهم على

(١) راجع كتاب المسألة الشرقية لمصطفى كامل صفحة ٢٨

(٢) نفس المصدر صفحة ٣٠

عاداتها وتقاليدها . ولكن قصر اللورد ولم يفعل مافعله بونابرت من قبله . فالجنرال بونابرت بقى مدة إقامته فى القاهرة وهو يزور المساجد ويحضر الصلاة والأذكار ، وما ترك شعيرة من شعائر الله إلا واستفسر عنها ولا حفلة من الحفلات الدينية إلا شهدها ولا حلقة من حلقات الدروس الاسلامية إلا دخلها وكان يحترم عقائد المسلمين احتراماً جماً ، حتى لقد كان يتظاهر باعتقادها والايمان بها . وكان له محادثات دينية وفلسفية مع علماء الاسلام وشيوخه ، أرسل تفاصيلها تباعا إلى حكومته فنشرتها وقتئذ فى جريدتها الرسمية . بل إنه بلغ من شأن بونابرت فى اهتمامه من هذا القبيل أن كل أفكاره كانت فيها نزعة شرقية كما لاحظ ذلك رجال السياسة فى عهده وأن وجهه كان موجهاً شطر المشرق كأنه وطنه ، أما اللورد كروم فنزعت به منازع الصلابة الانجليزية فلم يكلف نفسه عناء البحث ، ولا مشقة الدرس ، ولا حسن التودد للمسلمين :

يعيب اللورد دين الاسلام بأنه مجموع مبادىء صورت منذ أكثر من ألف عام لادارة شئون جمعية فى حالة البداوة . فهذه اللفظة « صورت » لا يمكن أن توجد فى الدنيا إساءة فى اختيار ألفاظ لمعان مثل إساءة اللورد فى اختيار لفظة « صورت » لمبادىء دين يعتنقه الملايين من الناس . وماذا يقول رجال الكنيسة الانجليزية إذا عبر عن التوراة والانجيل بمثل هذا التعبير ؟ ولكن لندع هذه الاساءة فى الاختيار فما هى تستحق فى نظرنا التفاتا .

إذا كان يعد من عيوب الديانات تقادم العهد عليها وعدم تغيير مبادئها ، فلعل اللورد لا يجهل أن المسيحية أقدم عهدا من الاسلام بخمسة أو ستة قرون ، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد من أعدائها أن يعيبها بقدم عهدها . ثم هؤلاء الكاثوليك يفخرون كل الفخر بثبات مبادىء الديانة الكاثوليكية وعدم تغيرها . بل هؤلاء المصلحون البروتستانت أنفسهم لم يدعوا إلا إلى الرجوع إلى المسيحية الأولى واتباع تعاليم الكنيسة فى صدرها الأول . فاذا كان اللورد كرومر يعيب الديانة

الاسلامية لقدم عهدها وعدم تغيير مبادئها فأولى به أن يعيب دين أمته لأنه دين المسيحية الأولى ، ولأنه أقدم من الاسلام عهداً » (١).

هكذا كان موقف الانجليز من الاسلام منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، ومنذ طفقوا فوق ذلك ينشرون الشك والريبة فى نوايا المسلمين والخوف من انتعاشهم وتكتلهم ، ويرون فى كل نهضة من نهضاتهم نذيراً لهم بسوء مصيرهم فى الشرق الاسلامى .

والذى يثير العجب والدهشة فى نفوس المؤرخين المحدثين هذا الذى بالغ فيه بعض الانكليز من تصوير نهضة المسلمين على نحو أثار الخوف فى قلوب الكثيرين من ساسة الأوروبيين والأمريكيين فأخذت طائفة من هؤلاء وأولئك تتبع الانجليز فى أوهامهم وتصوراتهم ، وتنساق معهم فى هذا السبيل .

ولقد كان من نتيجة ذلك أن طفقت الصحافة الأوروبية منذ ذلك الحين تكثر من الكتابة فى موضوع الاسلام والمسلمين ، وقد ابتدعت لذلك عنوانا طريفا أخاذا هو عنوان (الجامعة الاسلامية) .

كل ذلك والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لا يفكرون إلا فى نفوسهم ومحنهم ، فان تجاوزوا ذلك إلى غيرهم ، ففى البحث عن الوسائل التى يتذرعون بها للتخلص من نير الاستعمار الأوروبى والوسائل التى توصلهم إلى الحكم النيابى .

وحين أخذت المقالات تترى على الصحف الأوروبية بعنوان (الجامعة الاسلامية) وجدت الصحافة الوطنية فى مصر نفسها مضطرة إلى الرد على ماجاء فى تلك الصحف . وكان من أولى الصحف الوطنية فى تلك الفترة صحيفتان هامتان هما : صحيفة المؤيد وصحيفة اللواء .

أما الأولى فقد تحدثنا عنها فى غير هذا المكان . وأما الثانية فما أكثر ما نشرت من المقالات بعنوان .

(إنجلتره والاسلام) ، (فرنسا والاسلام) ، (أوروبا والاسلام) ، (مصالح

---

(١) مجلة العالم الاسلامي – عدد أبريل سنة ١٩٠٧

الدول والاسلام) ؛(مستقبل الاسلام) . وسنعود إلى ذلك فى فصل من فصول هذا الـكتاب إن شاء الله .

والحق أن سياسة على يوسف وأراءه الشخصية — كما يقول عنه الخديو عباس — كانت قائمة بصفة خاصة على الوحدة العربية . . . ولـكن كان من رأيه أن فترة الحروب الصليبية قد إنتهت إلى الأبد) (١) .

والحق أيضا أن مصطفى كامل كان أشد من على يوسف محافظة على الطابع الدينى الذى ظهر بوضوح فى نتاجه الصحفى بجريدة اللواء ، ولتندار أجيبسيان . وغيرهما وأن فـكرة التـكتل الاسلامي على النحو الذى تخشاه أوروبا ، ويبالغ فى تصوره اللورد كروم كانت تداعب خياله ، وإن كان ضعف الأمل فى تحقيقها على تلك الصورة .

وصحيح قبل هذا كله أن فى المسلمين منذ ظهورهم نزوعا إلى الترابط والتآلف إستجابة منهم لقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ولقول نبيهم صلوات الله وسلامه عليه (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ولقوله كذلك (المسلمون تتكافأ دماهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) . ولـكن الاسلام كما دعى إلى هذه الأخوة الاسلامية دعا كذلك إلى الأخوة الانسانية يدل على هذا قوله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وكما يدل عليه الحديث الشريف (لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) . وأكثر من ذلك وأقوى منه دلالة على سعة صدر الاسلام أنه دعا المسلمين إلى العدل فى معاملة المشركين مالم يعتدوا عليهم . قال تعالى « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم — الآية » .

جهل الأوربيون عن الاسلام كل هذه الأمور ، وراحوا يخلقون (للجامعة الاسلامية) معنى سياسياً يبعث الرعب فى النفوس ، ويحل اليأس محل الأمل فى

---

(١) جريدة المصري ١٥ مايو سنة ١٩٥١

بقاء الأوربيين مستبدين بالأمم الاسلامية التى أصبحت فى هذه الفترة من فترات حياتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام تيار الاستعمار الأوربى .

وقد أعجبنى فى هذا المعنى مقال كتبه لمجلة القرن التاسع عشر الانجليزية الدكتور بهجت بك وهي تحت عنوان « الجامعة الاسلامية » جاء فيه :

« لا ريب فى أن الدول الأوروبية جعلت لنفسها مركزاً قلقاً فى سياستها الاستعمارية . لأنه ظهر أخيراً أن أقل مظهر من مظاهر الحياة يبدو على حدود أملاك تلك الدول الممتدة إلى آلاف الأميال يلفت أنظارها بسرعة غريبة ، ويزعجها جميعاً . وكل علامة من علامات التقدم فيما وراء تلك الحدود تنقلب إلى خطر يتهدد تلك الدول .

فانه منذ عهد قريب شغلت أوروبا نفسها بالخطر الأصفر

وماذا كان نوع هذا الخطر ؟ هل أظهرت الأمم الصفراء رغبة فى الاغارة على الممالك الأوروبية ؟ كلا . إن الخطر الذى حدثت بشأنه تلك الضوضاء العظيمة لم يكن يتهدد السلام العام فى أوروبا . ولكنه زعزع آمال الدول الاستعمارية التى كانت تؤمل أن تضع تلك الأمم تحت نيرها الأبدى ، لأن أوروبا كانت تعتبر تلك الأمم الصفراء لا تستحق إلا المذلة والاستعباد .

ولكن لحسن حظ الانسانية نالت اليابان مقداراً وافراً من النصر على أمة الروس ، وهي الأمة التى كانت تمثل السلطة الأوروبية . وكذلك نهضت الصين نهضة شماء ، وأظهرت ميلها لمقاومة الأجانب ومسابقتهم . فكان ذلك الضربة القاضية على آمال الأمم المستعمرة فى الشرق الأقصى .

ولما أفلتت تلك القطعة الكبرى من أيدى أوروبا هنأت نفسها على بقاء الأمم الاسلامية ، حاسبة أنها تلتهم تلك الممالك لتسد بها جشعها .

ولكن منذ أظهر العفاريت الصفر أنهم لم يذعنوا ، ولن يرضخوا أحست أوروبا أن نفوذها أخذ يقل شيئاً فشيئاً فى ممالك الاسلام التي اعتبرتها « أملاكها الخاصة » .

خشيت أوروبا من روح الاستقلال الحديثة التي ظهرت ، واخترعت إسماً جديداً لتلك النهضة التي اعتبرتها الخطر الاسلامي ، هو (الجامعة الاسلامية).

ويحق لأوروبا ألا تخشى من الجامعة الاسلامية خطراً إلا بمقدار ما خشيت من الخطر الأصفر . لأن النهضة الاسلامية خالية من كل روح عدائية . إنما هي نتيجة لاستيقاظ تلك الأمم من السبات العميق الذى أصابها ، ورغبتها فى التخلص من النفوذ الأوروبى الذى يعمل على الدوام على تأخر المسلمين أكثر مما يعمل على تقدمهم .

وقد انتهزت تلك الدول فرصة وجود الممالك الاسلامية حول أملاكها ، وأخذت تذيع خبر الخطر الذى يتهددها من الاسلام وتكبره وتعظمه . وبلغ بها الميل للاغراق إلى درجة أنها أخذت توهم العالم بأن الجامعة الاسلامية اذا تركت وشأنها تؤول بلا شك إلى ضياع المدنية الحديثة التى هى ثمرة أعمال البشر فى القرون كلها . وهي كذلك تدعى بأن الجامعة الاسلامية تحرض طبقات العامة وتهيجها . وفى كلمة واحدة إن ممالك أوروبا تريد أن توهم العالم المتمدن بأنه سيرى من أخطار الجامعة الاسلامية ومصائبها أشد مما رأته أوروبا من الوحشيين فى القرون الوسطى . ولم تلجأ أوروبا إلى هذه الحيلة إلا لأنها علمت أنها ليست فى حاجة إلى المطالبة بالأماكن المقدسة . ولذا اخترعت وسيلة جديدة ، وهى الرغبة والتفانى فى حماية المدنية الانسانية من غوائل المسلمين وتوحشهم !

ثم طفق كاتب هذا المقال يصور آمال المسلمين ، ويعرف الأوروبيين نهضتهم وبالغرض الذى ترمى اليه الأمم الاسلامية من وراء هذه النهضة . وذكر أن أوروبا استمعت إلى أقوال المستشرقين فيما سموه (بالجامعة الاسلامية) وهي آراء يكتنف الخطأ معظمها ، وقال لهم إن النهضة الاسلامية ليست إلا يقظة المسلمين فى سائر الأقطار الاسلامية لمقاومة الظلم الواقع عليهم .

وانتقل الكاتب من ذلك إلى الرد على الأوروبيين الذين ذهبوا فى تصوير (الجامعة الأسلامية) بصورة التعصب الديني ، فسألهم :

هل يقترف المسلمون ذنبا لا يغتفر اذا سعوا لنيل حريتهم واستقلالهم ؟ ألم تحدث مثل هذه الثورات فى أوروبا فى القرون الماضية لنيل هذه الحقوق ؟ ومن أين علمت أوروبا أن المطالب التى تؤدى بأصحابها إلى الحرية والسعادة الأبدية والتقدم الحقيقى ليست إلا تعصبا مذموماً ؟ ألا يحق لنا أن نسأل أينا جدير بصفة التعصب : الشرق أم الغرب ؟ وهلا تدل هذه المفتريات على سوء نيات أصحابها ؟

على أنه من الانصاف لبعض كتاب هذا الغرب أن نقول إن منهم من أنصف الاسلام فى بعض الكتب أو الصحف . ولكن هؤلاء قليلون فى جملتهم . وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى مقالة له بعنوان (سفينة الاسلام) نشرت بجريدة اللواء فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٣ .

« وخليق بالأتراك أن يذكروا كلمة حكيم من حكماء أوروبا الذين أنصفوا المسلمين والاسلام حيث قال : — المسلمون فى فضائلهم أكبر الأمم وأفضلها ، ولكنهم دون الغربيين فى قوة السواعد التى سلحها العلم . ولا فوز فى أى معترك لطاهر القلب الشريف الاعتقاد ، بل الفوز للقوى البنية ، ومهما ارتقى النوع الانسانى فان القوة المادية تبقى فيه أشد فعلا ونفوذا من القوة المعنوية.

(ألجامعة الاسلامية) إذن ليست فى الواقع إلا شعوراً عاماً لدى المسلمين جميعاً بالظلم ، وشكايات متكررة من وقع هذا الظلم ، ورغبة عامة فى النهوض بأممهم للتخلص الأبدى من آثاره إلى الأبد.

وحول هذا المعنى دارت المقالات الكثيرة التى نشرتها جريدة اللواء فى موضوع (أوربا والاسلام)وسيعود هذا البحث إلى تكملة الحديث عن هذه القضية الهامة فى فصل خاص من فصول هذا الكتاب عنوانه (اللواء والاسلام والدولة العلية).

مهما يكن من شىء فقد كان لهذا الشعور العام من جانب أوروبا نحو الاسلام أعمق الأثر فى مصر . فقد رأينا الاحتلال الانجليزى فيها يسيء الظن بالمسلمين إساءة بالغة ، ورأينا المصريين من جانبهم يضيقون كثيرا بهذه الاساءة البالغة

وأكثر من هذا كله أن الحياة العامة فى مصر تأثرت بهذا الشعور الذى نتحدث عنه . من ذلك — مثلا — أن الانجليز كانوا فى وقت ما يقصرون الوظائف الحكومية على القبط دون غيرهم من أهل مصر ، وأحس المسلمون وقع هذا الظلم ، ومن هؤلاء المرحوم حافظ ابراهيم ، وقد لبث زمانا طويلا يحاول الحصول على (وظيفة) يأكل بها العيش ، فلما لم تتيسر له نظم قصيدة أولها :

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما وعدت وما أعقبت الا التندما
لحى الله عهد القاسطين الذى به تهدم من بنياننا ماتهدما
اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلاتك مصريا ولاتك مسلما!

* * *

أيا ما كان الأمر فقد كان دفاع اللواء عن الاسلام بمثل هذه الحرارة من جانب مصطفى كامل بنوع خاص نتيجة لأمور كثيرة ، منها ظهور حركة الالحاد التى فشت فى الشرقيين منذ اتصالهم بالعقل الأوروبى الحديث ، وكانت نتيجة لجهود المبشرين التى نمت وترعرعت فى ظل الاحتلال الأجنبى البغيض .

وعندى أنه لامجال للشك فى أنه لولم يهاجم الأوروبيون الاسلام على هذا النحو ، ويسخروا من عقول المسلمين إلى هذا الحد لما كانت ثم حاجة إلى تلك الفصول الطويلة التى كتبها كل من المويلحى الكبير والسيد على يوسف ومصطفى كامل فى صحف مصباح الشرق والمؤيد واللواء ، ولما احتلت هذه الفصول فراغاً كبيراً من تلك الصحف

المقدمة الثالثة

من هم بناة الوعى القومى فى مصر ؟

فى غضون ذلك كانت شجرة القومية تمتد جذورها فى الأرض وتسمو بفروعها فى الجو . وكانت قلوب الشباب تهوى إليها كما تهوى الحمائم الظمآى إلى ماء النبع فأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها تشعر بما يجمع بين أفرادها من روابط الجنس واللغة والتقاليد ، وتعمل على لم شعثها فى وطن واحد تحت سلطان واحد ، حتى إذا بلغت من ذلك ما تريد سمت تفرض سلطتها على ماجاورها من الأمم والشعوب . فأنشأت الأمم الصغيرة المغلوبة على أمرها تتمرد وتتذمر ، كما أنشأت الأمم الغالبة الظافرة تتحفز وتتنمر .

وإن المرء حين يتحدث عن القومية فى ذاتها لا يجد بداً من أن يسأل نفسه هذا السؤال : أخير هى أم شر ؟ أنذير حرب هى أم بشير سلام ؟ أوسيلة هى من وسائل التقدم والعمران أم وسيلة من وسائل التأخر والخراب ؟

مهما يكن من شىء فقد كانت الروح القومية — كما يقول « رمزى ميور » أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر — من أقوى العوامل السياسية فى العالم عندما اشتعلت نار الحرب الكبرى ، التى ساعدت على تفتيت الامبراطورية العثمانية وقوضت أركانها ، وذهبت بسلطانها ، وحملت الشعوب البلقانية على الكفاح ، فسعت للتخلص من أيدى الأتراك ، وأعانتها الدول الكبرى بالسلاح والرجال حتى كتب لها الظفر بحريتها بعد نضال شاق .

ثم لم تلبث شعلة القومية أن عبرت البحر ، وانتقلت بسرعة البرق من الغرب إلى الشرق ، وأخذ الحلفاء — خدمة لمآربهم الخاصة يدفعون العرب إلى الثورة على السيادة التركية .

أما فى مصر خاصة فيقول المؤرخون إن القومية المصرية مرت بمرحلتين متميزتين :

أولاها — كانت مصر فيها تحاول الظفر بحظ من الاستقلال الذاتى ، وتعمل شيئا فشيئا على التخلص من الحكم التركى.

والثانية من مراحل القومية المصرية تبدو فى الأطوار التى مرت بها القضية المصرية منذ تطلعت مصر إلى نيل حريتها واستقلالها وتبلغ هذه المرحلة ذروة قوتها فى حركة مصطفى كامل وفى الثورة الوطنية الكبرى التي قادها سعد زغلول سنة ١٩١٩ .

ولعل إقدام الحكومة المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٥١ على إلغاء المعاهدة الانجليزية المصرية التى أبرمت سنة ١٩٣٦ أحدث مظهر من مظاهر هذا الكفاح القومي المرير ، وهو الكفاح الذى نريد أن نقف عنده ، ونقفو أثره ، ونترسم خطاه ، لنرى من هم بناة هذا الوعى القومي فى مصر ؟

صحيح أن مصطفى كامل كان الباعث الحقيقى للشعور بالقومية المصرية. ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن هذه الحركة التى قام بها كانت مسبوقة بحركات أخرى لا يصح إغفالها ، ولا ينبغى للمؤرخ الحديث أن يهمل ذكرها فى معرض الكلام عن هذه الحركة القومية .

تحدث الخديو عباس فى مذكراته عن السيد على يوسف حديثا طويلا ثم ختم حديثه بقوله :

« . . . وكانت الأرض قد حرثت . وكان العاملون على قدم الاستعداد للبدء وكان على العناية التى تسهر على الشعوب كما تسهر على الأفراد أن ترسل إلى مصر باذر حب الوطنية المنتظر مصطفى كامل(١) .

والحق أن تاريخ الوعى القومى فى مصر يمكن أن يرجع على الأقل إلى بداية القرن الثامن عشر وهو القرن الذى شهد نشاط محمد على . وقد وفق هذا العاهل العظيم إلى تجنيد جيش من الفلاحين المصريين وكم كان الثوب العسكرى الذى يرتديه أولئك الفلاحون يثير فى نفوسهم العزة والاباء والشعور بالعظمة والكبرياء . ثم جاءت فتوحات ابراهيم وما أبلاه الجيش المصرى من البلاء الحسن

(١) جريدة المصرى فى ١٤ مايو سنة ١٩٥١

فى حملة الشام تزيد هذا الشعور فى نفوس المصريين قوة . وتبعث فيهم الوطنية التى لم تخف على المؤرخين الفرنسيين، فأشاروا فى كتبهم كثيراً اليها .

ثم يأتى بعد ذلك رائد النهضة الحديثة فى مصر — رفاعه رافع الطهطاوى فيكتب فى التاريخ المصرى القديم ، ويكتب فى التربية الوطنية ، وتتردد فى كتبه معان جديدة من هذا القبيل ، ويصف لنا المواطن الصالح من هو ؟ وماذا عليه من الواجبات التي يقوم بها لرفاهية مصر والمصريين ؟ ويبدو هذا كله جديداً كل الجدة على الناس إذ ذاك لأنها أمور لايجدون لها نظيرا من كتابات الشيخ الجبرتى على قرب العهد بينه وبين رفاعه . ثم يظهر من بعده على مبارك ، ويؤلف كتابه العظيم « الخطط التوفيقية » وتظهر فى تضاعيفه الروح المصرية ، والقوة الوطنية ، ويصطنع فيه ألفاظا جديدة على المصريين ، ومنها اللفظ الذى استخدمه رفاعه وهو لفظ (مواطن) للتفريق بين المصريين وغيرهم من الأرمن والأتراك المقيمين بمصر . (١)

ثم يفد على مصر فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى فيهز الضمير المصرى بكلماته ، ويحى موات الأمل بألفاظه ، ويحرك فى مصر شعوراً جديداً هو شعور الأهلين بالكرامة ، ويزرع فى قلوبهم البغض الحقيقى لكل استعمار أجنبى ، ويهيب بمصر (واسطة عقد الشرق) أن تسبق الأمم الشرقية كلها إلى النهوض ، ويبلغ من هذا كله مايريد وأكثر مما يريد .

ويغادر السيد جمال الدين الأفغانى مصر ، ولكن يترك فيها روحه متمثلة فى نفر من أعظم تلاميذه منهم الشاب السورى أديب اسحق ، والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والشيخ الاسرائيلى يعقوب بن صنوع ، والرجل الشعبى السيد عبد الله النديم وكثيرين غيرهم من بناة مصر الحديثة ، وهم الذين أشعلوا فيها نار الحماسة الشرقية ، وناضلوا فيها عن اللغة القومية والعادات القومية ، فزادوا بذلك أنغاماً جديدة فى طنبور الوعى القومى .

---

(١) راجع كتاب « فى أصول المسألة المصرية » صبحى حيده ص ١٧١ ومابعدها

وفى أثناء ذلك كله يظهر عرابى وشريف ورياض وغيرهم من رجال الحكم والجيش ممن برزوا من بين صفوف الشعب ، ونجحوا فى الوصول به إلى درجة أعلى فى سلم الوعى القومى . وذلك بما كانوا يقومون به بين حين وآخر من حركات يراد بها مقاومة النفوذ الأجنبى تارة ، والحصول على أمانى الشعب المصرى نفسه فى حكم دستورى صحيح وحرية سياسية حقيقية تارة ، وجنوح فى بعض الأحيان إلى معارضة الجالس على العرش نفسه فى سبيل المصلحة العامة إذا اقتضى الأمر . فهكذا فعل شريف باشا الذى كان يصدر فى إصلاحاته عن فهم صحيح للأمور ، ويذهب بالتفكير فى ذلك إلى حد المعارضة السافرة لولى الأمر ، حتى نوبار وهو من اشترى الانجليز منه السودان — يقول عنه كرومر فيما كتبه إنه أول من أدخل نظم الحكم الدستورية فى مصر . وأول من ألف وزارة مسؤوله فى عهد إسماعيل وذلك فى ١٨ أغسطس ١٨٧٨ . وكان الخديو فى هذه الحكومة لا نفوذ له .

وتأبى الأسرة الحاكمة نفسها إلا أن تأخذ فيما يأخذ فيه الشعب المصرى من أسباب الحرية الصحيحة وإصلاح نظم الحكم فى مصر . فنراها تشارك مشاركة قوية فى هذا الاتجاه الأخير ، وتنيل المصريين كثيرا من حقوقهم السياسية بالتدريج ، وتمعن فى محاباة المصريين إلى حد أنها تبذر فيهم بذور حركة انفصالية ، تنفصل بها مصر عن الدولة العثمانية ، ولا تصبح مربوطة بعجلة الدولة العلية . وما كان قصد محمد على من إنشاء جيش مصرى قوامه الفلاحون المصريون إلا أن يوضح لتركيا وللعالم أجمع أن مصر قادرة على أن تحمى نفسها بنفسها متى تركت وشأنها . وكما تستطيع مصر أن تستغنى بأبنائها فى ميدان الجيش ، فكذلك تستطيع مصر أن تستغنى بأبنائها فى ميدان العلم . ومن ثم اتجه تفكير محمد على أيضاً إلى إرسال البعوث العلمية والمشاركة فى إحياء النهضة المصرية على النحو الذى أشرنا إليه فى الأجزاء السابقة من أجزاء هذه السلسلة .

وإن تنس مصر لا تنسى لسعيد أنه إنتصر للغة العربية ، وقرر أن تكون

هى وحدها اللغة الرسمية وأتى أبناؤه من بعده ، فأعانوا على إنشاء طبقة أرستقراطية فى العلم والأدب والجيش والصحافة . كان لها أثر كبير فى النهوض بوعينا القومى إلى هذا الحد .

وخليق بنا أن نذكر هنا أنه كان من دعاة الحركة الانفصالية فى مصر الأستاذ أحمد لطفى السيد (صاحب الجريدة) وأن فكرته هذه كانت معارضة لفكرة مصطفى كامل . ولكن شخصية الأخير أضفت على فكرته نوعا من الوهم المقدس (بلغة الخديوى عباس حلمى الثانى) فتشيع لها المصريون فى زمانه .

غير أن هذا الوعى القومى كان إلى ما بعد كارثة الاحتلال البريطانى وعيا مغلفا بغلاف الدين ، أو كان أشبه شىء بصورة جميلة ذات إطار روحى جميل . وكان لذلك أسباب كثيرة : منها تعلق المصريين بالأتراك العثمانيين ونظر كل مصرى إلى نفسه حتى ذلك الحين على أنه عثمانى . ثم استمساك المصريين بالدين الاسلامى الحنيف ، وإعتقادهم أنه لا حياة لهذا الدين إلا باتحاد الأمم التى تعتنقه بعضها مع بعض .

وأخيراً يصل بنا المطاف إلى هذه الطبقة من رجالات مصر ممن عاشوا فى عصر الاحتلال البريطانى ، وأخذوا على أنفسهم مقاومة هذا الخطر الأجنبى ، ومن هؤلاء : ابراهيم المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل . وقد بقيت الفكرة الاسلامية مسيطرة على هذه الطائفة ، وكان ظهورها فى ميدان الجهاد أقوى من ظهور الفكرة الوطنية الخالصة . بل إن هذه الفكرة الأخيرة لم تولد بالمعنى الصحيح إلا على يد مصطفى كامل .

وعلى ذلك فبناة الوعى القومى فى مصر كثيرون ذكرنا منهم محمد على وابراهيم وسعيد واسماعيل من أعضاء الأسرة الحاكمة ، ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأديب اسحق وعبد الله النديم ، من رجالات الفكر والعلم والصحافة ، وعرابى وشريف ورياض من رجالات الصفوة المهذبة .

كل واحد من هؤلاء وضع بيده لبنة فى بناء الوعى القومى . وكلهم تعاونوا

على إقامته حتى استوى له هذا العلو . غير أن الذى لا شك فيه أن الاحتلال البريطانى وما تبعه من ضيق شديد أحس به كل مصرى كان صاحب الفضل الأكبر فى بلوغ الحركة الوطنية إلى هذا الأوج .

نعم — كان الخديو توفيق يسالم العدو الأجنبى حتى إذا قبضه الله إلى رحمته وأتى بعده ابنه عباس إستأنف الجهاد والمقاومة ضد هذا العدو . ونجم عن تشاحنه مع النفوذ البريطانى أن سرى الروح الوطنى الذى أذكت ناره ظروف مختلفة أفاد منها مصطفى كامل أعظم فائدة .

واليك بعض الخطوات التى خطتها صداقة الأمير الشاب عباس حلمى بالزعيم الشاب مصطفى كامل كما تصورها لنا مذكرات أحمد شفيق باشا :

تعرف عباس حلمى بمصطفى كامل (منذ زار مدرسة الحقوق وألقى بين يديه الطالب مصطفى كامل قصيدة استقبال رحب فيها بسموه (١)

ثم اختلف الخديو عباس مع كرومر بشأن إقالة الوزارة الفهمية فثار الشباب وهاجم فريق منهم ، وعلى رأسهم مصطفى كامل الطالب بالحقوق إدارة جريدة المقطم لموقفها العدائى من الروح الوطنى الذى بثه الخديو .. (٢)

وأمعن المحتلون فى إيذاء هذا الروح الذى سرى فى صفوف المواطنين ورأوا تشكيل «محكمة مخصوصة» للحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر جيش الاحتلال أو ضباطه فأحدث ظهور هذه المحكمة الغريبة ضجة كبيرة فى الأوساط الوطنية وكتبت عنه الصحف . ومما نشر فى هذا الصدد مقال لمصطفى كامل بعنوان : صواعق الاحتلال : ندد فيه بهذه السياسة الجائرة (٣)

منذ ذلك الوقت توثقت عرى المودة بين الخديو عباس والشاب الوطنى مصطفى كامل . (وكان الخديو يريد أن يحاط عرشه بسياج من الوطنية ... فقربه اليه ،

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا — الجزء الثانى القسم الاول ص ٥٠
(٢) نفس المصدر ص ٦٢
(٣) نفس المصدر ص ١٨٩.

وساعده بالنفوذ والمال . وتعاهدا سرا على أن يعملا لخلاص البلاد من الاحتلال. فكانا يجتمعان بمسجد الشيخ التبرى بزمام سراى القبة . وقد عملا معا أعواما طويلة حتى فرقت بينهما الدسائس .(١)

وازداد الأمير إمعاناً فى سياسته الوطنية بعد حادثتى الحدود وإقالة الوزارة الفهمية . « وإذ ذاك اتفق مع مصطفى كامل على تشكيل لجنة سرية من بعض الشبان الممتازين بالوطنية ممن تلقوا التعليم العالى فى مصر والخارج . فكان ذلك وتكونت من مصريين وفرنسيين . وقررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الغاصبين ، والكتابة فى الصحف الفرنسية فى مصر وباريس بأسماء مستعارة . وكذلك بالخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل فى مصر وأوربا والتى كانت تثير إعجاب الساسة وتشجيعهم وهكذا كان مصطفى كامل رسول الوطنية الحقة وكان يعمل بذكائه وحماسته وجرأة تثير إعجاب الجميع (٢)

ثم ما برح رجال الاحتلال الانجليزى فى طغيانهم وما فتىء الوطنيون من المصريين فى يأسهم واستسلامهم حتى حدثت الطامة الكبرى والكارثة العظمى التى صبها القدر العادل على رءوس المحتلين، وانتفع بها الشاب الغيور مصطفى كامل ونعنى بها (حادثة دنشواى) وهى الحادثة التى صورت للعالم أجمع بطش الاحتلال البريطانى ووصوله فى ميدان العسف والجور إلى درجة تأباها الانسانية ، وتنكرها أبسط قواعد المدنية . ثم هى الحادثة التى ادخرها الغيب لهذا الفتى الوطنى لتكون سبباً فى سطوع نجمه فى سماء المجد والعظمة الحقيقية . فما هى إلا جولات قصار جالها قلم هذا الشاب فى صحف أوروبا ومصر وما هى إلا طائفة من الخطب والمقالات نثرها الفتى هنا وهناك ،حتى استحالت قصة دنشواى إلى مأساة عالمية علم بها العالم المتمدن كله ، وأحالها الفتى المصرى إلى فضيحة كبرى لطخ بها جبين الدولة القائمة بالاحتلال ووسمها بميسم الوحشية والهمجية .

أجل، سمع العالم كله بنبأ هذه المأساة التى فعلها الاحتلال فى دنشواى فانحى باللائمة على الانجليز الذين انحدروا من الناحية المعنوية بعد رفعة، وذلوا أمام الرأى العام العالمى بعد عز

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٠
(٢) نفس المصدر ص ١٩٠ - ١٩١

وشعروا بحرج عظيم وتعرضت الوزارة البريطانية يومئذ لطائفة من الاستجوابات البرلمانية أوقعتها فى الحرج وكان من نتيجة ذلك أن سقط كرومر الجبار عن عرشه فى مصر وبادرت حكومته فى لندن إلى استدعائه اليها.

حقاً — لقد كانت حادثة دنشواى نقطة تحـــول فى تاريخ الحركة الوطنية الناشئة، ونقطة تحول فى تاريخ الاحتلال الأجنبى لمصر وقد أفاض المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى بيان النتائج التى نتجت عن هذه الحادثة، وأضاف اليها كل فصل فى ازدياد الشعور القومى كما نسب إليها أموراً كثيرة تمس الوطن من جميع جوانبه. وذكر المؤرخ الكبير من هذه النتائج الهامة لحادثة دنشواى نتائج هى على التعاقب. (١)

الأولى — إشتداد ساعد الحركة الوطنية

الثانية — إهتمام الصحف العالمية بالمسألة الوطنية

الثالثة — تغيير سياسة الاحتلال البريطانى فى مصر

الرابعة — تأسيس الجامعة المصرية

الخامسة — تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف العمومية

السادسة — إستقالة اللورد كرومر فى أبريل عام ١٩٠٧

السابعة — تأسيس الحزب الوطنى.

وباختصار كان نجاح مصطفى كامل فى الانتقام لكرامة مصر من الانجليز فى مأساة دنشواى هو القمة التى بلغها ذلك المجاهد الكبير. بل إن نجاحه فى القضية الوطنية الكبرى كان السبب الحقيقى فى إستحقاقه زعامة المصريين تلك الزعامة التى سلمت له حتى فارق هذه الدنيا.

وسترى فى غضون هذا البحث، كما رأيت فى غضون البحث الذى سبقه عن على يوسف، أن الوطنية المصرية صمدت فى بيداء الجهاد للاحتلال الانكليزى وكان هـــذا الثبات العجيب يظهر من جانب الصحافة الحرة حيناً ومن جانب الشعب المصرى حيناً آخر.

---

١ — نقلا عن جريدة — لتندار اجيسيان — مجلة العالم الاسلامى ص ١٤١

إستدراك

وقع خطأ فى البيت الأول من قصـــيدة حافظ ابراهيم صفحة ٣٧ وصحته كالآتى : —

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت

حواشيـه حتى بات ظلما منظمـا



فلقد كان اللورد كرومر يمضى فى سياسته التى سماها سياسة الاصلاح ورى الأراضى ، وكان الشعب المصرى يمضى فى سخريته وتنكره لهذا الاصلاح الذى يتناول بطون المصريين ولا يتناول نفوسهم وعقولهم . وقد عبر عن ذلك حافظ إبراهيم حيث يقول مخاطبا اللورد كرومر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت
حواشيه حتى بات ظلما مهذباً

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى — وأن أصبح المصرى حراً منعماً
أعد عهد إسماعيل جلداً وسخرة — فانى رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا — فأغليتمو طيناً وأرخصتمو دما
إذا أخصبت أرضى وأجدب أهلها — فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

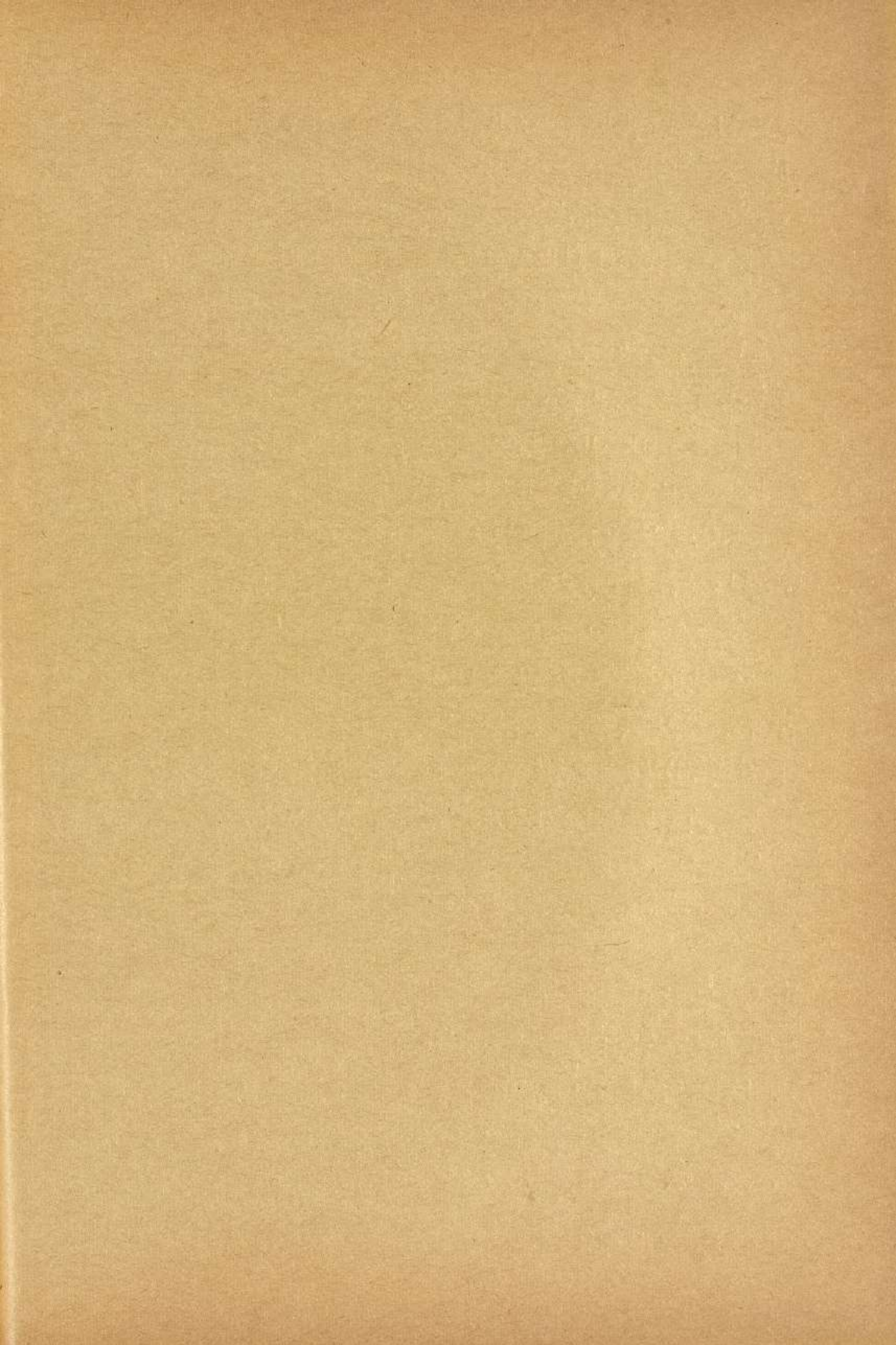
ومثل هذا كثير فى شعر حافظ وغيره من شعراء مصر فى ذلك الحين .

***

تلك إذن بعض الظروف التى أحاطت بالحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل بل تلك إذن بعض الأمور التى ينبغى ملاحظتها عند الكلام عن هذه الحركة الرائعة . والذى لاشك فيه أن صاحب الترجمة كان يدرك كل هذه الظروف إدراكا سليما ، وأنه على هذا الادراك السليم بنى سياسته الداخلية والخارجية كما ظهر أثر ذلك بوضوح تام فى كتبه وخطبه وصحفه . وباختصار كان مصطفى كامل يرمى من وراء ذلك كله إلى غرضين كبيرين .

أولا — الظفر باستقلال مصر وجلاء القوات البريطانية عنها ، والعمل على إنهاض البلاد من كبوتها ، والأخذ بيدها فى ميدان الاصلاح السياسى ، والاصلاح الثقافى ، والاصلاح الاجتماعى ، والاصلاح الاقتصادى فى نهاية الأمر.

ثانيا — السعى إلى تقوية الدولة العثمانية باعتبار أنها زعيمة العالم الاسلامى كله ، وأنها تستطيع أن تحدث التوازن بين القوى الأوروبية المختلفة ، وأنها متى قويت فقد قوى معها العالم الاسلامى .



الكتاب الثانى

فى حياة مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨

وفيه فصلان

« إن من لم يقرأ من المصريين سيرة مصطفى كامل ويستوعب هذه السيرة فى نفسه جيدا يعتبر فى نظرى ناقصا فى تربيته الوطنية نقصا ليس له ما يعوضه ولا ما يبرره » .

المؤلف

الفصل الاول

حيــــاة مصطفى كامل

كنا فى الكتاب الذى كتبناه عن « علي يوسف » أمام رجل وطنى ، وكاتب صحفى رزق هدوءا فى الطبع ، وعمقا فى أغوار النفس ، وصبرا على حمل القلم . رأيناه ملتصقا إلى مكتبه فى إدارة المؤيد لا يكاد يبرحه ، وبين يديه أوراق يكتبها لا تكاد تفارق يده . ولقد بقى الرجل على هذه الحال زهاء خمسة وعشرين عاماً جاهد فيها الاحتلال ورجال الاحتــــلال ، وساير فى أثنائها الحركة الوطنيــة وغيرها من حركات الاصلاح ، حتى بلغ فى ذلك كله ما أراد .

ونحن الآن — فى هذا الكتاب — أمام شاب نادر المثال ، كله حركة ونشاط ، لا بل إنه فى حركته التى لا تعرف الراحة فى وقت من الأوقات لكالقلب من جسم الانسان ، إذ هو العضو الوحيد الذى تنام الأعضاء كلها ولا ينـام ، وتذوق الحواس كلها طعم الراحة ولا يذوقها فى ساعة من ليل أو نهار .

أجل — لقد كان مصطفى كامل من أمته ذلك القلب النابض على الدوام . أما نحن فلا نعرف أن رجلا فى تاريخ مصر الحـــديث حمل نفسه - فى سبيل وطنه - ما حملها ذلك الشاب ، وشق عليها بعض ما شقه ذلك الفتى الذى ظهر نجمه فى سماء العظمة مبكراً ، وأفل مبكراً .

وهكذا عاش هذا الشاب حياة إن لم تكن طويلة كحياة غيره من النــاس ، فهى حياة عريضة إلى الحد الذى لم يبلغه واحد من الناس . ولله سر فى مجد هذا الفتى لا يعلمه أحد سواه .

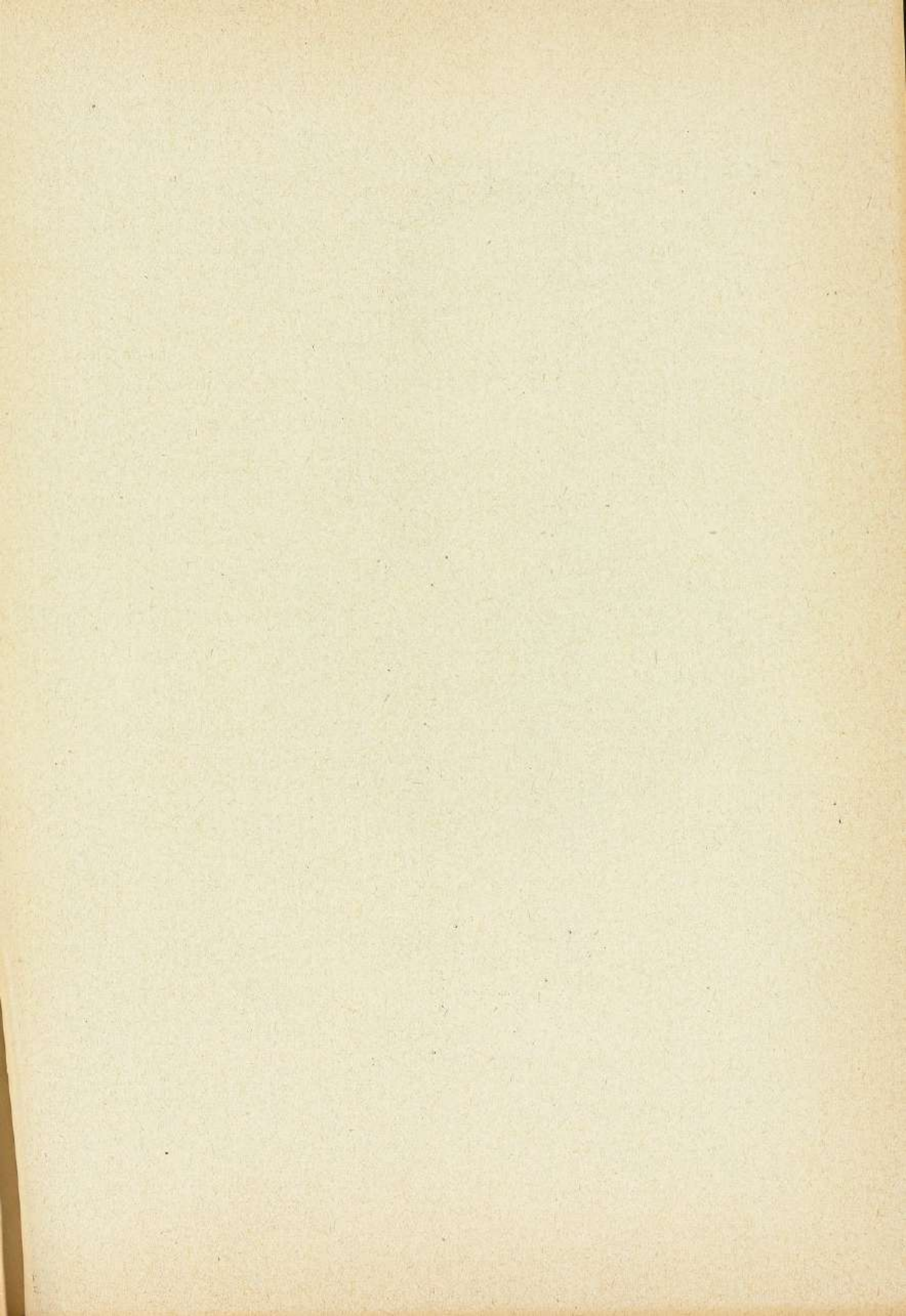
***



مصطفى كامل

صاحب اللواء

(١٨٧٤ — ١٩٠٨)



نشأته :

ولد مصطفى كامل من أبوين كريمين بحى من أحياء القاهرة اسمه (الصليبه) وكان ميلاده فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ (أول رجب سنة ١٢٩١) وكان والده على أفندى محمد ضابطا ومهندسا — أدرك عهد محمد على الكبير وعمل فى بناء الكبارى والشكنات التى احتاج إليها هذا الوالى العظيم . ثم أدرك عهد عباس الأول وسعيد ، وأحيل إلى الاستيداع فى عهد اسماعيل . غير أنه لم يركن يومئذ إلى الراحة والسكون ، بل سعى حتى عين مهندسا ملكيا بوزارة الأشغال ، وبقى بها حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٨٧٧ للميلاد .

وكان مصطفى كامل أحد أبناء سبعة وابنتين ، أنجبهم أبوه من زوجتين . كانت الأخيرة منهما هى السيدة حفيظه هانم كريمة اليوزباشى محمد أفندى فهمى . وهى والدة مصطفى كامل وتوفيت عام ١٩٠٧ فحزن عليها حزنا عظيما ، وكان يذكرها فى نفسه دائما ، ويعترف بمالها من أثر فى تربيته وتنشئته .

ويعنينا أن نشير هنا من إخوته السبعة إلى اثنين وهما حسن واصف (باشا) وعلى فهمى (بك) . أما أولهما فكان بمنزلة أبيه وولى أمره ، وذلك عقب وفاة والده سنة ١٨٨٦ وكان مصطفى إذذاك فى الثانية عشرة من عمره ، وأما الثانى — وهو علي فهمى — فكانت أواصر الود بينه وبين أخيه مصطفى علي أشدها وبقى الشقيقان على ذلك حتى مات مصطفى ، ودعا داعى الوفاء شقيقه عليا فكتب عنه كتاباً فى ستة أجزاء لم تزل مصدراً يعتمد عليه كل مؤرخ تحدثه نفسه بالكتابة عن هذا الرجل إلى اليوم .

وتلقى مصطفى دراسته الأولى فى مدارس ثلاث هى على التعاقب : — مدرسة والدة عباس الأول ، فمدرسة السيدة زينب التابعة للأوقاف ،

بمدرسة القرية .

وفى الأخيرة نال الصبى شهادة الدراسة الابتدائية عام ١٨٨٧ وهو يومئذ فى الثالثة عشرة من عمره . ثم التحق الصبى بالمدرسة الخديوية . وفى هذه المرحلة الثانية من مراحل التعليم أظهر من الجد والنشاط مالفت إليه الأنظار . ومن ذلك أنه عمد وهو بالمدرسة الخديوية — إلى تأسيس جماعة أدبية سماها (جمعية الصليبه) قيل إنه لم يمض على تأسيسها ثلاثة أشهر حتى كانت تضم أكثر من سبعين عضوا . واتصل أمر هذا الصبى بناظر المعارف فى عصره - وهو على باشا مبارك - ورآه وأعجب به وبفصاحته ومازحه بقوله « إنك امرؤ القيس » وبشره بأنه سيكون عظيما.

ولقد كان هذا الوزير العظيم رجلا رضى النفس ، جم التواضع ، يستقبل ضيوفه فى منزله أحسن استقبال ، لايفرق بين كبيرهم وصغيرهم ، بل يفسح صدره للجميع على السواء . حتى أن تلاميذ المدارس كانوا لا يتهيبون الذهاب إليه فى مكتبه بالنظارة أو فى حجر استقباله بالمنزل . ومن هؤلاء التلاميذ مصطفى كامل . وقد حدث يوماً أنه رسب فى مادة من المواد هو وكثير من زملائه التلاميذ بالمدرسة فكبر عليه أن يذوق مرارة الرسوب ، وانطلق بنفسه إلى منزل الوزير ، وشكا إليه سوء نظام الامتحان ، وأنه بسبب ذلك تعرض هو وزملاؤه لهذه النتيجة . وأذن الوزير الكبير لهذا الفتى الصغير ، وأعجب به وبحديثه ، ورضخ لارادته ، فتناول النظام نفسه بالتغيير . وكان من نتيجة ذلك أن نجح مصطفى ونجح زملاؤه معه . وقد أشار الشيخ على يوسف إلى ذلك فى قوله :

« دخلت ذات ليلة على على باشا مبارك فى منزله — أوائل سنة ١٨٩٠ — وهو يومئذ ناظر للمعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وإذا بمصطفى كامل - وكان يومئذ - تلميذا بالمدرسة الثانوية - يجادل الباشا فى أمره ، ويقول له : إننى لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك

يوم كنت تلميذاً مثلي : وما يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطنى غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ؟ قال هذا ثم خرج غاضباً ، وكأنه ليس بتلميذ ، وكأنما الباشا الذى يخاطبه ليس وزيراً للمعارف العمومية . وبعدما خرج ابتسم الباشا وقال : إننى أعجب كثيراً بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامي كثيراً بمثل هذه الشجاعة النفسية . ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله . وكان قد صدر أمره بما طلب منه من قبل ، وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة » .

قال السيد على يوسف : من تلك اللحظة عرفت مصطفى كامل وكأنما عرفت رجلا لا تلميذاً فى المدرسة . (١)

وحصل الفتى على شهادة الدراسة الثانوية عام سنة ١٨٩١ فالتحق بمدرسة الحقوق . واختارها يومئذ « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد » كما ذكر ذلك فى خطاب له إلى شقيقه على فهمى فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩١ .

وبعد سنة واحدة من التحاقه بمدرسة الحقوق شغل الفتى نفسه كذلك بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وجمع بين المدرستين واستطاع الحصول على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ وعمره إذ ذاك عشرون سنة فقط .

أخلاق :

تلك هى مراحل التعليم التى مر بها مصطفى كامل ، وتلك حدود ثقافته التى حصل عليها ، وهى ثقافة قانونية أضيف اليها مع الزمن ما أغرم به الفتى منذ نعومة أظفاره من ميل إلى الكتابة والخطابة والأطلاع فى كل ما يتصل بالتاريخ والأدب والسياسة .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٠

ولعل هذا القدر من الثقافة كان مشتركا بين الفتى ونظرائه ممن تعلموا معه فى المدارس الثانوية ومدرسة الحقوق . ولعل ذلك بعض ما يعنيه الخديو عباس من قوله فى مصطفى كامل « وأياً ما كان الأمر فان أساس تعليمه لم يكن فى الحقيقة عصريا مفرطا فى عصريته ، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثر الناس » (١)

ومن الحق أن يقال عن هذه الثقافة أيضاً أنها صادفت أرضاً خصبة فى ذهن هذا الفتى . ولكن مهما بولغ فى وصف هذه الثقافة أو فى وصف ذكاء مصطفى كامل فالذى لا ريب فيه أن هناك أسبابا أخرى أعانت على نبوغ الفتى وتفوقه على أقرانه ، وخلقت منه شابا مستعداً للزعامة . ومن هذه الأسباب — على سبيل المثال — ما جبل عليه الفتى من الشهامة والاستقامة ، ومن الصدق والصراحة ، ومن الاعتزاز بالنفس والكرامة إلى الحد الذى يعتبر شذوذاً فى مجتمع محروم من الحرية الصحيحة كالمجتمع المصرى الذى خيم عليه الاحتلال البريطانى .

كانت نفس مصطفى كامل من طراز خاص من النفوس يسميه العلماء Extrovert وصاحبها رجل رحب الجوانب يتطلع دائماً إلى الخارج . ولم تكن نفس مصطفى كامل من ذلك الطراز الذى يسميه العلماء **Entrovert** وصاحبها رجل ينطوى على نفسه ولا يسمح لها بأن تمتد خارجها ، ولا يحب لها أن تظهر فى المجتمعات العامة .

ومن ثم شغف الفتى منذ نعومة أظفاره بالاتصال بالناس فهو فى المدرسة الثانوية رئيس جماعة أدبية يخطب فيها ويكتب لها ، ولا يكتفى بنشاطه فى داخل هذه الجماعة الأدبية حتى يرى من واجبه غشيان الجمعيات الأمريكية أو الأوروبية التى هى من طراز جمعيته . ثم هو فى مدرسة الحقوق ذو نشاط واسع لا حد له . فهو حينا صاحب مجلة مدرسية

«١» مذكرات الخديو عباس كما نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

سيأتى الحديث عنها ، وهو حينا مؤلف رواية تاريخية تمثيلية كرواية (فتح الأندلس) ، وهو حيناً ثالثا كاتب صحفى يصل الاهرام والمؤيد بمقالاته ، ويمدها بآرائه . ثم هو آخر الأمر لا يرضيه كل ذلك النشاط الواسع المدى ولا يقنع به ، حتى يرى وهو يختلف إلى النوادى العامة والخاصة . حيث يجتمع بالفضلاء والكبراء ، ويستمع إلى كلامهم وحوارهم ، ولا يتهيب من إقحام نفسه معهم فى هذا الحديث أو الحوار .

ولقد بقيت هذه العادة ملازمة له حتى انتهى من مدرسة الحقوق ، وخرج إلى الحياة العامة ، وسمع بنادى (الأميرة نازلى فاضل) ونادى « لطيف باشا سليم » فطار اليهما وكان له فيهما شأن سنعرفه فيما بعد . ثم ما أن سمع بظهور السيد عبد الله النديم بعد اختفائه طويلا ، حتى خف بنفسه إلى لقاء هذا الرجل ، وقدم نفسه إليه ، وكان ذلك عام ١٨٩٢ ، وإذذاك طفق النديم يقص على هذا الطالب الصغير من أنباء الثورة العرابية مافيه عبرة لأمثاله . وتعلم الشاب من أحاديث النديم مواقع الخطأ الذى تورط فيه زعماء الثورة العرابية ، ووضع يده على مواضع الخلل في الخطة التى سارت عليها ، وعرف أن هذه الثورة العرابية ارتكبت خطأين كبيرين : —

أولها : — تلك الهوة العميقة التى أحدثها زعماء الثورة بينهم وبين ولى الأمر ، وهو يومئذ الخديو توفيق .

وثانيهما : — اعتماد زعماء الثورة على قوة الجيش لا على قوة الشعب ، ونعنى بها قوة الرأى العام فى مصر .

عرف مصطفى كامل عيوب الثورة العرابية على هذا الوجه ، ووعى ذهنه هذه العيوب جيداً ، ثم آلى على نفسه بعد ذلك ألا يقع فيها مرة أخرى .

وهكذا تلقى الشاب مصطفى كامل أجل درس وأنفعه على النديم فى

التربية الوطنية . بل هكذا كان النديم استاذاً مباشراً لمصطفى كامل فى ميدان السياسة المصرية . بل هكذا أتاح اللقاء الأول بينهما أثمن الفرص لهـذا الشاب ، فدرس على النديم كثيراً من أساليب الانجليز وحيلهم وألاعيبهم . وفهم على يديه كثيراً من دسائسهم التى مارسوها فى مصر منـذ نشبت أظفارهم فى رقبتها .

على أن الأقدار التى أعدت هذا الفتى ليكون صحفى أمته فى فترة من أدق فترات حياتها ، بل زعيم هذه الأمة فى مرحلة مبكرة من مراحل حياته سخت عليه بفرصة من أثمن الفرص التى أعانته على الوصـول إلى هذه الزعامة حتى سلمت له فى ميدان الصحافة وميدان السياسة ـ ونعنى بهذه الفرصـة الأخيرة سياحات مصطفى كامل فى ربوع أوروبا ووقوفه على النهضـة السياسية والنهضة العلميـة والنهضة الاجتماعية فى كل بلد من بلاد أوروبا .

وكان يعتمل فى قلب هذا الفتى كلما زار بلداً من هذه البـلاد الناهضة شعوران قويان : هما شعور الحزن والأسى على بلده مصر ، وقد احاطت بها ظروف سياسية مؤلمة ، واحاط بها الجهل والفقر من كل ناحية ، وشعور الغبطة والغيرة من هذه البـلاد الاوروبية التى خطت خطوات واسعة فى سبيل العلم والحكم والصناعة والتجارة والحضارة . لقد كان الفتى كلما وقعت عينـه على مظهر من مظاهر الرقى فى بلد أوروبى انتقل ذهنه بسرعة البرق إلى بلده مصر ودفعته الغـيرة على بلاده إلى كتابة مقـال يدفع به إلى صحيفـة الاهرام أو المؤيد أو يدفـع به إلى صحيفة اللواء فيما بعد . وفى هذا المقال يلمس القارىء كل هـذه المعانى التى نشير إليها ، ويدرك إلى أى مدى كان هـذا الفتى لايحب أن يضيع من حياته دقيقة واحدة لايعود منها نفع ما على مصر .

ومعنى ذلك أنه إلى جانب التربية المدرسية والتربية المنزلية كانت ثم

أسباب أخرى أقوى منهما فى تنشئة هـذا الفتى ، منهـا نفس مصطفى كامل ، ومنها انغماسه فى المجتمع واحتكاكه بعظماء الرجال فى عصره ، ومنها رحلاته العـديدة إلى البلاد الأوروبيـة وغيرها . ولـكن ليس معنى ذلك أننا نغض من شأن التربيـة المنزلية أو التربية المدرسية . كلا ـ فحسب الأولى أنها كانت تربية صحيحة من كل جوانبها . فمن أب مستنير كان يغذى أولاده كل حين بقصص الأبطال وتواريخ العظماء ، إلى أم صالحة ذكرها ولدها بالخير ، واعـترف لها بالفضل فى جميـع مراحل حياته ، إلى اخوة أشـقاء وغير اشقاء كان بعضهم يعطف على بعض ، وكانوا مثلا أعلى للحب . وباختصار لم تـكن هذه التربية المنزلية من ذلك النوع الذى يخلق فى الأطفال عدداً من العقد النفسيـة تورثهم الخوف أو الجبن أو الحياء الضار أو النقمة على المجتمع .

وفى غرة شعبان سنة ١٣١٠ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ ومصطفى كامل فى التاسعة عشرة من عمره أصدر « مجلة المدرسة » وقال إنها مجلة أدبية علميـة تهذيبية تصدر فى غرة كل شهر عربى .

وإنه ليلفت نظر الباحث فى هذه المجلة أمور منها : —

أنها تعتبر أول مجلة مدرسـية ظهرت فى مصر ، وأن صـاحبها تولى تحريرها بنفسـه كما تولى الانفاق عليها بنفسه ، وصرح بأنه أنشأها لخدمة الناشـئين لا للشهرة أو الربح المادى ، وقد جعل شعارها الذى يكتب فى صدر كل عدد من أعدادها « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » .

ولعل هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا منذ الآن عن نفس هـــذا الشاب . وهى نفس طيبة تعرف معنى الحب ، وتقدره حق قدره ، وتتخذه أساساً تبنى عليه الحياة .

والحق أن من يعرف كيف يحب أهـــله وذويه ، ومن يعرف كيف يخلص لمعاشريه فى المحيط الضيق الذى يعيش فيه يستطيع فى المستقبل أن

يكون مخلصاً لمواطنيه جميعاً فى المحيط الأوسع الذى يضطرب فيه الناس جميعاً ، وهو الوطن .

* * *

هكذا كانت نشأة الرجل الذى نكتب عنه ، وهكذا كانت الظروف التى أحاطت به . وهى ظروف سعيدة فى جملتها ، ومن شأنها أن تخلق رجلا مشرق الذهن ، عظيم الأمل ، قوى الايمان ، كثير الاعتزاز بنفسه إلى الدرجة التى أشرنا اليها .

والحق — لقد رزق هذا الفتى نفسا تعاف الذل ، وتكره الضيم ، وتنفر من الدس ، وتفهم الكرامة الانسانية على أتم وجه ، وتحس إحساساً عميقاً بمعنى المساواة بين الناس ، وتجل الدين اجلالا لا حد له . ولنا حين نفيض فى الحديث عن أخلاقه أن نستعين فى ذلك بأقوال من عاشروه وعرفوه . ونستطيع أن نفهم من أقوال هؤلاء أن الفتى كان معروفا بشدة إيمانه بما يعتقد ، وقوة استمساكه بالرأى الذى يراه ، والغيرة الشديدة على الدين إلى الحد الذى بز فيه كثيراً من شيوخ الأزهر فى زمانه .

أما عزيمة هذا الفتى — فكانت من القوة بحيث تتحول الجبال عن مواضعها ولا يتحول ، ويتسرب اليأس إلى نفوس عظماء الرجال فى زمانه ولا يتزعزع .

ولقد سمت نفسه وهو فى السادسة عشرة من عمره إلى أن يؤلف الكتب ، ويؤسس الجمعيات ، ويلقى الخطب ، ويكتب الرسائل وينشىء مجلة ، وهو مع ذلك يطلب الحقوق فى مدرسة نهارية وأخرى ليلية ، ويناقش الخصوم ، ويفند الدعاوى ، ويجمع قلوب أهل طبقته على وحدة الهوى ، ويشتغل لتمهيد السبيل لوضع أساس هذا البناء العظيم . (١)

(١) مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا على فهمى — ج ٢ — ص ٣٨

وإذا كانت هذه عزمة الفتى فى تلك السن فما ظنك بها فيما بعد ذلك؟ أما إيمانه برسالته فقد كان شيئاً عجيباً لا يذكر إلا بايمان الصفوة من الخلق ، وهم الأنبياء والرسل ، ومن خلفهم من صفوة البشر ونعنى بهم العظماء والكبراء وقادة الفكر وسادة الأمم.

وانظر إلى ما كتبه هذا الحوارى العظيم مصطفى كامل إلى أمه الروحية مدام جولييت آدم فى الثانى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ وهى السنة الأولى من سنى جهاده — قال :

« إنى لا أزال صغيراً — ولكن لى آمالا كباراً . فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له . وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى وأجعل له حياتى وقفاً عليه .

وحقاً لقد كانت مدام جولييت آدم خير من يقدر فى الفتى ذلك الروح الوثاب ، والقلب العامر بالايمان ، والنفس التى لا نظير لها إلا فى نفوس أمثاله من عظماء الرجال ، وانظر إلى هذه الأم الروحية كيف تصف هذا الشاب فتقول :

« . . . إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط ، وهدم عدم الاكتراث بشؤون البلاد ، وضد الوطنية الضعيفة — تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر كما تهدد فرنسا نفسها ، والتى هى أشد خطراً على الأمم من المغيرين عليها . (١)

وإلى القارىء وصفاً للخديو عباس تناول فيه طرفا من أخلاق هذا الفتى حيث قال :— (٢)

« كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة ، بما فيها نعمة الوهم المقدس ،

---

(١) — المصدر السابق « للرافعى » ص ٥٥
(٢) — مذكرات الخديو عباس — جريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية ، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذى لم تكن هالات المجد ترتفع فيه إلا على القبور ، وكان لايعرف شيئاً من الوضاعة والمساومات السياسية. كان بسيطا ومستقيما وتحت مظهره اللطيف كانت تختبىء روح متفتحة لكل الأحاسيس ، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان .

وقد زانه الله بالحجى ، وكانت بلاغته واضحة وحارة ، وكان أسلوبه الرشيق العامر بالصور ينتقل من البساطة الانجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم . وقد أوتى موهبة الاقناع ، وسحر الاشعاع الذى يؤتاه الحواريون والأنبياء ، وكان الحب الذى يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله الخ » .

على أنه كان بالفتى ضرب من الكبرياء كان يرى اظهارها أحيانا لحاجة فى نفسه .

حدثنى شقيق له قال : (١)

« زار الفقيد إنجلتره فى سنة ١٩٠٦ . وذلك عقب حادثة دنشواى المشهورة وانتصاره على الانجليز بما كتب من المقالات وألقى من الخطب ، وفى انجلترة وفد عليه سيل من مراسلى الصحف ، ومن رجال السياسة ، وطلب رئيس الوزارة البريطانية سير « هنرى كمبرمان » أن يقابله . فما كان من مصطفى كامل إلا أن حدد له موعداً لها بعد أسبوع من طلبه إياها . وطيرت وكالات الأنباء هذا النبأ ، وعجبت من اعتزاز هذا الشاب المصرى بنفسه ووطنه إلى حد أنه يحدد لرئيس الوزارة البريطانية مثل هذا الموعد .

ومضى شقيق الفقيد يحدثنى كذلك عن صفة أخرى من صفاته وهى الصراحة فى الحق فقال « ذهب مصطفى كامل يوما لزيارة سعد زغلول

---

(١) هو الاستاذ حسن حسنى كامل . وكان هذا الحديث بداره فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢

فى منزله ، وكان عنده عدد من سراة القوم ، منهم عنانى باشا ، ومظلوم باشا ، وعبد الخالق ثروت باشا ، وحسين رشدى باشا ، واسماعيل صبرى باشا ، وفتحى زغلول باشا وغيرهم وحين دخل مصطفى كامل سلم على كل واحد منهم يداً بيد . فلما جاء دور فتحى زغلول باشا لم يشأ مصطفى كامل أن يمد له يده قائلا بهذه اللهجة القاسية :-

« إن هذه اليد أكرم من أن توضع فى يد جلاد دنشـــواى »
إشارة إلى ماهو معروف من أن فتحى باشا زغلول كان أحد أعضاء « المحكمة المخصوصة » التى حكمت على ضحايا الحادثة .

على أن هذا الاستعلاء أو تلك الكبرياء إنما كانت تصدر من الفتى نتيجـة لمرضه ، وللثورة التى فى نفسه ، والمزاج العصبى الذى لم يفارقه إلا نادرا . ومن هنا كان مصطفى كامل كثيراً ما يبدو للناظر اليه شاباً عليلا وفى نفسه ثورة وغضب ، وفى خلقه عصيان وتمرد ، وفى رأسه نار موقدة .

ولقد عبر الخديو عباس عن ذلك حيث قال :

« . . . وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذى يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنهـــا معلقة بأفكارهم »

ثم قال : كان هذا المتضرم هوى ببلاده الذى قدر له أن يموت فى زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماســته بقليل من التجربة قد حصل على معظم ما تمنى من رضاء عن ذلك النجاح العجيب لرسالة الوطنيـة . وما من ريب فى أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه . ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحـــد بحكمة الشيخ على يوسف لكان ذلك قد خدم قضيـة البلاد فوق ما خدماها متفرقين . (١)

قيل إن مصطفى كامل وصل فى بعض رحلاته يوما إلى الآستانة ،

---

١ — مذكرات الخديوى عباس التى نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

ودخل بنفسه على السلطان فأكرم السلطان وفادته، وأهدى اليه هدية ثمينة وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٨٩٦ . ثم عرض عليه السلطان أن يمنحه بعض الأوسمة ولكن الشاب إعتذر بلطف وأدب عن قبول شىء من ذلك خشية أن يتهمه الناس بأنه إنما يجاهد ما يجاهد فى سبيل مثل هذا الغرض. ولكنه لما عاد إلى مصر لامه أصدقاؤه فى ذلك وقالوا له إن الناس فى الشرق يتوددون إلى أصحاب الألقاب، ويرمقونهم دائما بعين المهابة والاجلال . ومن ثم هيأ الفتى نفسه لقبول ذلك متى عرض عليه وبالفعل سنحت له فرص منها ما كان فى سنة ١٨٩٩ حين أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز، فصار مصطفى بك كامل، ومنها ما كان فى سنة ١٩٠٤ حين أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية، وكان الفتى يومئذ فى الثلاثين من عمره فقط .

الفصل الثانى

العقيدة السياسية لمصطفى كامل

خيم على البلاد المصرية ظلام كثيف عقب الثورة العرابية . ومرت بها موجة يأس وخضوع منذ الاحتلال البريطانى . وركن الناس فى مصر إلى حياة فقدوا فيها الأمل فى الخلاص من هذه الدولة القوية التى أذلت نفوسهم ، ونفت زعماءهم ، وحالت بين هؤلاء وبين قيادة مواطنيهم إلى الحرية .

فى مثل هذه اللحظات نرى يد التاريخ وقد وقفت وقتاً ما عن التسجيل أو الكتابة . ذلك أن حياة السكون لا يكتب التاريخ فى وصفها غير سطر واحد . وحياة الظلام لا يسجلها التاريخ إلا بكلمة واحدة . ويظل الحال على ذلك حتى تنتقل الأمة نفسها من الظلام إلى النور ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن النوم إلى اليقظة ، ومن الذل إلى العز ، ومن الخضوع إلى التمرد ، ومن اليأس إلى الأمل ومن الضعف إلى القوة . وهنا يرفع التاريخ يده مرة أخرى ، ويتأهب لكتابة المئات من السطور فى وصف هذه الحركة التى شملت الأمة ، والأمل الذى أصبح يغمرها ، أو الجهاد الذى باتت تبذله لتحقيق هذا الأمل .

ذلك ما أحسته مصر منذ ظهر فيها الشاب مصطفى كامل بعد فترة من سكون هذه الأمة ، وانقضاء مدة طال فيها استسلام هذا الشعب الأعزل . وذلك هو الأساس الأول الذى ينبغى للمؤرخ المنصف أن يبني عليه رأيه فى مصطفى كامل وفى حركته التى قام بها .

مصادر هذه العقيدة السياسية

ولكن كيف هبط الوحي على شاب بعينه من شباب هذه الأمة ؟

وكيف تألفت له هذه العقيدة السياسية الهامة ؟ وما هى الظروف التى أعانت على تأليف هذه العقيدة التى ملأت قلبه؟

عرفنا كيف نشأ الفتى نشأة سليمة من جميع جوانبها فى البيت ، وفى المدرسة وفى المجتمع ، وعرفنا كيف أن نفس هذا الفتى لم تكد تحفظ من الصور التى مرت بها غير صورة واحدة ، هى صورة هذا الذل الذى بات عليه قومه ، وصورة هذا اليأس الذى خيم على صدورهم ، وأفقدهم الرجاء فى الخلاص من عدوهم . ولا بد أن الفتى كان يوازن بين هذه الصورة الكئيبة المحزنة وصورة مصر الناهضة المشرقة على أيام محمد علي وعباس وسعيد واسماعيل - ولا ننسى أن والد الفتى كان كثيراً ما يقص عليه وعلى أخوته أحاديث ذلك المجد الذى شهد بنفسه طرفا منه .

وهكذا كان (البيت) أول مصدر من المصادر التى استمد منها الفتى جزءا من عقيدته السياسية التى اشتهر بها .

ثم كان السيد عبد الله النديم مصدراً ثانيا من تلك المصادر ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى فصل مضى . ثم مصدر ثالث لهذه العقيدة هو الدراسة الخاصة . تحدث على فهمى عن شقيقه مصطفى كامل قال:—

« إنه حين استقبله فى الاسكندرية عند رجوعه من تولوز بعد نيله شهادة الحقوق وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم . وفيها مذكرات بعضها لكبار السياسيين ، وبعضها من مكتبة باريس ، وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية . وبعد أن استقر به المقام فى القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة كان لايفتأ يدرس الكتب والمذكرات التى أحضرها معه . وقد أكب على هذه الدراسات كأنه لا يزال فى دور الدراسة ، ووضع برنامجا للعمل سار عليه . فكان يعمل يوميا ثمانى ساعات فى مكتبه ».

ثم أخـــذت الأيام بيـد مصطفى كامل ففتحت له باب أكبر معهد سياسى فى ذلك العهـد . وهو المنتدى الذى كان يعقد فى « دار لطيف باشا سليم الحجازى » فسمع فى هـذا المنتدى أن مصر لا سبيل إلى جلاء الأنجليز عنها بعـد أن قضى على القوة العسكرية فيهـا إلا بعمل سياسى ، وهو الدعوة لهـا فى الخارج ، والاتصال بالساسة الأوروبيين ، وقراءة ما يكتبون فى قضايا الأمم ، ومعرفة نواياهم نحو بلادنا . ففتح مصطفى كامل عينه بشدة على هذه الحقائق الغريبة التى تـكشفت لعقله ، وكأنما هو واحـد من أبطال الاقاصيص المعروفة باسم الف ليلة وليلة . فشاور مصطفى كامل حلمه الذى بقى معه إلى أن مات ، وهو أن يحي فى مصر الهرمة مصر الفتاة » . (١)

المصريون والاحتلال

ولـكن ـ لا يفهم من ذلك أن الشعب المصرى كله كان يفكر على هذا النحو ، أو أن الصفوة من المصريين كلهم كانوا يؤثرون هذه السياسة ـ كلا ـ فالواقع أن الشعب المصرى كانت تغمره موجة اليأس الذى تحدثنا عنها ، وكان غارقا فى أحزانه على الزعماء الذين غابوا عن بصره وسمعه. ونحن حين ننظر فى حالة مصر منذ قام فيها الشاب مصطفى كامل معلنا جهاده لأول مرة فى حياته عام ١٨٩٥ نجد المصريين وكأنهم انقسموا بازاء الاحتلال الاجنبى إلى هذه الفرق :

فرقة ترى الخير فى الاستسلام المؤقت إلى هـذا المحتل الأجنبى ريثما تحين الفرص التى تفرض عليه ترك البلاد، فيجلو عنها وكفى الله المؤمنين القتال. وفرقة ترى الخير فى مصانعة العدو . فقد يدرك المرء بالحيل السياسـية مالا سبيل إلى إدراكه بالعنف والقوة المادية .

---

١ ـ فتحي رضوان المحامي . مقال بجريدة الاهرام تحت عنوان : كفاح شعبي مرير

وفرقة ترى أن تتحين الفرص ، وتراقب الأحداث السياسية الدولية . فلعل هذه الاحداث أن تتوالى ، ولعل ميزان هذه الدول أن يميل . وهنا ترفع مصر صوتها بطلب الجلاء . وقد تجد من الدول القوية دولة تعينها على مطلبها وتساعدها على ادراكه .

وانعكست هذه الصورة كلها فى ذهن الفتى ، ولا بد أنه أطال التفكير فى كل واحدة منها على حدة . ولكن تفكيره هداه إلى أن اليأس فى ذاته ليس خطة من الخطط التى تؤدى إلى نجاح أمة من الأمم . كما هداه إلى أن المصانعة فى ذاتها لا تجدى شيئاً أمام إصرار العدو الذى فرض نفسه على البلاد .

وإذن فليس أمام الوطن إلا خطة واحدة فقط ، هى مجاهدة العدو فى داخل البلاد ، ومجاهدة هذا العدو فى خارجها . وذلك هو الرأى الذى انتهى إليه الصفوة من المصريين فى نادى لطيف باشا سليم . ولئن كان أحد من هؤلاء لم يفكر بعد فى أن يخرج به إلى حيز العمل ، فان الفتى مصطفى كامل هو وحده الرجل الذى فكر جديا فى تحويل هذا الرأى إلى عقيدة سياسية وخطة وطنية .

ولكن ما هو كنه هذه العقيدة السياسية التى اعتنقها مصطفى كامل ، وهل طرأ تغيير ما على هذه العقيدة ؟ وما هى أسباب ذلك ؟

أما كنه هذه السياسة فواضح كل الوضوح من الحديث الآتى : —
تقدم رجل أمريكي إلى مصطفى كامل يوم كان على أهبة السفر إلى أوروبا سنة ١٨٩٧ واستأذنه فى القاء هذه الأسئلة .

هل لك أن تتكرم ياسيدى فتجمل لى السبب الذى يحملك على أن تنادى بحرية مصر ؟ وإذا لم تستطع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فماذا تكون خطتك وخطة مواطنيك إذذاك ؟ وهل لك من حاجة فى أمريكا لأقوم بها خدمة لمصر المظلومة ؟

فأجاب مصطفى كامل عن هـــذه الأسئلة الثلاثة فقال . (أما عن السؤال الاول) فلأنى مصرى صميم فقد رأيت من واجبى أن أقف قلمى ولسانى على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا الا بوجودها عالية الشأن ، سامية المقام ، وسأبقى إبنها البار الوفى حتى آخر نفس أردده فى هذا العالم (وأما عن سؤالك الثانى) فاننا نبنى نجاحنا فى عملنا على أمرين — الأول — خارجى وهو انتهاز الحـــوادث الدوليـــة والثانى - داخلى - وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين ، والتشـهير بأخطاء الاحتلال الانجليزى لنرقى بالعقول ، ونبغض الغاصبين إلى القلوب . وبذلك تقترب الأمة شيئاً فشيئاً من الوطن حتى تلتف حـوله ، وتصير وإياه جسما واحداً لا قدرة لأية طائفة من النـاس ، أو أية حكومة مهما كانت قوتها على أن تعبث بكيانه ، أو تفصل أجزاءه .

(وأما عن سؤالك الأخير) فانى أشكر لك الخدمة التى عرضتها على بأمريكا . وأملى أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التى حرمت العالم صوتكم فى المسائل الأوروبية (يقصد بذلك مبدأ منرو الذى يقضى بعدم تدخل أمريكا فى المسائل الأوروبية) حتى نسمعكم صوتنا فى دياركم بنفس النغمـة التى أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا . ترزحون تحت النير الانجليزى . كذلك أومل ألا تشـهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجرى فى سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا . وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن تلوثها بعد تلك الأيمان والعهود الـكثيرة على أيدى بعض ساستهم الذين يريدون أن يســطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلا لعشر معشاره » . (١)

على أن شيئاً هاما يلفت نظر المتأمل فى سياسة مصطفى كامل وهو أنه تحدث كثيراً فى صحفه عن الاسلام والمسلمين ، ولم يفتر عن هذا الحديث يوما ما . فهل مزج بين عقيدته السياسية وعقيدته الدينية ، وأصبح الدين

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٧٥

عنصراً هاما من عناصر هذه العقيدة ؟ أما الخديو عباس فيؤكد لنا فى مذكراته أن مصطفى كامل وإن تحمس تحمساً شديداً للدين إلا أنه جرد عقيدته من كل رداء دينى .

والحق أنه لولا موقف الاحتلال من الاسلام لما وجدنا مصطفى كامل يذكر المسلمين فى كلامه إلا حين تدعو الحاجة الماسة إلى ذلك ، ولولا ما كتبته الصحف الأوروبية كثيراً وبدون انقطاع عن المسلمين والاسلام لما شعر مصطفى كامل بالحاجة أيضاً إلى الرد عليها فى كل ذلك .

كان زعماء مصر فى عهد الاحتلال يدركون جيداً أن الأمة المصرية مؤلفة من عنصرين ، هما الأقباط والمسلمون ، وأنه لا حياة لهـــذه الأمة إلا باتفاقهما واتحادهما وحسن توجيههما إلى الغرض المنشود من الحركة الوطنية ، وهو غرض ذو شقين هما : —

إنقاذ البلاد من براثن الاحتلال ، وإنهاضها فى جميع مرافق الحياة ، أعنى من حيث السياسة والاقتصاد والاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم .

معنى ذلك إذن أن مصطفى كامل كغيره من زعماء هذه الأمة لم يخلط بين عقيدته السياسية وعقيدته الدينية . وذلك بالرغم من أنه كان مضطراً إلى الاتيان فى صحفه دائماً بحديث يشتم منه أحياناً بأنه حديث طائفى أو أنه أثر من آثار التعصب الدينى .

وعلى الرغم من ذلك وجدنا من القبط فى مصر من يبعث بكتاب إلى مصطفى كامل لينشره على صفحات اللواء . (١)

وفى هذا الكتاب يلوم الكاتب القبطى صاحب اللواء على إغفاله أمر الأقباط وإنصرافه إلى الاهتمام بأمر المسلمين فى مصر والبلاد البعيدة عنها كالهند وجاوه وغيرهما . واهتم مصطفى كامل بالرد عليه فى صفحات اللواء منكراً هذه الدعوى ثم قال : —

---

(١) راجع العدد السابع من جريدة اللواء بتاريخ ٨ يناير سنة ١٩٠٠

(. . . . إننا — نادينا بأعلى صوت أن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، بل عائلة واحدة . وقلنا إن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر هو الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط ، وإن أول واجب نحو الوطن هو الاتحاد التام بين أبنائه . . الخ ثم قال :—

وأما دفاعنا عن مسلمى البلاد الأخرى فمرده إلى أن جريمتنا الكبرى عند سواس أوروبا كوننا مسلمين ، لا أكثر ولا أقل »

إننا نكرر القول هنا بان مصطفى كامل كان كغيره من قادة الشرق فى ذلك الوقت تهفو نفسه إلى أن تعود للاسلام عزته وقوته ، ويرجع للمسلمين مجدهم ومهابتهم . وكان يرى أنه لا سبيل إلى مقاومة هذا الغرب الطامع فى الشرق الوادع إلا بتحقيق هذا الحلم . بل كان يرى أن الاستعمار الأوروبى للشرق ليس إلا نتيجة لتفرق المسلمين وتخاذلهم ، وإغفالهم أمر العناية بقوتهم الحربية . وما دامت تركيا أقوى الدول الاسلامية من هذه الناحية فالخير كل الخير فى الانضواء تحت لوائها والاذعان لها حتى تقود هذا الشرق إلى حيث المجد وتبلغ به الحد الذى يقوى معه على مقاومة الغرب .

ونشر مصطفى كامل فى هذا المعنى بعنوان « رابطة الدين ورابطة الوطن » جاء فيه : « نجد فى مصر أمة مشتركة جزء منها هو الأقباط ، وجزء عظيم هو المسلمون وعلينا واجبان عظيمان : واجب دينى ، وواجب وطنى ، فالواجب الديني يحتم على الأقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ، ويدافعوا عنها أقوى الدفاع . ولا ملامة عليهم إذا إنعطفوا نحو إخوانهم فى الدين والعقيدة . والواجب الدينى يحتم على المسلمين أن يرجعوا إلى مبادىء الاسلام الصحيحة ، ويعملوا بأوامر الدين الحنيفى الكريم ، ويجتنبوا نواهيه ، ويتحدوا فيما بينهم إتحاداً متيناً أكيداً ، حتى يرتفع شأنهم ، وتسمو بين الأمم مكانتهم . ولا ملامة عليهم إذا انعطفوا بكل جوارحهم نحو إخوانهم المسلمين فى سائر أقطار المعمورة .

لأن الاسلام جعل المسلمين إخوة بالرغم عن اختلاف النحل والبلاد . وإذا أضفنا إلى الرابطة الدينية اتحاد المصالح السياسية ، وإضطهاد أوروبا لنا بصفة واحدة وشكل واحد ولعلة واحدة ، ظهر لنا ضرورة إجماع كلمة المسلمين ، وعرف الناس جميعا لماذا ننادى (بالاتحاد الاسلامي) ثم قال :

« ألا ترى أن الذين يطعنون على الاسلام يتهمونه بأنه دين التأخر والانحطاط ، وأن جميع أبنائه متأخرون منحطون ؟ أليست هذه التهمة وحدها داعية لاستنهاض همم المسلمين فى كل أنحاء الأرض ، ودعوتهم للاتحاد والاتفاق ، وترقية شؤونهم ، وإعلاء قدر الدين الكريم ؟

هذا واجبنا الديني نصرح به أمام الملأ ، ولا نخشى فى ذلك أحدا.

أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطنـــاً لهم لخدمة هذه الديار العزيزة ، والسعى وراء استقلالها وحريتها . ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا . بل إننا جاهرنا بأن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، وأن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر هو نفسه الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط ، وإلى هذا تنتهى الدعوة للاتحاد الجنسى ، والاتفاق الوطنى وليس فى خدمة الاسلام أو الدعوة لاتحاد المسلمين شىء من التعصب الدينى أو من المخالفة للمبادىء الوطنية الحقيقيــة . بل إن التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن . وحسبنا دليلا (حب الوطن — من الايمان) . (١)

* * *

مصطفى كامل والسياسة الخارجية :

ذلك كله من حيث السياسة الداخلية . أما من حيث السياسة الخارجية فقد وضع الشاب لنفسه خطة يسير عليها فى جهاده ، واعتمد فى تنفيذ هذه الخطة على وسائل ثلاث هى الخطابة والكتابة والدعاوة . كما اعتمـــد فى

(١) راجع العدد الثالث عشر من السنة الاولى بتاريخ ١٦ يناير سنة ١٩٠٠

الوصول إلى هدفه الأسمى من هـــذه السياسة على نواح ثلاث : أولاها ناحية الخديو عباس والثانية ناحية السلطان والثالثة ناحية فرنسا .

وكيف لا يعتمـد الفتى أولا على أمير البــلاد وقد توثقت بينهما عرى الصداقة والوداد ، وتوسم كل من الرجلين فى صاحبه غيرة تامة على مصر وتحمساً شديداً للدفاع عن مصالحها ؟

ثم كيف لا يعتمد هذا الفتى على السلطان وقد كان يقدر فى نفسه جيداً أن مركز مصر الشرعى إلى نهاية الحرب العالميـة الـكبرى كانت تحدده معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وهى المعاهدة التى تعترف باســتقلال مصر بضمان من الدول الـكبرى جميعها ، وبقاء العرش المصرى فى أسرة محمد على والاعتراف بسيادة الدولة العثمانية ؟

ثم كيف لا يعتمد الفتى على فرنسا ، وهى البلد الذى تعلم فيه القانون ، وظفر فيه بكثير من الاصدقاء ، وتعرف فيه على كثير من رجالات الأدب والفكر والصحافة ، واتخذ فيه لنفسه أماً روحية هى مدام جوليت آدم ، ورأى فيه كيف تـكون الحرية والاخاء والمساواة ، وشــهد فيه نظام الحكم الجمهورى الدستورى ، وقال عنه فى إحدى مقالاته :

« لا عجب إذا كانت آمالنا موجهة لفرنسا ، وهى هى التى تبرعت بدماء جنودها الأعزاء للامريكيين فى « بوك تاون » ولليونانيين فى « ناڤارين » وللبلجيكيين فى « انفرس » وللايطاليين فى « ماجنتا — سولفيرينـو » ورحبت بالايرلنديين سنة ١٨٦٨ وأحسنت للبولونيين بعد عام سنة ١٨٣٠ . وبالجملة برهنت المرة بعد الأخرى على أنها ظهيرة الحرية ونصـيرة الاستقلال » . (١)

ذهب مصطفى كامل فى صيف سنة ١٨٩٥ إلى فرنسا . فدعاه صاحب جريدة فرنسية تدعى « لاباترى » إلى وليمة اجتمع فيها الشاب بكثيرين

---

(١) الاهرام فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ نقلا عن كتاب على فهمى ج ٣ ص ٣٩

من رجالات الأدب والصحافة والسياسة ، واستمع فيها يومئذ إلى أحدهم وهو يخطب الحاضرين ويقول :

«إن مصر بلد سيء الطالع . رزق فى هذا العصر المنير ، عصر الحرية والمدنية باحتلال أجنبى يديره رجال لا يعرفون غير الاستبداد وحب العلو والظهور والانتقام . وقوم من مصر سواء من أبنائها أو من الداخلين عليها لم يأت التاريخ بذكر مثلهم — فهم فصلوا السودان عن مصر ، ومكنوا العدو من كل شيء ، وقدموا المصالح الخاصة على المصالح العامة . . الخ » إلى أن قال : —

«.. فكيف تريدون أيها المصريون حرية بلادكم ، وخروج الانكليز من دياركم وأنتم لم تعرفوا واجباتكم الوطنية ، ولم تهدوا أوروبا إلى الحقائق . بل تركتم هذا الواجب الخطير للجرائد الانكليزية تقص علينا من أموركم ما يناقض الحقيقة ، ويخالف الواقع . . فهى تقول لنا يوماً إنكم راضون بالاحتلال »

« . . . وتحدثنا يوماً آخر عن تعصبكم فى دينكم ، وكرهكم لغير أبناء جنسكم ، وتذكر لنا تارة أنكم لستم أكفاء ولا يليق باوروبا أن تضع ثقتها فيكم ، وطوراً آخر أن الانجليز لو تركوا دياركم لصرتم كالوحوش بل أضل سبيلا . »

« . . . فهل قام فيكم وفد جاء أوروبا مناديا بالحقائق ، طالبا العدل والانصاف ؟ أمامكم فى بعض العناصر الشرقية كالصرب والبلغار والأرمن عبرة كبرى . . ؟ »

هذا خطؤكم فى سياستكم وليس بالعسير عليكم إصلاحه . أما أنت أيها الشاب المصرى (يريد مصطفى كامل) فقد أحسنت عملا إذ جئتنا اليوم تنادى باستقلال بلادك . فأمل خيراً كثيراً وأدع أبناء جلدتك إلى الانضمام إليك ليكون صوتكم عالياً يسمع فى كل الأرجاء » . (١)

---

(١) الاهرام فى اول يونيو سنة ١٨٩٥ نقلا عن كتاب على فهمى ج ٣ ص ٦٣ و ٦٤

وإذن فانتهاز الحوادث الأوروبية ، والدعاية العريضة للقضية المصرية ، والتودد إلى الأمة الفرنسية ، والاعتراف بسيادة الدولة العلية هى الأسس الأربعة التى بنى عليها مصطفى كامل سياسته الخارجية ، وهى التى آمل من ورائها أن تجنى مصر أحسن النتائج وأطيبها ، فيجلو الانجليز عن وادى النيل ، ويترك للمصريين أن يعيشوا أحرارا فى بلادهم ، وأن يعملوا على تقدمها فى ميادين الثقافة والسياسة والتجارة والزراعة والصناعة . وما أيسر أن يتخلص المصريون بعد ذلك من السيادة التركية نفسها آخر الأمر .

بقى الشاب مصطفى كامل على حبه لفرنسا وأمله فيها حتى أثبتت الحوادث فيما بعد أنه كان مخدوعا فى هذا الحب ، مكذوبا عليه فى هذا الأمل . وكان من هذه الحوادث التى نشير اليها حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ثم إتفاقيتا الحكم الثنائى فى السودان عام ١٨٩٩ . ثم الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤.

ومنذ يومئذ لم يجد الشاب بدا من أن يترك فرنسا إلى الأبد إلى غير رجعة ، معتمداً فى جهاده المرير على وسائله الخاصة . ومن أهمها وأخطرها إيقاظ الوعى القومى فى مصر وبعث الحركة الوطنية فيها وتكوين ما يسمى فى معجم السياسة الحديث بقوة الرأى العام فى الأمة .

ثم فى عام ١٩٠٤ حدث كذلك ما لم يكن فى الحسبان — حدث أن اليابان وهى دولة من الدول الشرقية هزمت روسيا القيصرية هزيمة منكرة فى الباسفيك . ونظر الناس فى الشرقين الأقصى والأدنى إلى هذه الحادثة على أنها انتصار للشرق المتواضع على الغرب المتكبر .

أما فى مصر بنوع خاص فقد انتهز القادة وذوو الرأى فرصة هذا الانتصار الكبير الذى أحرزه اليابانيون على الروس فكتبوا فصولا طويلة فى هذا المعنى ، وهى فصول تفيض كلها حماسة للدولة المنتصرة وشماتة بالدولة المنهزمة . وعاد ذلك المجهود الذى بذله الكتاب فى مصر على أهلها

بتقوية الروح المعنوية ، وإحياء الكرامة الشرقية .

وفى يونيه من نفس هذا العام ظهر كتاب (الشمس المشرقة) لمصطفى كامل وصف فيه الكاتب عظمة اليابان ووحدتها وصدق وطنيتها وانتصارها نتيجة لجميع هذه العوامل . وكان قصده من ذلك إذكاء الروح المعنوية التى أشرنا اليها وإعادة الشعور بالحياة إلى شعوب الشرق كافة وإلى مصر منها بنوع خاص .

* * *

مصطفى كامل والخديو عباس

وقد تعرضت سياسته الداخلية هي الأخرى لشيء من التطور الذى أصاب ناحية هامة من نواحى هذه السياسة ونعنى بها ناحية العلاقة بين الزعيم الشاب والخديو عباس الثانى. ونحن نعرف أن الصلة بينهما كانت على أتمها وأوكدها ، وأن الزعيم الشاب انتفع بالدروس التى تلقاها عن النديم فوضع نصب عينه أمر تقوية الروابط بين الشعب وولى الأمر . وبقى الحال على ذلك حتى جاءت سنة ١٩٠٤ وهي السنة التى عقدفيها الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا . إذذاك إنهار الروح المعنوى فى مصر واستيأس الناس جميعاً من الخلاص من براثن الغرب . وإذذاك أيضا رأينا (عباسا) وقد أنهكه الصراع السياسى ، وبدا للناس كما لو كان وحشا قلمت أظفاره ، أو نسراً هيض جناحه ، أو سبعاً خلعت أنيابه .

وعلى حين غرة غير الخديو عباس من خطته ، وانحرف عن مسلكه وبدت منه تصرفات دلت على هذا التغيير والانحراف . من ذلك أنه اشترك فى الاحتفال بعيد الملكة فيكتوريا ، وشوهد فى عرض الجيش الانجليزى فى ميدان عابدين إحتفالا بهذه الذكرى . وقد إستاء الوطنيون — وفيهم مصطفى كامل — وإهتاجوا لهذا التصرف ، ونظروا إليه على أنه أساءة لشعورهم الوطني ، وجرح لكرامتهم القومية . من هذا العمل وأمثاله

من الأعمال التى صدرت عن الخديو عباس الثانى رأى مصطفى كامل رأياً جديداً فى الحركة الوطنية ، وهو استقلال هذه الحركة عن الخديو نفسه وعدم إعتمادها عليه بأية صورة ، بل وجد فى هذه الخطة الأخيرة قوة للحركة ، وتعظيما لشأنها ، وإجلالا لها فى نظر الدول الأوروبية التى فهمت أن الحركة الوطنية ليست من وحى الشعب بل من وحى ولى الأمر .

وإذ ذاك بادر الزعيم الشاب مصطفى كامل بكتابة خطاب إلى الخديو عباس جاء فيه :

مولاى

تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ ، ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيداً عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسؤولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، ومنعاً لتكدير خاطركم ، ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

وقد رأيت يا مولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب ، وأنه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى إلى الوطن لأن الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الاخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية ، وحجة لتدخل جديد غير محمود .

وإنى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته (مدام جوليت آدم) من لدنكم ، وتصريحهم بأن انجلتره لا تسمح لجنابكم العالى باكرام من يعاديها وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ، أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقيا فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى

بسموكم على حالها، وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة. (١)

مصطفى كامل والحزب الوطني:

ومضى الشاب يجاهد فى تحقيق هذه السياسة بشطريها فى الداخل والخارج، مستهينا فى سبيل ذلك بكل ما لقيه من المتاعب والمصاعب. وانتهى به المطاف بعد حادثة دنشواى المشهورة إلى تأليف الحزب الوطنى. وهو الحزب الذى تبلورت فيه هذه السياسة واتخذت شكلها النهائى، ثم هو الحزب الذى توج به الفتى جهاده السياسى.

ولا بأس هنا من تتبع فكرة الحزب الوطنى منذ نشأتها إلى أن أخرجها مصطفى كامل إلى حيز الوجود فنقول:

« إن فكرة الحزب قديمة فى مصر. بل ربما كانت سابقة لحياة مصطفى كامل نفسه بعشرات السنين.

فلقد سمع الناس كلمة (الحزب الوطني) لأول مرة فى مصر، وذلك فى النصف الثانى من القرن الماضى. وربما كان ذلك بالضبط قبل الثورة العرابية بقليل. أعنى سنة ١٨٧٨ أى فى وزارة رياض باشا. ففى تلك السنة تم تأليف هيئة شعبية باسم الجمعية الوطنية أو (الحزب الوطنى) وكان من أعضاء هذه الهيئة يومئذ شريف باشا، وشاهين باشا، وعمر لطفى باشا، وراغب باشا، وسلطان باشا. وكانت هذه الهيئة فى حقيقة الأمر صدى لظهور المعارضة فى مجلس النواب المصرى. (٢)

كتب أديب اسحق فى جريدة مصر القاهرة التى أنشأها فى باريس سنة ١٨٧٩ مقالا بعنوان (الحزب الوطنى فى مصر) قال:

« نعم إن الأمة المصرية فريقان، يعرف أحدهما بالوطنى، والآخر بما لا نجد

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: مصطفى كامل ص ٢٨٤

(٢) راجع ادب المقالة الصحفية فى مصر للمؤلف جزء ١ ص ١٦-١٧

لتعريفه حداً . فانه ليس بالغريب فيوصف بالأجنبي ، ولا بالفاتح الدخيل فيعرف بذلك . وإنما هو مصرى وليس بمصرى ، ووطنى وليس بوطنى . بل القول فيه ما جاء (بمصر الفتاة) على حين صدورها مفوضاً تحرير جانبها العربي إلى هذا العاجز (يريد نفسه) وهو تعريف الحزب الوطنى بالاستقلاليين ، والآخر بالتدخليين . فالتدخليون هم الأفراد المتهالكون على تدخل الأجنبي فى أمور بلادهم ، يتوسلون بذلك للرياسة والولاية ، ويسترضون الدخيل بما يغضب الحق والوطن ، ويبيعون ديارهم بما يطمعون فيه من باطل المقام وزائل الحكام . وهم الآن أصحاب الأمر ، لهم الملك وللاجنبى الحكم ، ولهم القشور وللدخيل اللباب . . . والاستقلاليون هم الفئة المجتمعة ، والجمع الكثير . يرومون حفظ الحقوق الوطنية ، وكف يد الأجنبي عن استقلالهم . . . وبعبارة إجمالية يريدون أن تكون مصر للمصريين . وهم الآن حلفاء الصبر ، يبعد نبهاؤهم ، ويعنت وجهاؤهم ، ويقيمهم اللؤماء هدفاً لسهام الانتقام . وقد عنى التدخليون بتشويه محاسن الفرقة الوطنية (يريد الحزب الوطنى) بما ينشرون فى صحفهم ، وما يستكتبون فى صحف الأجنبى من الكلام المفترى ، منقلبين فى ذلك تقلب الأفعى ، متلونين تلون الحرباء . فتارة يسمونهم بحزب الترك القدماء ، وطوراً بحزب التعصب الدينى ، وآونة يرمونهم بالنفرة عن كل نجاح وصلاح . ومرة يتهمونه بعداوة الأجنبى عن دينهم على أى مشرب كان . وقد آن أن نضع لهذه الأراجيف حداً ، وأن نرد كيد اللؤماء فى نحورهم . فالحزب الوطنى غير متعصب إلا فى وطنيته ، والحزب الوطنى غير معاد إلا للخائنين . »

قد يفهم من هذا الحديث أن كلمة « الحزب الوطنى » إنما كانت تطلق على الأحرار الذين كانوا يهدفون إلى إستقلال مصر ، ويحاولون الظفر بحريتها . وقد كان هؤلاء الأحرار يجتمعون حيناً بدار سلطان باشا ، وحيناً آخر بدار لطيف باشا سليم ، وحيناً ثالثاً بدار الأميرة نازلى فاضل ، وحيناً

رابعاً بدار السيـــد توفيق البكرى نقيب الاشراف ، وحيناً خامساً بدار راغب باشا وهكذا .

والذى لا ريب فيه أن مصطفى كامل كان يختلف فى حياته كما قلنا إلى بعض هذه الدور ، وأنه التقط فيما التقط منها فكرة الحزب الوطنى. وبقيت هذه الفكرة تسكن عقله حتى جاءت سنة ١٩٠٠ ففكر فى إخراج فكرته إلى حيز الوجود. وكتب فى ذلك مقالا بجريدة اللواء فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ عنوانه (حزب وطنى حر فى مصر) وكان يومئذ فى بودابست عاصمة المجر — جاء فيه :

« إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه إلى أن قال : —

« هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادىء ، المتحد الأعضاء ، الناهض بالامة إلى مرامى النجاح والعلاج. إنى أعرف أن اليائسين سيقولون إن تأسيس حزب محال ولكنى اذا كنت لا أيأس من خلاص بلادى فمحال على أن أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل »

غير أن فكرة الحزب الوطنى بقيت حلماً من الأحلام لم يتحقق لمصطفى كامل إلا فى عام سنة ١٩٠٧ . أعنى بعد حادثة دنشواى واستعداد الأمة إستعداداً كاملا لتقبل هذه الفكرة التى توج بها الزعيم الشاب جهاده فى سبيل وطنه .

وفى الثانى والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٧ ألقى الزعيم الشاب أطول خطبة سياسية له ، وكان ذلك فى مسرح زيزينيا بالأسكندرية . واجتمع لسماعه عدد من الأهالى لا يقل عن سبعة آلاف وكانت هذه الخطبة بمنزلة إعلان لانشاء الحزب الوطنى الذى عرف يومئذ (بحزب الجلاء) . وقد اجتمع أعضاؤه لأول مرة فى السابع والعشرين من شهر

ديسمبر عام ١٩٠٧ . وخطب مصطفى كامل فى هـذا الاجتماع خطبة أخرى أعلن فيها مبادىء الحزب الوطنى وتتلخص فيما يلى : —

أولا — الاستقلال التام لمصر مع سودانها وملحقاتها غير مشوب بأى احتلال أو حماية أو شبه سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال.

ثانياً—إيجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تـكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوروبا .

ثالثا — إحترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى إرتبطت بها الحـكومة المصرية لسداد الديون .

رابعا — إنتقاد الأعمال الضارة بـكل صراحة والاعـــتراف بالاعمال النافعة والتشجيع عليها وارشاد الحـكومة إلى خـــير الأمـة ورغائبها والاصلاحات اللازمة لها .

خامسا — العمل لنشر التعليم فى أنحاء الديار على أساس وطنى صحيح بحيث ينال الفقراء النصيب الأوفر منـه ، ومحاربة الخزعبلات والترهات ، ونشر المبادىء الدينية السلمية الداعية للرقى ، وحث الأغنياء والقادرين على بذل كل المساعدات لنشر التعليم بتأسيس الـكليات فى البـلاد وإرسال الارساليات لاوروبا وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال.

سادسا — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل فروع الحياة ،والعمل والجد وراء نيل الامة استقلالها العلمى والاقتصادى .

سابعا — إرشاد الاهالى بكافة الوسائل الممكنة إلى حقائق الاحوال وبث الشعور الوطنى فيهم ودعوتهم للاتحاد والائتلاف وتمـكين المحبـــة بين عنصرى الأمة المسلمين والاقباط وتنبيهم إلى واجباتهم نحو بلادهم .

ثامنا — مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهاد فى تحسين الأحوال الصحية حـتى يزداد عدد السكان فتزداد الامـة قوة على قوتهـا .

تاسعا — تقوية روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب وازالة سوء التفاهم بينهم إذا وجد .

عاشراً — إنماء علائق المحبة والثقة بين مصر ودول أوروبا ، ونفى كل تهمة عن مصر ، والعمل لايجاد أنصار لها فى كل أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية والتغلب على المساعى التى تعمل ضدها ويراد بها إخفاء الحقيقة . (١)

حزب الاصلاح وحزب الامة :

وإلى جانب الحزب الوطنى نشأ حزبان آخران هما : ـ

حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية : وهو حزب الأعيان وكبار الشخصيات التى كانت تأتمر بأمر الشيخ على يوسف وكان ينظر إلى هذا الحزب على أنه حزب الخديو .

وحزب الأمة : وكانت نشأته تتصل بوجود الانجليز . وإن كان أنصار هذا الحزب قد ورثوا عن الحركة الوطنية التى سبقت الاحتلال البريطانى جفاءها للجالس على العرش ونزعتها الأصلاحية التى افتتن بها عدد لا بأس به من الملاك الزراعيين من ناحية ، وبعض المفكرين المجددين من ناحية ثانية . كما كان أعضاء هذا الحزب يهدفون إلى إصلاح المشاكل الاجتماعية فى البلاد . وهو إصلاح كان يؤمن به المحتلون ، ويرون أنه ينبغى أن يكون جزءا من سياستهم فى مصر . وتوالت الأيام ، وتغيرت معها الظروف والأحوال ، فاصبح أعضاء حزب الأمة يميلون إلى انتقاد السلطة المحتلة . واستحال حزب الأمة مع الزمن أيضاً إلى حزب الوفد . وكان ذلك عقب الحرب العظمى وزعيم هذا الحزب الجديد هو سعد زغلول . وينفرد هذا الزعيم دون عامة كبار الساسة فى مصر فى القرن العشرين بنشأته المصرية ،

(١) خطاب بطل الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا ى ٧٥٦٧ دار الكتب.

ومروره بجميع أطوار الحياة المصرية بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين . . . . ووفد من بيئة الدستور العرابى إلى بيئة المتصلين بالانجليز ، فاختلف معنى الوطنية عنده عما كان عند مصطفى كامل . فهو لم يكن لديه الحس المرهف ، والجرح الدامى ، والتقزز المتصل الذى كونته لدى مصطفى كامل بنيته العليلة ، وقرب عهده بالعدوان الانجليزى ، واتصاله المباشر بالغرب . . . الخ

كانت الوطنية عند سعد مجموعة صفات اخلاقية - إن صح هذا التعبير - صقلتها الجبلة الريفية ، والتربية الاسلامية ، والثقة بالنفس ، وهى ثقة عززتها بعد ذلك الانتصارات الشعبية الساحقة ، فهو بلا شك أقوى من استطاع هز ضمير المصريين والشرقيين على وجه العموم فى الصدر الأول من القرن العشرين . (١)

مصطفى كامل الداعية

مهما يكن من شيء فان أهميـــة مصطفى كامل ترجع فى تاريخ مصر الحديث إلى أمرين :

أولها — أنه أول داعية حقيقى لما يسمى « بالقضية المصرية » . فقد روج لها ترويجاً واسع المدى حتى آمن الكثيرون من المصريين وغير المصريين بها ، ولولا جهود هذا الفتى لما أوشك أن يعلم بقضيتنا أحد ، أو يؤمن بعدالتها أحد .

ومن الانصاف هنا أن نذكر جهود السيد على يوسف فى مؤيده . ولكن هذا الصحفى الخطير كان له طريق فى الترويج لهذه القضية المصرية غير الطريق الذى سلكه مصطفى كامل . كان أولهما أدنى إلى الرزانة والهدوء . وكان الثانى أقرب إلى الثورة والتهييج . ولعل القضية الوطنية فى حقيقة الأمر كانت بحاجة إلى جهود من هذا النوع .

ثانيهما — أن مصطفى كامل يعتبر بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر .

---

(١) فى أصول المسألة المصرية : صبحى حيده ص١٩٠—١٩٧

فقد رأيت أن هـذه الحركة كانت أول أمرها أقوالا تذاع هنا وهناك، وأفكاراً تنبت في هذا المجتمع أو ذاك. وبقيت الحركة الوطنية فى مصر على هذا الوجه، لا نظام لها، ولا قائد يقودها، وليس لهـا من يخرجها من حيز القول إلى حيز العمل، حتى جاء مصطفى كامل، فأنس من نفسه قدرة على قيادتها، والعناية بها. وما زال بالظروف الـتى أحاطت بها حتى وقعت الحادثة التى أظهرته ورفعته وأهلته لقيادة الشعب المصرى كله فى ذلك الوقت، ونعنى بها حادثة دنشواى.

بدأ مصطفى كامل كفاحه السياسى داعية للقضيـة المصرية على النحو الذى سنشير اليه بعد قليل. وكان حريصاً فى أثناء ذلك على مناقشـة الساسة الاوروبيين ممن لهم صلة بهذه القضية.

« وهذا كله منح مصطفى كامل حاسة سياسية يفهم بها أن أهم سلاح يشهره فى وجه أعداء بلاده هو الدعاية. وقد فهم مع ذلك أيضاً أن عالمية القضية المصرية، ودولية أساسها تقتضيه أن يضع لها قالباً دولياً. ولذلك سبق مصطفى كامل العقلية الدوليـة التى انتهت إلى تقرير أن المعاهدات الثنائية تؤدى إلى انقسام الأمم إلى معسكرات. لأن كل دولتين ترتبطان بمعاهدة إنما تثيران بهذه المعاهدة مخاوف دولة ثالثة، فتضطر إلى ارتباطها بدولة رابعة، وهكذا دواليك. كما سبق مصطفى كامل الأمم المتحدة إلى القول بأن كل معاهدة بين قوتين غير متكافئتين هى عقـد باطل، لأنه مشوب باكراه ضمنى أو صريح. لذلك كانت الرسالة السياسية الأولى التى بدأ بها مصطفى كامل آثاره القلميـة بحثا فى مخاطر الاحتـلال البريطانى، لا على مصر وحـدها، بل على فرنسا وبقية العالم الأوروبى. وقد فتحت هـذه الرسالة قلب مدام جوليت آدم. ففهمت فى التو أن مصطفى كامل عنصر جديد من عناصر الحياة الدولية، وأن فى التفريط فيـه تفريطا فى أمر يهم بلادها وينفعها. وعلى هدى هذا الدسـتور الذى رسمه مصطفى

كامل لنفسه أصبح يوزع وقته بين عواصم أوروبا الخ.(١)

وهكذا اشتغل مصطفى كامل بمناقشة كبار الساسة الاوروبيين ، حتى وصلت القضية المصرية إلى كل سمع ، وفهمها كل عقل ، وآمن بها أكثر الناس فى الشرق وفى الغرب .

أنظر إلى ما جاء فى كتاب لمصطفى كامل نشره بجريدة المؤيد فى صيف عام سنة ١٨٩٥ حيث قال : —

« إن عقلاء الانجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم . ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ، ويسألوها الجلاء عن وادى النيل . فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق فى أوروبا بأكثر اللغات انتشاراً — — خصوصاً اللغتين الانجليزية والفرنسية — حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذى فى خدمته خدمة الحق ، وفى نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية .

ولقد آلى الشاب على نفسه القيام بهذا العمل من أجل مصر ، فبدأ كفاحه السياسى برحلة إلى فرنسا في مايو سنة ١٨٩٥ ، وهو يومئذ فى الحادية والعشرين من عمره فقط ! ولكن صغر سنه لم يقف حجر عثرة دون قيامه بالمهمة الكبيرة التى ندب نفسه لها .

لفت الشاب إليه أنظار العالمين الشرقى والغربى فنشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية حديثاً سياسياً عن قضية مصر ، وعلقت صحيفة (الاكلير) الفرنسية على هذا الحديث بقولها : — « لا بد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم في المسألة المصرية . لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق . فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذى كلما مرت عليه السنون

(١) فتحى رضوان المحامى . مقال بالاهرام بعنوان : مصطفي كامل كفاح شعبي رفيع ومرير بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٥٠

تجسمت فيه ضروب الاعتداء على حقوق الناس »

ثم لم يكتف الشاب بذلك ، بل وضع فى باريس أولى رسائله السياسية التى كان لها صدى بعيد فى أذهان كبار الساسة فى الدول الاوروبيـة ، وهي الرسالة التى عنوانها (فى أخطار الاحتـلال البريطانى) وفيها أوضح الكاتب للعـالم الأوروبى كيف أن الاحتلال البريطانى خطر لا على مصر وحدها ، بل على الدول الأوروبية نفسـها . وبهذه الطريقـــة استمال إليه عقول القراء فى أوروبا . وشرح لهم بعد ذلك ما سماه بالمســألة المصرية ، وسرد لهم تاريخها ، وأوضح لهم وقائعها ، وكشف لهم القناع عن خبث السياسة الانجليزية ونواياها فى الشرق العربى ، وقدم الرســالة إلى مدام جولييت آدم فقرأتها ، وأظهرت إعجابها بما جاء فيها ، وعلقت عليها بكلمة ثناء فى جريدة (البتى مرسيليه) الفرنسية وذلك فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٩٥

وتحدثت هذه السيدة عن مصطفى كامل بعد رؤيتها إياه فقالت :

« . . ومن عهد تلك المقابلة أخذت أؤدى له وظيفة الأم ، فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين يعنيهم شأن مصر ، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائى المتقدمين عليه مثل : بيير لوتى ، والكولونيل مارشان ، وأرنست جوديه . وصنعت له كذلك علاقات نفيسة بالصحافة الفرنسية ، تلك العلاقات التى عرف كيف يستخدمها بأحسن سياســة فى دعواه الشريفة . وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة فى جميع البلدان الأخرى .. حتى فى انجلتره نفسها ! !

وفكر الفتى وهو فى باريس فى جهد يبذله للقضية المصرية من نوع جديد . فكتب خطاباً إلى (غلادستون) شيخ الأحرار الانجليز يذكره فيه بالوعود التى قطعتها إنجلتره على نفسها بالجلاء العاجل عن مصر .

ورد عليه غلادسون بقوله :

سيدى العزيز :

إنى أستحسن مافهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم

مصرياً ، ولكنى مجرد بالمرة من كل سلطة .

أما أرائى فانها لم تتغير قط . وهي أنه يجب علينا دائماً أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف ، ولفائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها .

وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنتين . ولما كنت فى منصبى أخيراً ، رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توسلا إلى تسوية هذه المسألة المهمة . . . . وقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبق عندى شيء أضيفه اليها . وقد كنت مستعداً لعمل كل ماهو حسن فى سبيل إعطاء آرائى تأثيرها . إلا أننى تركت المنصب كلية . ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين وإنى أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق (غلادستون ـ إمضاء)

رويدك أيها الفتى المصرى الغيور . إن الانجليز قوم لا تتغير سياستهم على مدى الأزمان والدهور ! سأل عضو فى مجلس العموم المستر تشرشل عن وعود الحرية التى بذلها للأمم الصغيرة فى أثناء الحرب ماذا ينوى أن يفعل بها ، وقد تم للحلفاء النصر على أعدائهم ، فأجابه السياسى العجوز فى غير حياء ولا خجل : إن المثل العليا شيء ولكن تحقيقها شيء آخر ، ونحن نستطيع أن نبذل الوعود كما نشاء ولكننا لا نستطيع فيما بعد أن نفى بها . »

وأخيراً وبعد أن رحل مصطفى كامل فى هذه المدة إلى النمسا وأقام بفينا ، والتقى بكبار الصحفيين والسياسيين عاد الفتى إلى مصر فى يناير سنة ١٨٩٦ ولقيه جمع غفير من مواطنيه بالاسكندرية ، فخطب فيهم أول خطبة له فى السياسة وذلك فى الثالث من شهر مارس سنة ١٨٩٦ .

فقدم له أهل الثغر هدية ثمينة ، هى وسام من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السيف المصرى ومسلة الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

« برهان الاخلاص من أهالى الاسكندرية للوطنى الغيور مصطفى كامل » .

* * *

على هذا النحو سار مصطفى كامل في جهاده فلا يكاد يستقر به المقام فى مصر حتى يعود سريعاً إلى أوروبا حيث يقوم بالترويج لقضية الوطن بكل الوسائل .

على أن الفتى لايعود إلى وطنه ليستريح من عناء العمل المتواصل الذى قام به فى ربوع أوروبا ، ولكن ليستأنف هذا العمل نفسه من جديد . فلا راحة ، ولا هدوء ، ولا استجمام ، ولا استقرار ، ولا فترة من الزمن تمر به بين عمل وعمل .

فنى مصر كان هذا الشاب الذى لا يعترف بأن فى معجم اللغة كلمة (يأس) أو كلمة (تعب) حريصا على دعوة كبار الساسة فى أوروبا ليزوروا مصر ، ويشهدوا بأعينهم ما وقع عليها من ظلم ، ويلمسوا بأنفسهم مايحسه جميع المصريين نحو الانجليز من البغض ، ومن هؤلاء الذين قبلوا دعوته يومئذ نائب فرنسى كبير اشتهر بدفاعه عن القضية المصرية وتحيزه لها . واسم هذا النائب (مسيو دولنكل) . وقد حضر بالفعل إلى مصر فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ ، واحتفى به مصطفى كامل وكثير من المصريين احتفاءاً كبيراً ، وأقاموا له الولائم والحفلات طيلة عشرين يوما ، هى المدة التى أقامها النائب الفرنسى فى مصر .

وفى وقت قصير ذاع اسم هذا الفتى المصرى فى العالم الشرقى ، وفى العالمين الأوروبى والأمريكى حتى أخذ يخطب وده الأحرار فى جميع هذه البلاد ، وطفقوا يدعونه لزيارة بلادهم وكان من هؤلاء على سبيل المثال النائب الايطالى المشهور (كانى فورشلا) وقد كتب إلى مصطفى كامل فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦ معجبا ببطولته وداعيا إياه لزيارة إيطاليا .

مصطفى كامل واعتزازه بمصريته :

العجيب فى أمر هـذا الفتى المصرى أنه كان من أدوات كفاحه كلمة (مصرى) . وقد أخذ يعتز بمصريته هـذه اعتزازاً شحن به الغيظ فى قلوب الانجليز ، وأصبح شوكة فى جنوبهم ، وشجى فى حلوقهم ، وظلاماً فى أعينهم ، ووقراً فى مسامعهم ، حتى لقد راح رجال الاستعمار يدعون بأن مصطفى كامل ليس من صميم المصريين ، وكتب بعضهم إلى (شيونفرت) الرحالة الألمانى المشهور يقول « إن الذين يطالبون بحقوق مصر ، وفى مقدمتهم مصطفى كامل — ليسوا من صميم المصريين » وما كاد يتصل هذا النبأ بمسامع مصطفى حتى بادر من فوره بالرد على هذا الصحفى بقوله : (١)

فيينا فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

ياجناب المدير

« إسمح لى أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) فى جريدتكم ونشرتموه فى عدد ٧ سبتمبر الجارى فى شأن الوطنية المصرية .

يدعى مسيو (شيونفرت) أن المصريين القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبى — وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة . وقد تكرم حضرته بأن عدنى من رجال الفئة المترفعة عن الأمة ، البعيدة الأصل عنها . أى ممن لايجرى فى عروقهم الدم المصرى الحقيقى . وهى دعوى باطلة كل البطلان لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية ، العاملين ضد الاحتلال الانجليزى ، الساعين فى تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين ، وأغلبهم من أبناء الفلاحين . أما أنا فأفخر وأتشرف بأنى ابن ضابط منهم آباؤه فلاحون مصريون . فيظهر إذن جلياً أننا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٩١

لسنا من تلك الفئة البعيدة الأصـل عن الفلاحين لأنهم إما إخـواننا وإما أباؤنا .

أما اكتتابنا للجيش العثمانى فما هو إلا ثمرة وطنية يانعـة صادقة . نعم هو ثمرة الوطنية الحقـة . لأننا نعلم علم اليقـين أن انجلترة لا ترمى بدسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر . وإننا بسرورنا وباحتفالاتنا بالانتصارات التركية . نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الانجليزية — أى بأجمل وأبهى شىء يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام . الخ

وقد علقت الجريدة على كتاب مصطفى كامل هذا بقولها « إن على الكتاب طابع الحق والاخلاص ونحن لا نشك في أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيـه . ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا كل ما علق بأذهانهم من كتابه . فان هذا الرد صادر من صاحب الدار ، وهو أدرى بما فيها ، وعلى الأخص ما يخصه منها »

وبعد ، فنحن لا نستطيع السير مع مصطفى كامل فى كل رحلة من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا ، كما لا نستـطيع أن نكون معه فى كل مقابلة من مقابلاته العديدة لساستها ، وأحاديثه الخطيرة وخطبه الهامة فى محافلها ومجامعها . فقد ظل يقوم بكل هذه الأعمال الجسام منذ أعلن الجهاد الوطنى العام سنة ١٨٩٥ إلى أن توفاه الله برحمته سنة ١٩٠٨ .

وهناك من الباحثين من تتبعوا نشاط هذا الزعيم سنة بعد سنة، بل شهراً بشهر ومن هؤلاء شقيقه على فهمى ، ومنهم الأستاذ عبد الرحمن الرافعى . فليرجع اليهما من أراد .

أما نحن فليس من وكدنا فى هذا البحث أن نصنع صنيعهما وننهج نهجهما ، لأن لنا غرضا غير الغرض الذى هدفا إليـه . وهذا الغرض هو الكلام عن جانب واحـد من جوانب ذلك الفتى الفرد ، وهو الجانب الصحفى البحت .

الكتاب الثالث

مصطفى كامل والصحافة

وفيه سبعة فصـــول

« إذا كانت الصحـــافة فى كل بلاد. العالم شديدة التأثير ، عظيمة الفائدة ، فانها يجب أن تكون فى مصر أشد تأثيراً وأكبر نفعا . لأن الأمم الحية غنية عن إرشاد الصحف فى كثير من الشؤون . . . أما فى مصر وبقية بلاد الشرق فوظيفتها أن تكون المهذبة المؤدبة ، المنشطة المشجعة ، القائمة مقام المجالس النيابية حتى ترقى الأمة وتنال كل حقوقها »

مصطفى كامل

الفصل الاول

قبل اللــــواء

كان مصطفى كامل صحفيا بطبعه . يدلنا على ذلك أنه كان أول طالب فى مدرسة الحقوق ، فكر فى إصدار مجلة شهرية وجعل شعارها قول الحكيم الذى يقول « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » .

وقد أصدر الطالب الشاب أول عدد من أعداد مجلته يوم السبت غرة شعبان سنة ١٣١٠ (الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣) وقال إنها مجلة أدبية تهذيبية وطنيــة علمية . وكان يتولى تحريرها كلها بنفسه أول الأمر . ثم تطوع كثير من الكتاب للتحرير معه فيها بعد ذلك ، وكان يطبعها فى مطبعة المحروسة . « وهناك تعرف بالكاتب الشهير السيد عبد الله النديم الذى كان يطبع مجلته الشهيرة (الاستاذ) كذلك » . (١)

وبلغ عدد المشتركين فى هــذه المجلة مائتين وأربعين مشتركا فى أقل من ثمانية أشهر . واشتركت فيها نظارة المعارف بخمسين نسخة . وكانت تصدر عشرة أشهر فى السنة ، وتحتجب شهرين فقط . وكانت الموضوعات التى تنشر فى هذه المجلة بين وطنية وعلمية واجتماعية . وذلك فضلا عن الأناشيد الحماسية والملح والمحاورات الأدبيــة والفكاهية ونحو ذلك . ولم يتجاوز ما صدر من أعداد هذه المجلة تسعة أعداد . جاء فى أول عدد منها قوله :

« . . وبعد فلما كانت عموم الجرائد على اختلاف مشاربها وتنوع

---

(١) مصطفى كامل في ٣٤ ربيعا – علي فهمى – الجزء الأول ص ١٨٤

مذاهبها لا تفيد إلا الآباء دون الأبناء فى تثقيف عقولهم وتنمية أفكارهم أمر من أهم الأمور الشريفة ، وغاية نوالها من أكبر المزايا المنيفة لأنهم عماد دولة مستقبل الزمان ، ومتى صلح المبدأ صلحت الغاية فى كل آن . (من يزرع الشوك لا يجنى به عنبا) رأيت أن أهدى أبناء جلدتى وصغار بلدتى جريدة على الأخص تهذيبية ، لما فى ذلك من النفع والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد الخ

ولسنا نعترض هنا على عبارة الطالب الشاب إلا من وجهين :

أولهما — كثرة الجمل الاعتراضية التى وقعت بين قوله (فلما كانت عموم الجرائد) إلى قوله (رأيت أن أهدى أبناء جلدتى الخ)

وثانيهما — قلق هذه الجملة فى موضعها من العبارة كلها ونعنى بها قوله — (أمر من أهم الأمور الشريفة ومن أكبر المزايا المنيفة) . وأخشى أن يكون ذلك بسبب خطأ مطبعى .

أما القصد من الصحيفة فما أنبله ، وأما الغاية منها فما أشرفها ، وأما ما تدل عليه من نجابة الفتى وحسن تقديره لما يهم وطنه وقومه فشىء يستحق الاعجاب والتقدير .

ولنستعرض مع القارىء طائفة من العنوانات التى اتخذها الفتى لمقالاته فى مجلة المدرسة . ومنها نستطيع أن نعرف صورة عن الجو الذى كان يسبح فيه هذا القلم الغض ، والعقل الذى لم ينضج بعد . ومع ذلك راضه الفتى على كل ذلك الجهد . ومن هذه العنوانات على سبيل المثال : لماذا أنشئت المدرسة ؟ — شرف الأستاذ ومجد التلميذ — فيما يجب أن تتبع فى مطالعة الدروس — محاورة بين الأستاذ والتلميذ . (١) ـ مكارم الأخلاق الخ

واشتملت مجلة المدرسة كذلك على إعلانات عن بعض كتب للشاب

---

(١) كان من موضوعات هذه المحاورة (هل للمرأة أن تعمل فى مصالح الحكومة ؟) وقد مال الشاب مصطفى كامل بالطبع الى عدم جواز ذلك .

مصطفى كامل كان يعتزم تأليفها . ومنها كتاب (الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية) . وقد بدأ المحرر الشاب يمد قراءه بخلاصة لبعض فصوله.

وكان مصطفى كامل يشجع التلاميذ للاشتراك فى تحرير المجلة ، ويغريهم بالجوائز . ومن ذلك أنه قال مرة تحت عنوان (محاورة بين الأستاذ والتلميذ »

من يضع لنا من تلاميذ المدارس الابتدائية المشتركين فى جريدتنا هذه المحاورة فى قالب مقالة تقع لدينا موقع الاستحسان- نرسل اليه مكافأة نفيسة جداً . وإذا تعددت الرسائل على شرط ألا تتأخر عن الثامن عشر من هذا الشهر يخصص ثلاث مكافآت لثلاثة من أوائل المجيدين .

ثم أتى المحرر على هذه المحاورة التى طلب إلى تلاميذ المدارس تحويلها إلى مقال يصلح لنشره بالمجلة .

وتشتمل المجلة أيضاً على طائفة من الطرائف العلمية والنوادر الأدبية والملح الفكاهية . مثل قوله تحت عنوان :

(أغرب الجرائد) : يوجد بأمريكا بعض جرائد تطبع على قماش بحيث أنها تصلح بعد القراءة لأن تكون منديلا ، ونوع آخر تعهدت إدارته أن ترسل الطبيب والدواء لمن يمرض من مشتركيها ، كما أنها تدفع مصاريف دفنه إن مات الخ . ومثل قوله تحت عنوان (أبسط وسيلة لقطع الثلج) هى أن يوضع سن إبرة على النقطة المراد قطع الثلج فيها . ثم يضرب بيد مدية على رأس الأبرة . ومثل قوله (زهر مثلث الألوان) لونه في الصباح أبيض ، فى الظهر أحمر ، وفى المساء أزرق . ولا تشم له رائحة إلا وقت الظهر عندما يكون أحمر . ومثل هذه الطرائف والملح كثير .

وكانت المجلة تحتوى كذلك على قدر لا بأس به من الأسئلة التى يطلب إلى القراء الاجابة عنها فى عدد ، ثم يمدهم المحرر بهذه الاجابة فى العدد الذى يليه .

ويظفر القارئ، لهـذه المجلة أحيانا ببضع مقالات تنبئ عما يدخره المستقبل من ألوان الجهاد الذى فرضه هذا الشاب على نفسه منذ نشأته. ولعل من أهم هذه المقالات واحدة له بعنوان (الصناعة والصناع). وأخرى بعنوان : (نور الاسلام فى الآفاق) : (١) وقد جاء فى هـــذه الاخيرة قوله :

« قد يخطئ أعداء هـــذا الدين الخطأ الجم عندما يقولون إنه إذا كانت مبادئه حقيقة فلم لم ترتفع للمسلمين فى هذه الأيام كلمة ؟ ولم سبقهم الأفرنج إلى التقدم ؟ ويضيفون على ذلك أن العرب لم تصـــل إلى ما وصلت إليه إلا بقوتهم وشجاعتهم لا بنور دينهم وعظم علومهم الخ »

أما الأناشيد الوطنية فقد دعا إلى نظمها من شاء من الأدباء، وقال إنه يستطيع بعد بضعة أشهر أن يجمعها فى كتاب يكون قاعدة أساسية لتهـذيب الأبناء. ونظم الشاب مصطفى كامل نفسه نشيداً منهـا، وهو قوله :

هلموا يا بنى الأوطان طرا ∴ لنرجع مجدنا ونعز مصرا
هلموا كونوا فى القطر حقا ∴ نسيناه فضاع بذاك قدرا
فعار أن نعيش بغير مجد ∴ ونبصر فى السما شمسا وبدرا
فسيروا نحو هذا القصد حتى ∴ تنادوا أجمعين بعز مصرا

ومن هذه الأناشيد :

أهـــل المودة والسنن ∴ هيا لكى نعلى الوطن
ونعيـــد مجـــداً قد دفن ∴ ونفـــوز بالنصر المبـــين
أنـــتم بنـــوه فمالـــكم ∴ لا ترفعوا (٢) ما قد هـدم
وعزيز مصر إمامكم ∴ عباسنا الحصن الحصين

---

(١) العدد السادس من مجلة المدرسة - أنظر كتاب على فهمى المتقدم الذكر ج ١ ص ٢٧٢
(٢) كذا فى النشيد وصحتها ترفعون وبالأخير يختل الوزن

وهى أناشيد حاول فيها الفتى أن يعبر عن آماله الوطنية ، وقدر من المعانى الحماسية . فعجز قلمه الغض عن تحقيق ذلك القدر .

مصطفى كامل فى جريدة الأهرام

سنحت للفتى الصحفى فرصة أخرى يروض فيها قلمه على المهمة الخطيرة التى تنتظره .

وفى هذه الفرصة الثانية استطاع الفتى أن يتصل بجريدة الأهرام ، فأفسحت له صدرها وخصصت له غرفة من غرف دارها ، فكتب الفتى بين عامى ١٨٩٣ ، ١٨٩٥ أكثر من عشرين مقالة .

ولا بد لنا من التعرض لهذه المقالات أولا من حيث الموضوع ، وثانيا من حيث الأسلوب .

كانت أولى مقالاته بجريدة الأهرام فى العدد رقم (٤٥٤٥) وذلك يوم السبت ١١ فبراير سنة ١٨٩٣ وعنوانها (نصيحة وطنى) .

وكانت الثانية بجريدة الاهرام بالعدد رقم (٤٥٥٠) تحت عنوان (الحق يعلو ولا يعلى عليه) .

والثالثة بعدد الأهرام الصادر يوم الجمعة ٢٤ فبراير تحت عنوان :

المدنية وتعميم التعليم

أشار الكاتب فى هذا المقال الأخير إلى الدور الذى لعبه الشرق منذ القدم فى ميدان العلم حتى جاء الاسلام فأعان على نشره بين جميع الطبقات . ثم طرأ على هذا الشرق ما طرأ عليه من عوارض المرض ومن أهمها قصر العلم على طائفة قليلة من طوائف الشعب . ونام الشرق برهة نهض فى أثنائها الغرب ، فبنى مدنيته على أسس ، منها انتشار العلم ، ومنها حرية الصحف . فأصبحت الجرائد لدى الشعوب المتمدنة من أهم ما تدعو إليه الحاجة وتدور عليه رحى السياسة .

ثم اتجه المحرر فى مقاله هـذا إلى السلطان عبد الحميد فقال « وإنا ليسرنا معاشر العثمانيين ما نراه من جلالة مولانا أمير المؤمنين الذى أحيا فى قلوب الأمة الضعيفـة الأمل، وأعاد للشرقيين أيام الخلفاء الأول، من الاهتمام بهذين الأمرين العظيمين، وأخصهما تعميم التعليم وتوجيـه العناية الفائقة بانشاء المدارس »

وفى الثامن من شهر مارس سـنة ١٨٩٣ بعث إلى جريدة الأهرام بمقال عنوانه : —

الأعمال بمقاصدها

بدأه بقوله : لست والله ممن يقول كلمـة يريد بها جزاء من زيد أو تقربا من عمرو . بل هو الحق يضيق به الصدر فيعلنه اللسان . وهو ولئن سر قوما فانه يسيء آخرين . لكن لا سـكوت مع الحجة، ولا عى مع البرهان . فاننا معاشر المصريين قد مضى علينا سنون عشر لم نسمع فيها سوى كلمة « الصبر » ولم نستفد من المحتلين إلا المن علينا « بالاصلاح ». وهو وإن حصل فى بعض الشؤون فانما ضرره لا يوازى ما يستفيد منـه المصلحون الخ »

ثم ضرب الكاتب المثل هنا بالاصلاح الذى زعم المحتلون أنهم قاموا به فى ناحيتين وهما : (ناحية البوليس) . . . فشرعوا فى عزل من أرادوا من ضباطه الوطنيين واستبدالهم بضباط من الانكليز يجهلون أحوال البلاد وعوائد الأهليين . . . . (١)

وتدرجوا من ذلك إلى جعله (أى البوليس) إدارة مستقلة خارجة عن سلطة المديرين وضمها لادارة الربط والضبط التى أصبحت فى أيديهم

(١) فى هذه العبارة خطأ من ناحية الأسلوب تصحيحه كما يلى : فشرعوا فى عزل من أرادوا من ضباطه الوطنيين واستبدلوا بهم ضباطا من الانكليز الخ . ذلك أن البـاء للترك كما يقول النحويون (المؤلف)

آلة صماء تديرها يد الأغراض كيف تشاء . (والثانية الجندية) فقد اشترطوا إدخال بعض الضباط الانكليز فيها . . . إلا أنهم تعدوا قاعدة الانصاف فى هذا الأمر ، حيث رأوا أنه مع وجود احتلالهم العسكرى لا لزوم لوجود عسكرى مصرى يقوده ضباط وطنيون صادقون . . فجعلوا يولون على قيادة الفرق من أبناء جلدتهم الضباط الكبار لتكون الجندية طوع أمرهم . . .

ثم لم يكفهم ذلك حتى اشرأبوا إلى (الحربية) فأتاحت لهم الظروف أن تولوا أمرها وجعلوها انكليزية محضة . ثم ناطوا القيادة العامة (السردارية) ومعاونيها برجال منهم . .

ثم أنحى الكاتب باللائمة على الاحتلال فى مصر فى تلك المهزلة التى مثلها على مسرح السودان ، فسلخه عن مصر بطريقة خفية . وقال : إن فعلته هذه كبيرة لا تغتفر فى جانب الانسانية ، وجريرة لا أظهر عيباً من صدورها من أمة الحرية . فان السودان لم يلتحم بهذا القطر إلا بدماء رجاله ، ولم يخضع للراية العثمانية إلا بهمة أبطاله وبذل أمواله !

ثم حاول الكاتب الشاب فى هذا المقال أن يحارب اليأس الذى زرعه المحتلون فى قلوب المصريين وأن يتخذ من الثقة المتبادلة بينهم ومن أميرهم العباس سلاحا من أسلحة هذه الحرب .

وهكذا فضح الكاتب رجال الاحتلال وكشف عن مبلغ كذبهم فى دعواهم أن مهمتهم الأولى فى مصر هى إعداد المصريين للحكم الذاتى .

وفى الرابع من ابريل سنة ١٨٩٣ نشرت الأهرام لهذا الشاب مقالا بعنوان :

الجامعة

دعا فيه إلى الاتحاد والألفة بين عناصر الامة . وقال بعد مقدمة طويلة :

من نظر فى تاريخ البشر لا يجد أمـة عظيمة قامت على الارض ثم تطرق اليها الضعف والاضمحلال إلا بعلة تفريق أجزائها الملتئمة، وانفصال أعضائها الملتحمة . .. وأن الأمة التى لا تتماسك أجزاؤها ولا تتلاحم أعضاؤها لا تعيش طويلا ولا تبقى إلا قليلا . وما بقاء عقـد تناثرت حباته ؟ إلى آخر ما قال .

ثم فى العشرين من شهر ابريل سـنة ١٨٩٣ نشرت له الأهرام مقالا بعنوان :

المعلمون والتعليم فى مصر

كان الدافع له على كتابته فيما يذكر لنا شقيقه على فهمى (١) أنه كان كثيراً ما يقول :

إن أكبر أمانى أن تكون لى مدرسة أعلم فيها الناشئين لأن المجلة لا تكفى وحدها لتهذيبهم .

ودعا فى هذا المقال إلى زيادة العناية بأمر إعداد المعلم، ولو دعا ذلك إلى زيادة مدرسة أو مدرستين على مدرستى المعلمين الحاليتين، وهما دار العلوم، ومدرسة المعلمين التوفيقيـة . كما دعا الحـكومة إلى زيادة رواتب المعلمين الوطنيين بالنسبة لرواتب المعلمين الانكليز . وإلا تسرب اليأس إلى نفوسهم وضنوا على التعليم بجهودهم . وتوجه الـكاتب بندائه إلى (العباس) أن يحقق للامة هذا الرجاء، ويسدى اليها هذه المنه .

ثم احتاج الـكاتب الشاب إلى السفر إلى أوربا للدعوة بين ربوعها للقضية المصرية . وإنه لعلى ظهر الباخرة التى تغادر به أرض الوطن وإذ بقلب هذا الفتى يزدحم بشتى المشاعر الوطنية. وإذا بطائف من الحنين إلى مصر يمس هذا القلب الـكبير، ولـكن كما تمس النار جسما من الحديد،

(١) كتابه المعروف جزء ٣ ص ٣١

فترفع من درجة حرارته بحيث لا تستطيع أن تلمسه حتى بأطراف اليد .

وهنا بث الكاتب الشاب أشواقه ولوعته جريدة الأهرام التى نشرت له بعددها الصادر فى ١٤ يوليه سنة ١٨٩٤ مقالة تحت عنوان

-- البحر -

وهى مقالة أدبية أكثر منها سياسية . بدأها الكاتب بتسعة أبيات شعرية وهى :

أودع أوطاناً يسوء وداعها * وأترك أمصاراً يسر لقاؤها
وأركب بحراً بره موطن الندى * وأمته عم البلاد سخاؤها
يذكرنى منه الصفاء مراتعاً * بها نفس ذى الآمال تم صفاؤها
ألا أيها البحر العظيم بنا اتئد * فمصر تجلى للعيون بهاؤها
تمهل فمصر موطن العز والندى * ومصر أخا النعماء جم هناؤها
بلادى حماك الله من كل غادر * وأبقاك للدنيا فأنت سناؤها
أغادر منك الثغر والقلب شيق * وعينى يجارى هاطل الغيث ماؤها
فرفقاً بمن فى البر والبحر مخلص * يرى مصرى شمساً لايحاكى ضياؤها
عليك سلامى ياديار تحية * تدوم وأشواقى إليك انتهاؤها

ثم قال :

لا بدع إذا كانت الاسكندرية بجميل منظرها وجليل مظهرها تستوقف الأبصار عند مغادرتها ، وتخطف الأبصار ساعة الخروج من بوغازها . لاسيما أنظارنا أبناء النيل حيث تسلب عقولنا ، وتخلب مداركنا عند مشاهدة ديارنا الزاهية ، وربوعنا الباهية تغيب عن أعيننا شيئاً فشيئاً حتى تختفى تحت حجاب من الماء سميك ، وينعدم وجودها من بين الصور العينية بعد أن كانت واقعة تحت المرأى لايحجبها عن العيون حجاب . لعمرى إن اختفاءها مما يدعو لسكب الدمع وضياع الرشد . وباختفائها تختفى عنا

أوطان يعز علينا فراقها . فيها نشأنا وفيها ظهرنا وبخيرها تمتعنا واليها ترجع آمالنا . . .

ثم طفق يصف البحر وجلاله ، والباخرة وركابها (ويسميها الجزيرة المتحركة) والموج وهياجه ، والريح واضطرابها ، والجو وتقلبه . كما وصف الدوار الذى أصاب الركاب ، والجزر التى مروا بها كجزيرة كريد ، والمضايق التى مر بها كذلك كمضيق مسينا . ثم يتحدث عن عظمة البحر لأبيض المتوسط وعن أهميته فيقول : وإذا كان شاعر فرنسا الشهير لامارتين ، يسمى البحار مقلة الطبيعة لأنها من وجهها كالعين من وجه الانسان ، فلا شك أن البحر الأبيض المتوسط أحق من سواه بأن يكون سواد هذه المقلة العظمى ، لأنه أعظم البحار أهمية وأكبرها فائدة ونفعاً لما له من الأيادى البيضاء على بنى الانسان : فهو رائد التجارة ، وقائد الأمم لطريق الحضارة ، وأصل شجرة التمدن التى يتكرم باهداء ثمرتها النضرة للبلدان التى يختارها حسبما يرى عند أفراد الأمم من نشاط وغيرة . اذكر ذلك وآسف شديد الأسف من أن هذا البحر الغزير الخيرات صاحب القوة والملك الكبير غضب على وطننا العزيز غضباً طويلا ، فلم يعترف لأبنائه بفضل ، ولم يشهد لهم بكمال حتى يهبنا الحرية الحقيقية ، والمدنية الصادقة ، ويعيد لنا ما مات فى سالف الأوقات من المجد الكبير والمقام الخطير . ولعلنا ننظر لهذا الداء بعين الاعتبار فنداويه باتحادنا . ولاشك أن الاتحاد مصدر القوة وعنوان الاستقلال الخ .

ثم فى العددين الصادرين فى ٢٠ ، ٢١ يولية سنة ١٨٩٤ نشرت له الأهرام مقالا بعنوان :

معرض ليون

وصف فيه هذا المعرض الفرنسى الذى عرضت فيه فرنسا أحسن نتاجها ونتاج مستعمراتها . ثم عقب الكاتب على ذلك بقوله :

« ويحق لأبناء فرنسا عند زيارة هذا المعرض الاستعمارى أن يظهروا فخارهم بأوطانهم . ولا غرو إن ازدادت محبتهم لبلادهم برؤية أملاكهم ومستعمراتهم . فهم يرون فيه حقيقة قوتهم ، وكبير فتوحاتهم وعظيم انتصاراتهم . كما أنه يحق للشرقى عند رؤية هذا المعرض أن يبكى بلاده وأوطانه ، ويندب قومه وعشيرته ، ويأسف على بلاد ضاعت من يد أبنائها بالحقد والحسد ، وذهبت غنيمة الغريب بسبب الفشل وحب الذات المستحكم بين أهلها ، القائم بقيام الليل والنهار بين أفرادها . أقول ذلك ولا أنكر على القارىء الكريم أسفى وحزنى عند رؤية هذا المعرض الاستعمارى وإن كنت رأيت منه معرضاً جميلا جليلا حقيقاً بالرؤية والزيارة .

وكما أن أبناء فرنسا يفرحون برؤيته ، وأبناء الشرق يحزنون لرؤيته فلا عجب إذا اشتركت الفلاسفة مع أبناء الشرق فى حزنهم وأسفهم . فهم يرون دائما فى الفتوح جريمة لا تغتفر وفى الاستعمار إثما يبقى مابقيت الساعات والأيام .

وفى يوم ٣١ يولية ، ٣ أغسطس سنة ١٨٩٤ نشرت له الأهرام رسالة عنوانها

بلجيكا وعاصمتها

وصف فيها هذه البلاد وأشار إلى قصة كفاحها الذى ظفرت فى نهايته بالاستقلال عن هولانده منذ سنة ١٨٣٠

« ومن يوم أن تم لها هذا الظفر العظيم ابتدأ البلجيكيون فى تنظيم بلادهم كما تهوى نفوسهم . وقد تم لهم ذلك حتى أصبحت كل مدينة من مدائنهم قرة النواظر ومسرة الخواطر . وأخصها بالذكر مدينة بروكسل » الخ .

أجل — استهوى جمال هذه المدينة قلب الشاب مصطفى كامل . ولكن ذلك لم ينسه قط جمال وطنه مصر . ثم قال :

وقد علمت بعد الخبرة أن رقى القوم هنا مسبب عن صفتين لازمتين

لكل أمة تريد أن تنهض بنفسها إلى سلم الرقى . وهما : حب الاطلاع ، والاعتماد على النفس . (١)

وتابع الكاتب الشاب كتاباته فى وصف معارض أوربا . ومنها معرض (أنفرس) والكاتب يتخذ من كل ذلك العبر ، ولا يفتأ يذكر مصر فيرجو لها الخير ، ويبصرها بما عليه القوم فى أوربا من تقدم علمى وصناعى ويهيب بأمته أن تبلغ بأبنائها هذا القدر من الرقى .

الحق لقد تعلم مصطفى كامل من رحلاته إلى أوربا أموراً كثيرة ، وأفاد فوائد جمة . وكان قلبه يزدحم فى كل مرة بأفكار شتى وآمال عراض وغيرة شديدة على مصر بل على الشرق كله .وقد كان لايمثله فى جميع المعارض العالمية إلا قهوات الرقص . كأن الشرق — فيما يقول الكاتب — لم يشتهر فى نظر الأوربيين إلا بذلك.

وبقى الكاتب يمد جريدة الأهرام بمثل هذه الرسائل .

ثم أمد الكاتب جريدة الأهرام بمقال تاريخى عنوانه (ووترلو والمذبحة البشرية) أشاد فيه بذكر نابليون العظيم ، وذلك بمناسبة زيارته لتلك القرية التى منى فيها البطل الفرنسى بالهزيمة الأخيرة .

وفى باريس أدرك الكاتب عيد جلوس السلطان عبد الحميد فقام على تنظيم احتفال كبير بهذا العيد ،كان أول احتفال من نوعه أقيم فى مدينة النور ، وبعث إلى جريدة الأهرام برسالة يصف فيها هذا الاحتفال العظيم، فنشرت الأهرام له هذه الرسالة فى الثامن من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٤ تحت عنوان :

الاحتفال بعيد جلوس السلطان

وهى حفلة اشترك فى إقامتها جميع المصريين بباريس وحضرها المسيو (دولونكل) النائب الفرنسى الشهير ، والمسيو (ميلفو) أحد النواب السابقين،

---

(١) مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا - على فهمى - جزء ٢ ص ٩٨

واستمع الحضور إلى خطابة الخطباء وهم يثنون على السلطان عبد الحميد، ويشيدون بالعلاقة الطيبة بين مصر والدولة العلية. وجاء دور مصطفى كامل فقدمه أحد الصحفيين الفرنسيين على أنه مصطفى كامل المصرى صاحب (جريدة المدرسة) فقام وألقى خطابا بالفرنسية شكر فيه الحاضرين. وبعد برهة طويلة قام وألقى خطاباً باللغة العربية هتف فى غضونه بحياة السلطان وحياة العباس وحياة مصر. ثم لم يكفه ذلك حتى صاغ هذا الهتاف شعراً لا حاجة بنا إلى ذكره.

ثم بعث الكاتب الشاب بطائفة من المقالات إلى جريدة الأهرام فنشرت أولاها فى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٤ تحت عنوان

هنام يجاهرون بعكس ما يضمرون

انتقد فيها سياسة الاحتلال الانجليزى وذكر أن الانجليز دخلوا مصر قائلين:

« إنا دعاة الصدق، نصراء الشرف. دخلنا مصر لتأييد سلطة أبنائها وإصلاح شؤونها، وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل الاضطراب. ثم أثبتوا فى تاريخ احتلالهم أكبر إثبات أنهم عاملون على تقويض السلطة الخديوية وتقليل نفوذها وخراب البلاد وإفقار العباد.. كأن الدولة العباسية (يريد مصر) مقاطعة من مقاطعات اسكتلندا أو ارلندا. هذا أميرنا — أبو أميرنا (يريد توفيق) عليه من الرحمن الرحمة والرضوان ظن بكم خيراً، وسالمكم فى أكثر الأمور فقابلتم بعد موته ثقته بكم ومسالمته لكم بقولكم عنه:

« إن اللورد كرومر تنازل له عن الامضاء على الأوامر العلية فكان يضع إمضاءه بدل امضاء حضرة اللورد!...»

بل قولوا لنا بحق مجدكم يا أدعياء الحرية وزعماء المدنية هل أعدتم الوطن العزيز إلى ما كان عليه قبل الثورة بسلخ السودان عنه وتركه غنيمة باردة

لكم ولصنائعكم من بعدكم . فلا تركتمونا نسترجعه ولا صنتم حياءكم ، بل كنتم أول الطامعين فيه المقتدرين عليه .

ماذا كان منكم بعد أن أجبتم إلى طلبكم بسلخ السودان ؟

كان منكم أن كنتم أول المتهكين لحرمته باستيلائكم على أوغندا ثم احتلال وادلاى ، وأخيراً بالهدية الثمينة التي قدمتموها فى الصيف الماضى إلى صديقتكم إيطاليا (يعنى بها كسلا) .

وهكذا مضى الكاتب فى لهجته العنيفة التى نازل بها الاحتلال حتى قال :

لنسلم لكم أنكم أصلحتم الشؤون ، وأيدتم السلطة الخديوية فما لكم لا تخرجون ؟

أظنكم تجيبوننا على ذلك بأنكم إلى الآن لم تتموا ما تكلفتم به . . إذا كان قولكم حقاً فلتضربوا لنا ميعاداً للانجلاء . . . وبذلك تبرهنون للعالم أجمع أنكم حريصون أكمل الحرص على مجدكم وشرفكم . وإلا فيؤخذ عليكم أن تكونوا أبناء التاميز دعاة الصدق ونصراء الشرف وتجاهرون بضد ما تضمرون .

لم نر مصطفى كامل اهتاج فى كتابته إلى الآن قدر ما اهتاج فى كتابة هذا المقال . وما ذلك بطبيعة الحال إلا لأنه يمس موضوعا حساسا هو موضوع الاحتلال . وأى أمر فى العالم كان يستطيع أن يحرك هذا الشاب قدر ما يحركه هذا الأمر ؟

كان مصطفى كامل يكتب مقالاته هذه بلغة الشباب وحماسة الشباب وحرارة الشباب على حين كان كتاب آخرون كالسيد علي يوسف لا يتكلف فى صحافته ضد الاحتلال البريطانى هذه اللغة ، ولا يصل فيها إلى هذه الدرجة من الحدة والانفعال ، ولا تحس فى كتابته بعض ما تحسه فى كتابة هذا الشاب .

ومع هـــذا وذلك فقد كان هذا الشاب هادئاً أو كالهادئ، إلى الوقت الذى كتب فيه مقاله الأخير بعنوان

علام تجاهرون بغير ما تضمرون

ومنذ يومئذ وبركان الثورة فى نفس هـذا الفتى قد انفجر انفجاراً هائلا وقذف الاحتلال البريطانى بمقذوفاته المؤذية .

ومنذ ذلك التاريخ والفتى فى الحادية والعشرين فقط من عمره بدأت عنايته بالقضية المصرية تقوى وتشتد. وكان يستعين فى ذلك بما حصل عليه من الـكتب السياسية التى تبحث فى هذا الشأن وما أتيح له أن يقتنيه من المذكرات الخطية وغير الخطية من بعض رجال السياسة الذين كاتبهم أو حادثهم فى هذا الصدد . (١)

نعم منذ ذلك التاريخ أخذ مقياس الحرارة فى كتابة الشاب يرتفع . وكان الرجل أصيب منذ يومئذ بحمى السياسة التى أصبحت بعد قليـل من الزمن داء عضالا يرعى فى جسده ويمزق عصبه وينزف من دمه .

وأقبلت ســـنة ١٨٩٥ فطلع الشاب على قرائه بمقال نشرته الأهرام بعددها الصادر فى اليوم الرابع من يناير تحت عنوان :

الوعود الصريحة

بدأه بقوله :

ذكرت الانكليز فى رســـالتى الأولى بأشهر سيئاتهم الاحتلالية . وأذكرهم اليوم بشرف الوعود وأثمن العهود التى قالوها ضمانة للانجـلاء ، آتيا بها وعدا بعد وعد ، وعهدا بعد عهد ، عسى تنفـع الذكرى ، ويعلم السادة الأحرار أنهم بمحافظتهم على هـــذا الاحتلال الثقيل قد وطئوا بأقدامهم وداسوا بأرجلهم أعز شىء يتباهون به ويفتخرون به ــ وأغلى

(١) مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعا جزء ٣ ص ٧٦

بذلك الشرف البريطانى الجليل الشأن الرفيع البنيان .

ثم أخذ الكاتب يحصى وعود الشرف التى قطعتها انجلتره على نفسها فبلغت ثمانية عشر وعدا . أولها وعد اللورد غرانفيل فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ أى قبيل أن تظهر للثورة العرابية نار ويقام للاحتلال منار . وآخرها وعد المستر (مورلى) لمجلس العموم فى ٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وفيه يقول « إن رأيه بشأن مصر هو عين رأى أسلافه وإنه لا يرى غير الجلاء »

ثم وجه الحديث إلى السادة المحتلين قائلا لهم بعد كل ذلك « هذه وعودكم الشريفة الصريحة التى لا تستطيعون نكرانها . . . فهل لكم أن تحترموا شرفكم العزيز، وتنجلوا عن الديار بسلام ؟ أم عزمتم العزم الأخير على استخدام ذلك الشرف فى اغتيال البلاد كما يشير به عليكم الخونة الأشرار ؟ » .

لقد دل هذا المقال على الخطة التى وضعها الشاب منذ يومئذ لمقاومة الاحتلال الانجليزى . وهى خطة تقوم من جانبه أولا على الدراسة ، ثم على الدعاية ، ثم على إيقاظ الشعور القومى فى مصر .

وفى الفصل الذى كتبناه بعنوان (مصطفى كامل الداعية) وقفنا على الحديث الخطير الذى دار بينه وبين شقيق اللورد كرومر فى مصر ، ونعني به (الميرالاى بارنج) . وقد نشرته له الأهرام فى عددها الصادر يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٩٥ ولا حاجة بنا إلى إعادته .

وقد ردت المقطم (لسان حال الاحتلال الانجليزى فى مصر) على هذا الحدث العظيم فى تاريخ السياسة المصرية بمقال لها صدر فى اليوم الثانى مباشرة تحت عنوان « حديث خرافة »

فما كان من الكاتب الشاب إلا أن بعث بخطاب إلى صاحب الأهرام بشارة تقلا باشا نشرته هذه الجريدة فى عددها الصادر يوم الاثنين

٤ فبراير سنة ١٨٩٥ ردا على ترهات المقطم فطالب هذه الجريدة بأن ترجع فى تكذيبها إلى (بارنج) شقيق كرومر، فان وافقها على هذا التكذيب فليس بد للكاتب يومئذ من أن يذكر (بارنج) هذا بالمكان والزمان اللذين اجتمعا فيهما، ثم بالحديث الذى دار بينهما على أن يذيل كل منهما ذلك بامضائه ليتحمل تبعة الصدق والكذب.

منذ ذلك اليوم كثر أعداء هذا الشاب. وكان من ألد أعدائه صنائع الاحتلال الذين اضطر الشاب إلى محاربتهم محاربة سافرة. من ذلك أنه فى الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٥ بعث إلى جريدة الأهرام بمقال تحت عنوان:

التهديد بالباطل

رد فيها على جرائد الاحتلال التى لم تستطع أن تخفى غيظها من الشباب الذين لم يكن لهم ذنب غير أنهم احتفلوا مرة بعيد جلالة السلطان، وزاروا مرة أخرى جناب المسيو فور رئيس الجمهورية الفرنسية. قال المحرر الشاب:

فماذا افترى إذن مصريو باريس حتى اهتزت الدنيا، وقام الانكليز وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، طالبين من مريض الوزارة عقابهم أشد العقاب تعذيباً لهم، وعبرة لغيرهم، مما حرك الشيخ العليل إلى إصدار أمره إلى صديقه أرتين باشا بتحقيق هذا الأمر وتقرير العقاب الصارم.

وماذا أتى إخواننا المصريون ضد الانكليز حتى يطالب السير بالمر إلغاء الارسالية المصرية بأسرها وجعلها أثراً بعد عين. ثم يعود فيطلب إلغاءها ومعاقبة المسببين لزيارة المسيو فور عندما علم (وياللعجب وطول الخجل) أن حضرات الأجلاء (أعضاء البعثة المصرية من الأرمن (يتعلمون فى الارسالية على نفقة حكومتنا السنية! وأى حكمة وراء قول المقطم

لسان حال معتمد الدولة البريطانيـة فى مصر : بان المصريين لو كانوا على رأى الجرائد العربية الفرنسوية - يريد بذلك على ما أظن المؤيد الأغر والأهرام الزاهرة - لاستعمل الانكليز معهم الشدة والقسوة بدل الملاطفة واللين . مع علم السادة المحتلين جميعاً بأن الأمة المصرية بأسرها على رأى هاتين الجريدتين الصادقتين .

يظهر لى أن الحكمة هى الوعيد والتهديد . ودليل ذلك قوله إن نابليون كان يعامل المصريين بالشدة كانه يريد المقارنة بين عنصرين يفصلها قرن طويل ، وبين فريقين جاء أحدهما فاتحا والآخر قاصدا الاحتلال المؤقت والجلاء السريع .

ولكن ليهدأ المحتلون بالا ويسكنوا خاطرا . فلقد علم المصريون كل ما يضمره لهم أبناء التاميز ولا يزيدهم الوعيد إلا ثباتا فى العمل وقوة فى الوطنية الخ .

هكذا مضى المجاهد العظيم مصطفى كامل يقاوم المحتلين ، ويسخر من تهديدهم ووعيدهم ، ويستصغر جهودهم فى سبيل إرهاب الأمة المصرية . حتى إذا ضاق اللورد كرومر ذرعا بهذه المقاومة لم يجد بدا من استصدار أمر عال بتأسيس ما سماه (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة المعتدين من الأهالى على جنود الانجليز وضباطهم . ويومذاك ثارت ثائرة الشاب الأبى مصطفى كامل وبعث إلى جريدة الأهرام فى الرابع من شهر مارس سنة ١٨٩٥ بهذا المقال الذى كان شديد الوقع على رجال الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت ، وعنوان المقال :

صواعق الاحتلال

بدأه بقوله :

يالله من صواعق تصب علينا بغير حساب ، ومصائب نرمى بها بلا

أسباب ، وبلايا تتدارك علينا تدارك السحاب ، ورزايا تتصدع بها القلوب والألباب حتى أصبحنا نتقلب بين أنياب هذا الشر وأظفار ذلك السوء ولا نعرف من الأيام غير ظلماتها ، ولا من الحوادث إلا مزعجاتها . كل ذلك على أيدى فئة جاءت البلاد بحجة الاصلاح .

وإذا سألتها ماهذه الصواعق التى تصبينها علينا قالت إنما هى أدوية أدواتكم ومراهم جروحكم فتقبلوها بالصبر والسكون وإلا وضعت لكم السم فى الشراب ، كأنما نحن أطفال صغار لا ينفعنا إلا التهديد والارهاب.

وإذا ناديناها : لبى نداء هذا الشرف البريطانى الرفيع الذى يسألك الجلاء عن الديار وترك البلاد لأبنائها يسوسون أمورهم بأنفسهم ، قالت :

ما أقل اعترافكم معشر المصريين بالخير وأولاكم بالسوء . أترغبون فى خروج الانكليز من بلادكم وتكفرون بنعمة وجودهم بينكم واحتلالهم أرضكم ؟ فلأرسلن عليكم الصواعق تأتيكم من حيث لا تشعرون ، ولأرمينكم بالمصائب تهز قلوبكم هزا ، وتدك وجداناتكم دكا ، حتى إذا علمتم بطش الانكليز وقوة البريطان أخلدتم إلى السكون وجنحتم إلى عدم المطالبة بالجلاء ، لتتم علينا نعمة الحكم عليكم والسيطرة على بلادكم .

ولسنا نستشهد على صحة هذا القول بحادث من حوادث الماضى . بل نستشهد بحادث اليوم الذى جاء ضربة قاسية على النفوس ، وصاعقة شديدة الوقع على الرءوس . أعنى به حادث المحكمة العرفية الاستبدادية التى أنشئت لمعاقبة كل من تعدى على جنود الاحتلال عقابا لا يدخل تحت قانون ما .

تأسست بعد أن أرغت جرائد لندرة وأزبدت ، وأرعدت وأبرقت ، ووجهت إلى سدة الأمير طعن وبذاء ، مما قابلناه تلك الساعة بقول الشاعر

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ∴ فهى الشهادة لى بأنى كامل

تأسست هذه المحكمة على شكل يكفي وحده لأن يبرهن للعالم بأسره أن الانكليز لا يعرفون للقانون رسما .

وهل سمعتم يا قوم بمحكمة تحكم بما يشاء هواها ؟ محكمة تحكم بصلم الأذن ، وجدع الأنف ، وسلخ الجلد ، وبالجلد والضرب ؟

وهل رأيتم يا قوم في التاريخ أن أمة تحاكم على غير قانون ودستور ؟ أجيبونا يا معشر المشرعين . واسمعونا كلمة الحق أيها المنصفون . فقد بلغ السيل الزبى . نعم نعم أنتم تريدون أيها المحتلون بهذه المحكمة عقاب كل مصرى أمين يعرف أنكم خصوم بلاده ، وتقصدون بها إهانة الوطنيين بسجنهم السنين الطوال . إن لم نقل باعدام كثيرين منهم .

نعم نعم ـ أنتم تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية تحكم بنفس القانون الذى تحكم به محكمتكم الجديدة .

نعم نعم ـ أنتم تريدون ذلك وتبذلون الجهد الجهيد فى سبيل الوصول إليه . وإلا فأى تعصب دينى فى البلاد حملكم (أيها العادلون) على تأسيس هذه المحكمة التى تؤاخذون على تأسيسها كل المؤاخذة ... وأى داع حملكم اليوم على المطالبة بهذا الحق الذى تقولون عنه بعد أن سكتم عن المطالبة به ثلاث عشرة سنة . . . لا خلاف فى أنكم ترغبون قتل العواطف الشريفة الحية ، وتودون من صميم الفؤاد إخماد أنفاس كل كاتب وكل معارض : ولنا فى الغاء مدرسة دار العلوم دليل آخر على ذلك . فلقد أردتم أن يكون هذا الشهر شهر النصر لكم والخذلان لنا . فأرسلتم علينا من سماء عدالتكم الصواعق تباعا ، حتى عسر علينا إحصاؤها. بل بتنا نقول (كل البلايا فى ظل المحكمة المخصوصة) فانا لله وإنا إليه راجعون . »

ثم فى الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام لمصطفى كامل مقالا بعنوان

الشرق الاقصى

تحدث فيه الكاتب إلى قرائه عن الحرب الصينية اليابانيه وصلة ذلك بالمسألة المصرية . وكانت انجلترة تقف موقف العزلة من هذه الحرب بينما كانت فرنسا والمانيا وروسيا شديدة الاهتمام بها . قال مصطفى كامل:—

« ولا أرانى مخطئا إذا قلت إن مسألة الشرق الأقصى خدمت مصر خدمة جليلة بأن وجهت إليها الأنظار أكثر من ذى قبل . فليست الجرائد الفرنسوية وحدها هى التى تطالب اليوم بالجلاء عن وادى النيل، ولكن الجرائد الروسية والألمانية صارت أشد لهجة وأعظم غيرة منها »

ثم أتى الكاتب الشاب بعبارة لبعض الصحف الأوروبية جاء فيها :

« إن انكلترة تهددنا باقفال قناة السويس إذا أتينا بأى عمل حربى ضد مصالحها فى الشرق الأقصى . فعلى الدول الثلاث المتحدة حل مسألة مصر بأول فرصة حتى لا يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة انكليزية »

ثم قال :

« ولا مراء فى أنه إذا دام الحال على هـــذا المنوال وظلت خطة الدول الثلاث بلا تغير نجت مصر من مخالب الأسد الذى يحاول افتراسها ، وتحققت أمانى محبى مصر والمنصفين فى قولهم « مصر للمصريين »

ثم فى أول يونيه سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام لهذا المجاهد العظيم مقالا تحت عنوان :

من أين يأتى الخطر

وفى هـــذا المقال لخص الكاتب خطابا سياسيا خطيراً ألقاه بعض

الفرنسيين فى حفلة دعى اليها الشاب مصطفى كامل. ومن هذه الخطبة قوله :ـ

إنى لم أكن أعلم شيئا من حوادث مصر، غير أن الانكليز فيها يريدون ابتلاعها. وسياستهم على شواطىء النيل كسياستهم فى كل بلد آخر تتلخص فى الافقار والاستعباد والتخريب. ولكنى اندهشت أعظم دهشة عندما قرأت فى الجرائد خبر تأسيس محكمة مخصوصة تقبض بيدها على السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية. وزادت دهشتى لما علمت أن الذى قرر هذه البدعة الكبرى هو مجلس النظار المصرى المركب على ما أعلم من نظار مصريي الجنسية! ومن ذلك اليوم درست المسألة دراسة مجتهد حتى وقفت على ما جريات الأحوال وعموميات الأشياء. وخلاصة ما استنتجته أيها السادة هو أن مصر بلد سىء الطالع، رزق فى هـذا العصر المنير عصر الحرية والمدنية باحتلال أجنبى يديره رجال لا يعرفون غير الاستبداد وحب العلو والظهور والانتقام، وقوم من مصر سواء من أبنائها أو من الداخلين عليها لم يأت التاريخ بذكر مثلهم. فهم فصلوا السودان عن مصر، ومكنوا العدو من كل شيء. ولقد كان نابليون يقول: لو كان عدد الخونة فى فرنسا نصف ما هو عليه اليوم لكانت هذه الدولة سيدة العالم. وأنا اليوم أقول: لو كان عدد الوطنيين الصادقين فى مصر بقدر عدد المارقين والدخلاء فيها لكانت نجت من عهد بعيد. فالبلاء كل البلاء فى تعيين الضعفاء والبسطاء فى المناصب الرفيعة وإبعاد الصادقين الأكفاء من المصالح والادارات. والمصيبة كل المصيبة فى وجود بعض مصريين لا يفهمون معنى حب الوطن، وآخرين لا يدرون ـ وهم مصريون ـ أن مصر بوضعها الطبيعى لا بد أن تكون حرة مستقلة.

فكيف تريدون أيها المصريون حرية بلادكم وخروج الانكليز من دياركم وأنتم لم تعرفوا واجباتكم الوطنية، ولم تهدوا أوربا إلى الحقائق؟

بل تركتم هذا الواجب الخطير إلى الجرائد الانكليزية تقص علينا من أموركم ما يناقض الحقيقـة ويخالف الواقع . فهى تقول لنا يوما إنكم راضون بالاحتلال ، تدخلون فى بابه أفواجا أفواجا . وتحدثنا يوما آخر عن تعصبكم فى دينكم ، وكرهكم لغير أبناء جنسكم . وتذكر لنا تارة أنكم لستم أكفاء ، ولا يليق بأوربا أن تضع ثقتها فيكم . وطوراً آخر أن الانكليز لو تركوا دياركم لصرتم كالوحوش بل أضل سبيلا ، وضاعت مصالح الماليين ونزلت القراطيس المصرية بعد أن تحسنت وصعدت .

فهل قام منكم وفد جاء أوربا مناديا بالحقائق ، طالبا العدل والانصاف ؟ أمالكم فى بعض العناصر الشرقيـة كالصرب والبلغار وغيرهم عبرة كبرى ؟

واذكروا الآن الأرمن الذين لا يغضون لحظـة عن تأسيس الجمعيات وإلقاء الخطب . على أنهم ما عرفوا من قبـل معنى الاستقلال ، وما ذاقوا للآن حلاوة الوحدة فى العمل ، وعدم تسلط اليد الأجنبية على بلادهم كما ذقتم أنتم حلاوة ذلك فى عهد الأسرة الخديوية الكريمة . وفضلا عن ذلك فانهم ليس لهم حق يخول لهم نيـل مطالبهم . أما أنتم فحقوقكم أكبر الحقوق . وليس لكم سبيل إلى استرجاعها غير نشر الحقائق فى أوربا والاستعانة بها .

هذا خطؤكم فى سياستكم وليس بالعسير عليكم إصلاحه .

أما أنت أيها الشاب المصرى فقد أحسنت عملا إذ جئتنا اليوم تنادى باستقلال بلادك . فأمل خيرا كثيرا وادع أبناء جلدتك إلى الانضمام اليك ليكون صوتكم عاليا يسمع فى كل الأرجاء .

وعقب الكاتب الشاب على هذه الخطبة بعد ذلك بما شاء له أن يعقب وذكر المصريين بأن الخطر يأتيهم من طوائف ثلاث : طائفة الدخلاء ، وطائفة الضعفاء ممن يلون الحكم فى مصر ، وطائفة اليائسين الذين ينسون أن الأمم

الأخرى كانت أتعس منا حظا ومع ذلك جاهدت وثابرت حتى نالت حريتها .

ثم ضرب المثل بالولايات المتحدة وايطاليا واليونان . ثم قال : « وأنتم أيها المواطنون الأعزاء لا تحتاجون لكثير من العناء فى إنقاذ الوطن العزيز إذ أن ذلك من صالح أوروبا . ولا مراء فى أن الدول التى حررت سويسرا وبلجيكا لها فى تحرير مصر فوائد أكبر من فوائدها فى هاتين الدولتين . . . ألا فاجمعوا كلمتكم أبناء الوطن العزيز ، واخلصوا النية فى خدمة مصر ، والقوا وراء ظهوركم الشقاق والنفاق ، واختاروا سبيل الخلاص سبيلكم حتى يشهد لكم العالمون بالكفاءة والاستعداد وحب الوطن . وتروا بعين البهجة والرضاء بعد زمن يسير « مصر للمصريين »

وثارت ثائرة الاحتلال ، وتعددت صحفه أطوارها ، واشتد أوارها ، واندفعت تحرق الوطنيين بنارها ، وخاصة بعد أن قام المجاهد الشاب بهذه الحركة المعروفة التى قدم فيها لمجلس النواب الفرنسى لوحة الفن المعروفة وعريضته المشهورة .وأخذت صحف الاحتلال تسب هذا الشاب وتطعن فيه وفى نواياه وأخلاقه . فاضطر الشاب من جانبه إلى الرد عليها فى مقال بعث به إلى الأهرام فنشر فى الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٩٥ بعنوان

كلمة الى المراسلين

بدأه بقوله :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى * فما زال غضبانا على لئامها

عذرا أيها الأصدقاء الأوفياء إذا قصرت عن القيام بواجب شكركم على دفاعكم عنى أمام طغمة المارقين الذين أقل صفاتهم أن لا وطن لهم ولا خلاق . فانى أترك الوطنية الحقة تشكركم أجل الشكر ، وأدع المحامد تحمدكم على رفيع إحساساتكم وجليل شيمكم ، واستمحيكم العفو إذا

خصصت رسالتى هذه للرد على هؤلاء الخوارج بلسان التاريخ . فان فيه ولا مراء أقوى ساعد على خدمة بلادى العزيزة وتحرير أوطانى المحبوبة .

يلومنى الخصوم على الدفاع عن حقوق ضائعة وحرية مسلوبة ، ويصفون شريف الفعال (بأعمال الصغار) ونعم هذا الوصف . وما الذ مثل هذا اللوم على أذنى . إنه لعمرو الحق ألذ من تغريد الطيور .

أبلغتم أيها الخوارج من التدليس هذا المبلغ ؟ حتى اعتبرتم الفضائل نقائص الخ ، فانى وإن أكن فى أزهر سن الشباب لست ممن يميلون مع الأهواء ، ويقضون الساعات والأيام فى الملاهى والملذات . بل أنا ممن لا تحلو الحياة فى عيونهم ما دام الوطن على خطر ، والأمة على شفير هار . أفاخركم أيها الطاعنون أمام العالم أجمع بأنى وهبت حياتى لأمتى وبلادى . وبدأت أعمالى بعد سن الدراسة بمطالبة أوربا العادلة حقا وإنصافا . أفاخركم ساخرا من طعنكم وقدحكم بأنى أقتفى أثر رجال شرفهم التاريخ لما شرفوا بلادهم ، وأعزتهم أوطانهم لما أعزوها وأعلوا شأنها . . . .

. . . . ألا فانتظروا الحوادث ، واهزأوا ظاهرا وموتوا باطنا مما نحن فاعلون . .

وختم مقاله هذا أيضاً بقول الشاعر

وإذا أتتك مذمتى من ناقص * فهى الشهادة لى بأنى (كامل)

* * *

هكذا كانت هذه السنوات الثلاث التى كاتب فيها الشاب مصطفى كامل جريدة الأهرام من أخصب سنوات عمره نتاجا وأصدقها جهادا . راض فيها الشاب قلمه على الكتابة الصحفية الصحيحة . . وما زلنا نتتبع مقالاته فى هذه الجريدة فنراه يرتفع قليلا قليلا من حيث درجة الحماسة حتى يصل إلى قرب نهايته عندما طفق يخوض فى سياسة الاحتلال ونقد هذه السياسة . وإذ ذاك وجدنا لعبارته انطلاقا كبيرا ، وانسيابا عظيما ، واتساعا

فسيحا ، وطواعية تدعو إلى الاعجاب . كل ذلك فى سهولة لفظ ، وتدفق شعور ، وعذوبة معنى ، وعدول تام عن الكلمات الغريبة ، ومعرفة تامة بالألفاظ التى توحى إلى القراء بأسمى المعانى وأشرفها فى الحقيقة .

وتتلخص السمات التى يتسم بها مصطفى كامل فى هذه المرحلة الثانية من مراحله الصحفية ، وهي المرحلة التي قضاها فى جريدة الأهرام فيما يلى :

أولا — تشبه الكاتب بالقدماء فى الميل أحيانا إلى الاستشهاد بالشعر . وهو ميل أصيل فى كثير من أدباء العربية لم يزل يستأثر بنفوس كبارهم وأعيانهم إلى اليوم . ونرى مصطفى كامل فى مقالته التيعنوانها (البحر) وهى مقالة أدبية أكثر منها سياسية يستشهد فى مطلعها بتسعة أبيات دفعة واحدة ربما كانت من نظمه .

بل إن الكاتب الشاب يحاول فى بعض كتاباته الأدبية أحياناً أن يتشبه بالقرآن الكريم فى أسلوبه ، أو بعبارة أدق يصطنع بعض ألفاظه ، كما فى قوله فى نفس المقالة السابقة يصف ركاب الباخرة متأثرين بدوار البحر :

إن رأيتهم حسبتهم سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنهم فى بحار الدوار تائهون ، لا حراك بهم ولا هم يفقهون .

على أنه من الحق أن يقال إن مصطفى كامل لم يسرف لا فى استخدامه لألفاظ القرآن ولا فى استشهاده بالاشعار . لانه قلما كان يحسن شيئاً من ذلك لضعف موهبته الأدبية من حيث هى .

ثانياً — على أن عبارة هذا الكاتب الشاب أخذت تميل شيئاً فشيئاً إلى السعة والانطلاق .

وبلغ هذا الانطلاق غايته فى المقالات الحماسية التى كانت من آخر ما كتب الفتى في جريدة الأهرام . أعنى منذ المقالة التى عنوانها « حتام تجاهرون بغير ما تضمرون » . وترى فى المقالات التى تليها سهولة فى اللفظ ،

وتدفقاً فى الكتابة، وانسياباً فى العاطفة، وطواعية فى التعبير. وما زال هذا القلم تشتد قوته، وتعظم سيطرته حتى بلغ الغاية من ذلك فى مقالته « الوعود الصريحة »، و « صواعق الاحتلال »

ثالثاً — منذ بدأ الفتى يخوض بقلمه فى ميدان السياسة، وذلك فى أواخر عام ١٨٩٤ ترك عادة قديمة كانت عنده، وهى العناية بكتابة المقدمات الطويلة فى صدر كل مقال. وذلك بالطبع لأن أذهان القراء لا تحتاج إلى مثل ذلك عند قراءة المقالات السياسية.

أما المقالات التى تشبه البحوث الأدبية والاجتماعية فقد تحتاج الى هذه المقدمات.

رابعاً — كان مصطفى كامل يغلب على مزاجه الجد، ولا تعرف نفسه الضحك أو الهزل. ومن أجل ذلك جاءت سخرية هذا الكاتب الجاد سخرية حزينة لايشعر معها القارىء بانفراج شفة الكاتب عن ابتسامة خفيفة أو عريضة.

وانظر اليه يسخر من أحد مكاتبى جريدة التيمس وقد كتب رداً على حديث مصطفى كامل مع الكولونيل بارنج حيث قال :

« لو كان عندنا ذلك الكاتب المصرى لعاقبناه بما يستحق » فعقب عليه مصطفى كامل بقوله. كأنه يريد وضع مادة جديدة فى قانون المطبوعات يقول فيها.

« كل مصرى نقل إلى الجرائد حديثا جرى له مع سيد من الانكليز يعاقب بالطرد أو الأشغال الشاقة ».

ثم انظر إليه كذلك كيف يسخر سخرية حزينة أيضا من رجال الاحتلال فى مقاله المعروف « صواعق الاحتلال » فيقول :

فاذا ناديناها : لبى نداء الشرف البريطانى الرفيع الذى يسألك الجلاء عن الديار، وترك البلاد لأبنائها قالت : —

« ما أقل اعترافكم معشر المصريين بالخير وأولاكم بالسوء . أترغبون فى خروج الانجليز من بلادكم ، وتكفرون بنعمة وجودهم بينكم واحتلالهم أرضكم الخ » .

لا شك أن السخريه الحزينة لا تصدر فى الأعم الأغلب إلا عن رجل عصبى المزاج ، سريع الانفعال . وقد كان مصطفى كامل ذلك الرجل العليل من كثرة العمل ، المحطم الأعصاب من طول الجهاد . وهذا فضلا عن كونه شابا حمل نفسه عبء البلاد كلها قبل أن تتقدم به السن ، ويقوى له كاهل يتحمل كل هذا الجهد .

خامسا — ميل هذا الكاتب الوطنى إلى صوغ الآراء الوطنية فى قالب حكمة جامعة أو جملة رائعة يسهل حفظها والاستشهاد بها كما فى قوله :ـ

« من نظر فى تاريخ البشر لا يجد أمة عظيمة قامت على الأرض ثم تطرق إليها الضعف والاضمحلال إلا بعلة تفريق أجزائها الملتئمة ، وانفصال أعضائها الملتحمة » .

وقوله :

إن الأمة التى لا تتماسك أجزاؤها ، ولا تتلاحم أعضاؤها ، لا تعيش طويلا ولا تبقى إلا قليلا . وما بقاء عقد تناثرت حباته ؟ الخ

ولكن من الحق أن يقال إن ورود هذه الحكم الجامعة ؛ والعبارات الرائعة ، كان قليلا فى هذه المرحلة من مراحل الكتابة الصحفية عند مصطفى كامل . وإنما كثرت هذه الحكم بعد ذلك كثرة هائلة فى خطب الشاب المجاهد ، وفى مقالاته التى كتبها فى المرحلة الأخيرة من مراحل حياته الصحفية ، ونعني بها مرحلة (اللواء) .

سادساً — ميل الكاتب إلى اصطناع الأسلوب الخطابى . وقد بدأنا نعرف له هذا الميل منذ خوضه فى الميدان السياسى . فاذ ذاك مال هذا الكاتب إلى تكرار عبارات بعينها على قاعدة من يقولون (من كرر فقد

قرر) ومال إلى استخدام ضمير الخطاب كأنما يتحدث إلى حفل جامع من الناس حاضرين أمامه .

ومن سمات الأسلوب الخطابي في عبارته هذه كذلك اصطناعه أسلوب الاستفهام عقب كل تقرير في كلامه . واصطناعه القسم من مثل (لعمرو الحق) و (لعمرو الانسانية) و (لعمرو الله) الخ

* * *

و (بعد) فقد كانت لهـذا الأسلوب الذى كتب به الرجل مقالاته فى الأهرام بعض هنات منها على سبيل المثال :

الخطأ فى استخدام (باء البدل) كما فى قوله فى مهاجمة المحكمة المخصوصة نعم نعم — تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية . والصحيح (وابدال المحاكم الاستبدادية بها) وذلك ان (الباء) كما يقول النحاة للترك . فالمتروك فى العبارة هو ما اقترن بها. والمطلوب منها ما لم يقترن بها . قال تعالى

(أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير)

وقوله « فشرعوا فى عزل من أرادوا من الضباط الوطنيين ، واستبدالهم بضباط الانكليز . » والصحيح (واستبدال ضباط الانكليز بهم)

ومنها الخطأ فى استخدام لفظ (بعض) والأصل فى الأسلوب العربى أن يتكرر هـذا اللفظ مرتين . ولـكن مصطفى كامل وغيره من كتاب العصر كانوا لا يعقلون ذلك .

وكان هذا الـكاتب الشاب يخطىء كغيره من الـكتاب فى لفظ (مسرح) فيكتبه مرسح ، ونحو ذلك .

وكثيراً ما لاحظنا فى أسلوب مصطفى كامل حين استخدامه الجمل الشرطية أنه يميل إلى جعل الشرط ماضيا والجواب مضارعا ؛ حتى لقد أصبح ذلك سمة من سمات الـكتابة عنده ، مع أن الأصح هو جعل الشرط والجواب

ماضيين كما فى قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) .

لقد سميت هذه الاخطاء (هنات) وهى فى الحقيقة لا تعدو أن تكون كذلك . فما أهونها بالقياس إلى مزايا الأسلوب عند هذا الكاتب الناشيء الذى كان يعالج بقلمه أدق القضايا السياسية والاجتماعية كما رأينا .

الفصل الخامس

نشأة اللواء

كانت هناك صحف وطنية لها شأنها ولها مكانتها حينما فكر مصطفى كامل فى إنشاء « اللواء » . وأهم تلك الصحف الوطنية اثنتان هما « المؤيد » و « الأهرام » . وكانت « الأهرام » أسبوعية كما كانت أقدم فى تاريخها من « المؤيد » . إلا أن هذه الجريدة الأخيرة كانت أعظم خطراً وأجل شأناً وأبعد صوتاً من بقية الجرائد المصرية الأخرى ومنها جريدة« الأهرام» وذلك فضلا عن أن المؤيد كانت جريدة يومية ، وأنها نشأت فى ظروف خاصة أضفت عليها أهمية خاصة . ومن تلك الظروف أن الوطنيين فى مصر لم تكن لهم إلى ذلك الوقت صحيفة يومية تعبر عن رأيهم، وتكون لسان حالهم ، على حين كان لرجال الاحتلال فى مصر جريدة كبيرة ، هى جريدة « المقطم »

من أجل ذلك قلنا فى كتابنا عن على يوسف « وهكذا ظهرت جريدة المؤيد فى الوقت الصحيح ، واختار لها القدر الرجل الصحيح ، واتخذت لنفسها إذذاك المنهج الصحيح) . (١)

كانت الصحف الوطنية المصرية تفسح صدورها لمصطفى كامل يجول فى صفحاتها بقلمه متى شاء ويشارك فى توجيه الرأى العام فى مصر كيفما شاء .

غير أن الفتى المصرى بالرغم من مشاكله الكثيرة ، وأسفاره العديدة ، وأعبائه الثقيلة ، لم يقنع بذلك حتى فكر فى أن يتخذ لنفسه صحيفة بل

---

(١) الجزء الرابع من أدب المقالة الصحفيه ص ٧٧ للمؤلف

صحفاً كثيرة يكتب فيها ما تمليه عليه قريحته الوقادة ، وقلبه الكبير، ونفسه الطموح إلى مجد الوطن وإعلاء كلمته والظفر بحريته .

ولعل أهم ما يلفت النظر فى صحافة الاحتلال بوجه عام أنها استكملت أسباب النضج ، وأصبحت خليقة بأن تسمى صحافة رأى ، وأنه قد غلب على أصحابها شعور عام بأن الصحافة فى ذاتها أشد لزوما لمصر مادامت فى بداية الشوط من غيرها من الأمم الاوربيـة التى أتم أكثرها بالفعل هذا الشوط .

ولقد جاء تفكير مصطفى كامل فى إنشاء «اللواء» متأخراً بعض الشىء ، لأنه ظهر على مسرح السـياسة المصرية منذ عام ١٨٩٠ ولم يخرج لواءه للناس إلا فى سنة ١٩٠٠ ، ولذلك التأخير أسباب تتصل بظروف هذا الفتى الغيور . ولعل من أهم هذه الأسباب — فيما نعلم — أن مصطفى بقى يعتمد فى المراحل الأولى من جهاده على وسيلة فعالة ، هى وسيلة (الدعاوة) . وقد تحدثنا عن أهمية هذه الوسيلة ، ونوهنا بالشهرة التى عادت عليه وعلى مصر من ورائها كطريقة من طرق الاذاعة . ولـكن بالرغم من عظم الجهد الذى بذله الرجل فى هذا السبيل فانه صدم صدمة قوية فى حادث فاشـودة عام ١٨٩٨ ، وهو الحادث الذى كشف عن ضعف فرنسا أمام انجلتره ، وجعـل الوطنيين فى مصر يدركون خطأ الاعتماد على تلك الدولة المستضعفة .

وازداد المصريون يأساً من العون الذى ينتظرونه من الدول الأجنبية ، وفقدوا أملهم فى عدالتها وقدرتها على الوقوف فى وجه الانجليز ، وذلك منذ رأوا جمود تلك الدول أمام مأساة أخرى ، هى مأساة البوير عام ١٩٠٠ وتركها إياهم أمام طغيان الانجليز ، وتوحشهم فى حرب دارت بينهم وبين البوير فى الترنسفال .

وإلى الأسباب المتقدمة كلها ، يضيف بعض العارفين بسير الحوادث المصرية فى تلك الفترة ، زعمهم بأن جريدة المؤيد أبدت نوعا من الفتور فى الترحيب

بالمقالات السياسية التى يكتبها مصطفى كامل بين الحين والحين .

إذ ذاك لم ير الزعيم الشاب بداً من التفكير فى إنشاء جريدة يومية تظهر باسمه ، وتعبر عن رأيه ، وتحارب جيوش اليأس التى طوقت الشعب المصرى بأسره . فأعد العدة لهذه الجريدة فى عام ١٨٩٩ ، وأصدر العدد الأول عام ١٩٠٠ ، وكان هذا العمل فى الواقع أجل الأعمال التى قام بها مصطفى كامل فى حياته كلها ، حتى لقد أطلق الأستاذ الرافعى عليه اسم (الجهاد الأكبر) ومن يومئذ وجريدة اللواء علم على الصحافة المصرية ، ورمز للحركة الوطنية .

وبقيت اللواء تحمل علم الجهاد فى مصر إلى أن فارق الفتى المصرى هذه الدنيا . واستمرت تحمله بعد وفاته إلى أن قضت الظروف عليها بعد أن أتمت رسالتها الكبرى بنجاح تام.

وأما صاحب اللواء — وقد أصبح يعرف بهذا الاسم منذ ظهرت جريدته تلك — فقد كان أول من ألف الشركات الكبرى للصحافة فى مصر ، وأول من عنى بوصف الحفلات الكبرى بالبرق وتقول « الاكسبريس » فى عدد من أعدادها التى صدرت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ : إن موارد اللواء تقدر بثمانية وثمانين ألفا من الجنيهات . وهو تقدير يجعلها أغنى الصحف المصرية بعد جريدتى الأهرام والمقطم .

مهما يكن من شيء ، فحينما كانت فكرة إنشاء اللواء تداعب خيال هذا الشاب ، وتأخذ بمجامع قلبه بعث إلى مدام جولييت آدم يزف اليها هذه البشرى فردت عليه هذه السيدة بخطاب جاء فيه :

صديقى الشاب :

أسمح لى أن أعرب لك عن الدعوات الصادقة التى أرفعها إلى السماء

---

(١) في أول يناير سنة ١٩٠٠ تلقى مصطفى كامل من مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة هذا الخطاب .وقد أورده أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكراتى في نصف قرن ص ٣٢٠ من القسم الأول الجزء الثاني .

ليهبك الله من لدنه صحة ومجدا ، وقوة فى جهادك الشريف ضـــد أعداء بلادك . وإنى منشرحة الصدر جداً لما علمته من إنك ستنشىء جريدة سياسية (اللواء) لأن ذخائر الخطابة والصحافة لازمة لكل المجاهدين فى ميادين السياسة .

وإنى أهنئك أصدق تهنئة على نجاحك الخطابى . ولست بحاجة لأن أعرفك رأيى فى أعمالك الوطنية فأنت عالم بها علم اليقين . ولو استطعت أن أشرح لك أفكارى بشأن بلادك البديعة لوجدت فيها ما يملأ فؤادك أملا وثقة فى المستقبل . فقد كانت مصر آفة الدول الطاغية . وأثبت التاريخ أنها لم تبتلع الفاتحين لها ، بل قذفت بهم إلى خارجها . ويظهر لى أنها محروسة بأرواح أبنائها القـــدماء ، وأن فى أرض بلادكم سراً جعلها ويجعلها مقدسة عند الناس أجمعين .

إنكم معاشر المصريين لو أردتم أن تكون مصر من أكبر الأمم وأعظمها لكانت كما تشاءون .

ألف تحية وألف سلام للواء الرسول . وليكن لواءك عامل التقريب بين أبناء الدين المحمدى الصحيح وأبناء الدين المسيحى الصحيح . وماذلك بعسير فان هذا التقريب يكون أكبر خطوة فى تاريخ الانسانية والتمدن .

جوليت آدم

* * *

وصدر العدد الأول من اللواء يوم الثلاثاء غرة رمضان المعظم سنـة ١٣١٧ وهو الموافق ٢ من يناير سنة ١٩٠٠ وذلك فى ورقتين من قطـع أقل من طول الجرائد العـــادية فى أيامنا هذه وكتبت فى صدرها هذه العنوانات :

اللـــواء

جريدة يومية سياسية لصاحبها مصطفى كامل بك

اشتراك اللواء

ص		
١٠٠	عن سنة	داخل القطر
٦٠	« ستة أشهر «	«
٣٠	« ثلاثة «	« «

مكاتبات اللواء وجميع الرسائل يجب أن تكون خالصة أجرة البريد باسم صاحب اللواء

إدارة الجريدة بشارع فهمى رقم ١٣ بجوار محطة باب اللوق

ثم جاءت كلمة الافتتاح ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن جعل لواء الوطن أشرف لواء ، وصلاة وسلاماً على نبيه خير الرسل والأنبياء . (أما بعد) فقد علم أبناء الوطن أنى وقفت نفسى من زمن بعيد لخدمة الوطن العزيز ، وإعلاء شأن الملة السمحاء بقدر طاقتى الضعيفة . وإنى ممن يعتقدون إعتقاداً صحيحاً أن الوطن دونه الأنفس والأموال ، وأن أشرف يوم فى حياة الانسان هو يوم يموت فيه لأجل بلاده وفى سبيل سعادتها . وقد بذلت قصارى الجهد فى رفع لواء الوطنية ، وجمع كلمة الأمة المصرية ، وإحياء الشريعة الاسلامية . وما وجدته من التعضيد فى كل أعمالى ، وما تحققته من أميال مصر العزيزة سهل لى إظهار جريدة (اللواء) التى أؤمل أن تكون إن شاء الله تعالى لواء حقيقياً لبنى الوطن الصادقين ، وراية للمجاهدين فى سبيل تقدم مصر والمصريين ، وعلماً لخدمة الاسلام والمسلمين . وجعلت أول عدد يصدر منها مقروناً بهلال شهر الصيام المبارك تيمنا بشهر رمضان ، الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان . ولما كان اللواء فى كل أمة حية هو شارة الوطن والوطنية ، وممثل أسمى العواطف الانسانية ، حيث يرى الانسان

به الأمة والوطن والعقيدة مجتمعة ، وكان مقامه عند الأمم الحية المقام الأول ، ومكانته فى نفوس الشعوب المكانة الشماء ، اليه ينتهى الشرف كل الشرف في صفوف الجيوش . وبه يسمع الجندى إذا نظر اليه فى (ميدان) القتال طبول النصر والظفر إذا ارتفع لواؤها وسمت رايتها . ويجل كل إنسان راية وطنه ولواء بلاده أعظم إجلال ، ويحس بقوة فى الفؤاد ونشوة الدم كلما نظر إلى هذا اللواء الذى يمثل تاريخ الوطن ومجده وفخاره .

ولما نهضت مصر ، وكان من نهضة أبنائها حول لواء الوطن العزيز ، واتفاقهم على خدمته ونصرته ، أحببنا أن نسمى جريدتنا باسم اللواء أملا فى وجه الله الكريم أن يوفقها لجمع كلمة المصريين حتى يقوموا بالواجب عليهم نحو الوطن المقدس .

خطة الجريدة

أما خطة الجريدة فهى خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبيل وأنفعها . خطة الحكمة والاعتدال ، والحكم على الأشياء حكما صادقا ، والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة ، وبين كافة المسلمين من جهة أخرى . والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية ، وترقيـــة التجارة والصناعة ، وإجلال كل من يعمل عملا مفيدا للوطن والأمة والدولة ، واجتناب الشتائم والشخصيات اجتنابا تاما .

ورغبة منا فى تقرير الحقائق ، وتعضيد العاملين والمجتهدين ، سنفتح فى جريدتنا فصلا تحت عنوان : (المنبر العام) ننشر فيه كل مايردنا من الرسائل السياسية والاقتراحات المفيدة للوطن ، والاختراعات الحديثة التى يخترعها أبناء البلاد . وبالجملة يسمح لكل مصرى صادق أن يسمع الأمة صوته . وسيكون كذلك فى الجريدة فصل عنوانه : (أوربا والاسلام) ننشر فيه كل مايكتب فى جرائد أوربا عن الاسلام والمسلمين ، وكل

ماله علاقة بذلك . وفصل عنوانه : (أخلاق وآداب) لانتقاد الأخلاق الفاسدة والحث . . . البلاد الاسلامية . وفصل عنوانه : (بريد العالمين) ننشر فيه أخبار أوروبا وأمريكا وآسيا . وفصل عنوانه (آيات الوطنية) نأتي فيه على قصص الوطنية التي من شأنها بث الروح الوطنية الطاهرة في نفوس أبناء الوطن .

وإننا نؤمل من حضرات الكتاب الأماجد ورجال الأفكار والآراء أن يشتركوا معنا في هـــذه الخدمة الشريفة . فجريدة اللواء هي جريدة الأمة كلها — لا جريدة شخص أو أشخاص.

وإني أســــأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للقيام بالواجب ، ويمدنا بروح من عنده ، ويهبنا قوة وثباتاً ورشداً ، وأن يحفظ للخلافة الاسلامية صاحبها ، وللسلطنة العثمانية سيدها جلالة مولانا السلطان بن السلطان الغازي عبد الحميد خان أيده الله وأدام ملكه ، وأن يديم لمصر في ظل جلالته عزيزها وأميرها سمو خديوينا المعظم عباس حلمي باشا إنه سميع مجيب .

غرة رمضان سنة ١٣١٧ مصطفى كامل

* * *

فصل المحرر في كلمته هذه منهاج الصحيفة ، وأبان عن خطتها ، وأفصح عن أغراضها المختلفة . والناظر في عدد من أعداد اللواء يرى في أولى صفحاتها المقال الافتتاحي وجزءاً من المادة التي عنوانها «أوروبا والاسلام» ، أما الصفحتان الثانية والثالثة فهما في اللواء الحوادث المحليـة والتلغرافات الخارجية مستمدة من شركتي روبتر وهافاس . كما يرى فيهما القارىء أخبـــار التجارة ، وبريد العالمين ، وغير ذلك . وأما الصفحة الرابعة والأخيرة فكثيرا ما تشغلها الاعلانات المختلفة بصورها المتنوعة .

على أن هذا النظام لم يكن متبعا على الدوام ، بل كان المحرر يدخل عليه شيئا من التعديل بين الحين والحين .

وأما أسرة التحرير فقد كانت تتألف على حياة الفقيد من رجال كثيرين نذكر منهم على سبيل المثال :—

أحمد حلمى « صاحب جريدة القطر المصرى فيما بعد » .

وأمين الرافعى « صاحب جريدة الاخبار فيما بعد » .

ومأمون بيومى « من الحقوقيين المعروفين فى مصر » وتوفيق العطار « من الحقوقيين أيضاً » ومحمود سلامه ، ومحمد الكازة ، ومصطفى نجيب « المفتش بالداخلية وصاحب كتاب حماة الاسلام وقد نشره فصولا متتابعة بجريدة اللواء » والشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحمد بك فريد ، وعلى فهمى كامل « شقيق الفقيد » ، وغيرهم كثيرون .

وكانت اللواء تنشر لبعض الشبان من الشعراء قصائدهم الوطنية والاجتماعية . ومن أهم هؤلاء اسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، وأحمد محرم ، والكاشف وغيرهم .

وبعد وفاة الفقيد عام ١٩٠٨ ، رأس تحرير اللواء الشيخ عبد العزيز جاويش ، وأعانه على تحرير الصحيفة كثيرون من محرريها القدماء .

واستمرت اللواء فى الظهور إلى سنة ١٩١٤ . ثم عطلت نهائيا منذ ذلك التاريخ بسبب المؤامرة التى قيل إنها دبرت لقتل الخديوى عباس واللورد كتشنر ومحمد باشا سعيد ، واتهم فيها الأستاذ حسن حسنى كامل « أصغر أشقاء الفقيد » برياسة هذه الجماعة التى حكم على أعضائها بالسجن لمدة خمس عشرة سنة . وكان من هؤلاء الأعضاء إمام واكد وطاهر العربى ومحمد عبد السلام وآخرون .

اللواء بين الحاكم الشرعى والحاكم الفعلى

بقيت العلاقات طيبة بين اللواء والخديوى عباس منذ ظهورها سنة ١٩٠٠ إلى وقت حدوث الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤. وفى هذه الأثناء كانت اللواء لا تدخر وسعا فى تحبيها إليه وتقربها منه، وكانت حريصة دائما على تهنئته بأعياد الجلوس، وأعياد الميلاد، ونحو ذلك من المناسبات المختلفة. وكانت تتخذ من تلك التهانى وسيلة من وسائل توجيه الحكومة المصرية، وبث روح الوطنية فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم.

وما برحت اللواء طوال حياتها تناصب الانجليز العداء، بقدر ما تضمر للعباس الوفاء، وتضرب فى ذلك المثل الأعلى للوطنية المصرية التى تلقت درساً نافعاً من حوادث الثورة العرابية. ومن ذلك على سبيل المثال ما نشرته فى ٩ يناير سنة ١٩٠١ بقلم مصطفى كامل نفسه تهنئة للعباس بعيد جلوسه، وتعريضاً بالنظار المصريين فى نفس الوقت:

« لو فقه نظار مصر وحكامها ما للأمير من الآمال الكبار، وما فى أفئدة الأمة من الحب والاخلاص لذاته، وكانوا ممن قرأوا التاريخ، واعتبروا بعبره، وخدموا الأمير والبلاد بالصدق والوفاء، ونزعوا من أنفسهم كل يأس وقنوط، لكنا اليوم أشركناهم فى التهانى التى نزفها إلى سمو الأمير، وفرائض الاخلاص والاجلال التى نقدمها اليه، ولكان الوطن حباهم في عيد الأمس بخير الشكر والأمتنان. ولكنهم أرادوا وأرادت الايام ألا نخاطب إلا الأمة والامير، وأن يكونوا فى عزلة عنا وإنقطاع فى هذا الوجود. فلندعهم إذا فيما هم فيه، ولنهنىء أميرنا الجليل بأمته العزيزة التى أحبته لصفاته العالية، ونواياه الطاهرة، وعرفت له جهاده فى سبيل حرية مصر واستقلالها، وخيانة الدول والرجال له فى أصعب المواقف وأشد الاحوال خطرا.

وإن للامير فى تهنئة الأمة السلوة الكبرى . فقد تحولت الأنظار إلى التربية والتعليم ، وفتحت المدارس فى كل صقع وبلد ، ودخل الشعب فى طريق جديد وسبيل سعيد ، من دخله فقيراً خرج منه غنياً ، ومن سلكه ذليلا اجتازه حراً .

وإذا ذكر التاريخ حكم العباس على صفحاته فانما يذكر أنه أول أمير أرشد الأمة إلى محبة الوطن ، وأوقفها على مالها من الحقوق ، وما يجب أن تكون عليه من المجد الجزيل والشرف الأثيل . وحسبه ذلك شرفا وفخارا أمام الشعوب والأمراء »

بهذه اللهجة الحلوة كانت اللواء تتحدث عن العباس ، ولكن بلهجة مؤذية خشنة كانت اللواء تخاطب جبار الاحتلال . وإليك مثلا واحداً من مئات الأمثلة على هذه الأخيرة .

نشر اللورد كرومر كتابه أو تقريره السنوى عام ١٩٠٣ فملأه ثناء على الاحتلال ، واستعرض آثاره فى غضون عشرين عاما من حياته فى مصر . فانبرت اللواء كعادتها للرد على هذا الكتاب فى مقال لها عنوانه . (بعد عشرين عاما) جاء فيه :

وقد طالعنا تقرير جنابه مطالعة باحث يطلب الحقيقة ، فوجدناه يطنب فى الثناء على الاحتلال ، كأنه بهذا المديح أو الاطراء يكتب تاريخ حياته فى هذه العشرين عاما ، ويستلفت النظر إلى عمل هو القائم به وهو المشيد لأركانه (١) .

ماذا يريد المصرى أن يعرف من تاريخ خمس قرن مضى ؟

يريد أن يعلم فى أى حال كانت بلاده ؟ ولأى غاية دخلت انكلتره الديار المصرية ؟ وماذا فعلت فيها ؟ فهل أجاب جناب اللورد فى تقريره على الأسئلة التى يسألها المصرى آنا بعد آن ، وتوردها الجرائد الحرة ؟

---

(١) راجع اللواء بتاريخ ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٣

كلا — إنما طاف حول موضوعات راق له أن يمثلها فى أبهى الألوان ، ويزينها بأجمل الأقوال . فرمى الزمن الماضى قبل الاحتلال بكل المعايب ، وخص هذه الأعوام بالحمد والتمجيد ، وفاخر العالم بالمالية المصرية ، وأعلن عدم استعداد المصرى لاستلام أزمة بلاده ، ورغبة بعض المصريين فى ازدياد عدد الموظفين الانكليز ، ونصح الشبان المصريين الذين لم يذوقوا مرارة الحكم الغابر بالتأنى فى الحكم على الحاضر ، والاعتدال فى الثقة بمقدرتهم وكفاءتهم .

وليس هــذا كل مايريد المصريون أن يعرفوه عن حالة بلادهم . إنما يبتغى المصريون أن يعرفوا مستقبل النفوذ المصرى فى الحكومة ، ومصير التربية فى مدارسها ، وحقوقهم أمام الحكام ، والنظام الذى ستسير عليه البلاد لتوطيد أركان الأمن والعدالة فى جميع أنحائها ، ومقامهم فى السودان ، ونصيبهم من الشركة بين مصر وانكلترا .

أعلن الانكليز عند دخولهم هذه الديار أنهم يرمون إلى توطيد عرش الخديوية وتأييد الأمن ، وجعل المصريين أكفاء لادارة شؤون بلادهم الخ . فهل يستطيع جناب اللورد أن يقول إن الاحتلال هو الذى وطد عرش الخديوية المصرية ؟

إننا لا نظن أنه مهما أراد أن يشرح صدور أبناء جنسه يقدر على القول بأن عرش الخديوية وطيد الدعائم والأركان بفضل السلطة البريطانية . ولا نخاله ناسيا أو متناسيا ما جرى من النزاع الشديد بين هـذا العرش السامى وهذه السلطة .

وإذا كان أثر الانكليز فى توطيد السلطة الخديوية ما نراه من موت (الوزارة المصرية) ، وزوال وجودها الحقيقى فى أعمال الديار ، فحق على كل إنسان أن يعلن ســوء سياسة المحتلين ، ويقضى على كل دعاوى الاصلاح والتقدم . لا جرم إذا قال جناب اللورد معنا فى سره ، وان لم

يقل في جهره إن الاحتلال قتل النفوذ المصرى فى الحكومة قتلا كاملا ، وإن الموظف المصرى مهما سمت مكانته ليس إلا آلة فى يد الانكليز ، وإن نظاما هذا شأنه لا يؤدى مطلقاً إلى إظهار كفاءة المصريين . وأنى لهم ذلك وهم بين مصرى علم قبل الاحتلال بتهمة الانكليز له بالقصور والتقصير والجهل ، ومصرى تربى فى حجور المحتلين ، فهو يصنع كما يشاؤون ، ويعلم بغير لغة قومه ، ولا تلقى اليه مبادىء الاستقلال فى الرأى ، والشرف الذاتى ، والمطالبة بالحقوق — تلك المبادىء التى لا يكون الرجل رجلا بغيرها » الخ

وعلى هذا النحو سارت اللواء فى تأييد صاحب الحكم الشرعى فى مصر ، ومناهضة الحاكم الفعلى لها . وقد ضربنا على ذلك مثلا واحداً فقط . وسيرى القارىء أمثلة عديدة أخرى ، سيأتى ذكرها فى موضعها من هذا البحث بمشيئة الله .

* * *

وحين أثرت اللواء ، وبلغت مبلغاً عظيما من هذا الثراء ، فكر صاحبها فى تزويدها بمطبعة من المطابع الحديثة . وكان ذلك عام ١٩٠٧ .

يقول الاستاذ محمود عزمى : « وقد ظلت المطابع الصحفية فى مصر هى المطابع التى تدار باليد إلى وقت قريب . وكانت « الجريدة » لصاحبها لطفى السيد أولى الصحف التى استعملت مطبعة مزدوجة تدار بالتيار الكهربائى من نوع Duplex . وكان دخولها فى المطبعة المصرية حادثا فارقا بين عهدين . وكان ذلك سنة ١٩٠٦ . وقد كان هذا الحادث حافزاً للشيخ على يوسف على أن يدخل إلى مصر ما هو أضخم من الـ Duplex فادخل المطبعة العديدة الدورات Rotetive

وأقام بمناسبة ذلك احتفالا دعا اليه النظار والكبراء والعظماء . وكان ذلك سنة ١٩٠٧ . ثم كان هذا حافزا بدوره لمصطفى كامل على أن يحذو حذو الشيخ على يوسف فيجلب للواء وزميليه الفرنسى والانجليزى مطبعة

Rotetive فى آخر سنة ١٩٠٧ . ولا تزال المطبعتان قائمتين إلى الآن فى مصر ببعض العمل الصحفى الخ » (١) .

* * *

(وبعد) فهكذا كانت اللواء تدرك عظم المهمة التى ألقيت على عاتقها ، وتحس خطورة الواجب الذى عليها نحو أمتها ، وتقود الرأى العام المصرى أحسن قيادة وأحكمها ، مضارعة فى ذلك أكبر الصحف الأوروبية والأمريكية فى ذلك الوقت .

« قامت فى فرنسا مناقشات حول أحسن الوسائل الدستورية لصيانة الحريات العامة ، وتدعيم الأنظمة المستقرة . فنشر (سينيوبوس) أستاذ التاريخ بالسربون مقالا فى (مجلة باريس) سنة ١٨٩٥ ناقش فيها نظرية فصل السلطات كضمان للحريات ، وذكر فيه أن الجماعات قد استحالت فى القرن التاسع عشر بفضل تقدم العلوم والانتاج المادى والتربية والتعليم والصحافة استحالة سريعة لم يكن منتسكيو (صاحب نظرية فصل السلطات) يستطيع أن يحسب حسابها فيما قدره فى بحوثه من تعاليم .

وختم الأستاذ مقاله بأن تاريخ القرن التاسع عشر قد كشف عن وسيلتين فعالتين يستطيع بهما مقاومة ميول التحكم عند رجال السلطة التنفيذية .

أما الوسيلة الأولى فهى أمة ذات تربية سياسية متعودة دقة الأخبار ، ومطالبة ممثليها ، مجبرة إياهم على أن يؤدوا لها حسابا عما يفعلون ، وأن يقيموا وزنا لارادتها الخ

وأما الوسيلة الثانية فصحافة نشيطة عندها علم كل شىء ، حريصة على أن تبحث وتنشر وتنقد كل أعمال الرجال الذين يتولون الحكم ، وتكون ممتعة بالاستقلال بحيث لا يمكن أن يفرض عليها الصمت ، وتكون من

(١) محمود عزمي : مبادىء الصحافة العامة ص ٥٢

الغنى ومن الكثرة بحيث لا يمكن التأثير عليها عن طريق الرشوة . ومع مثل هذه الأمة ، وبمثل هذه الصحافة تأمن الدولة جميع أصناف الاستبداد» (١)

والحق أن هذا وأكثر منه كان بعض ما أدركه صاحب اللواء حين فكر فى إنشاء جريدته لتنهض بهذا العبء الذى وضعه على كاهلها .

وكان للجريدة منذ نشأتها أهداف واضحة هى التي تحدث عنها محررها ، وفصلها فى العدد الأول من أعداد جريدته .

ونستطيع نحن أن نلخص هذه الأهداف فيما يلى :

أولها — تقوية الحركة الوطنية المصرية .

ثانيها — الدفاع عن الاسلام ضد التهم التى تكيلها لها الدول الاجنبية .

ثالثها — توجيه الرأى العام فى شؤون المجتمع المصرى .

ولقد آثرنا أن نخص كل واحد من هذه الأهداف بفصل من فصول هذا الكتاب ، وذلك قبل أن نصف الأسلوب الكتابى الذى دبج به الكاتب الشاب مقالاته القيمة المنوعة .

* * *

ولكن قبل الخوض فى هذه الأشياء يجمل بنا أن نشير إلى زميلتين عظيمتين لجريدة اللواء . إحداهما فرنسيه هى (لتندار إجبسيان) والأخرى إنجليزية هي (ذى إجبسيان ستاندرد) — أصدرهما الشاب المجاهد عقب حادثة دنشواى .

وقد أسس من أجل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار الجريدتين تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه اكتتب بها كثيرون من صفوة المصريين فى ذلك الحين .

وقامت الجريدتان بالواجب الذى أنشئتا من أجله يومئذ ، وهو الدعاوة لمصر وقضيتها فى أوروبا ، وإطلاع الرأى العام الأوربى على حقيقة

(١) المصدر المتقدم ص ٥٤ ـ ٥٥

الاحتلال البريطانى وعلى فضائحه أيضاً.

وكم أرغى اللورد كرومر لهاتين الجريدتين وأزبد ، وراح يزعم لأوربا كلها أن الجريدتين معاً من وحى الخديوى عباس وأنه ينفق عليهما من ماله الخاص ، ورد الزعيم الخالد مصطفى كامل على ذلك بأن نشر أسماء المساهمين فى هذا المشروع العظيم . (١)

وظهرت الجريدتان فعلا فى مارس ١٩٠٧ وكانت الانجليزية تصدر فى الصباح والفرنسية تصدر فى المساء .

---

(١) راجع هذه الأسماء فى كتاب (مصطفى كامل) باعث الحركة الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ٢٠٣

الفصل السادس

اللواء والاسلام والدولة العلية

فى مساء اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٠٧ أقيم إحتفال بفندق الكونتنتال بالقاهرة لمرور ستمائة وثمانى سنوات على تأسيس الدولة العثمانية . وحضره كثير من أعيان المصريين وبعض الأجانب وفى مقدمتهم الكاتب الفرنسى بيير لوتى . وقام صاحب اللواء خطيباً فى هذه الحفلة فحيا الدولة العلية أجمل تحية . ووصفها بأنها حامية الاسلام وأنها دولة العفو والغفران ، ودولة الرحمة والاخاء والحرية والمساواة بين بنى الانسان . ذلك أن السلاطين العظام قد ساروا على الخطة التى رسمها لهم صاحب الشريعة الاسلامية ، وهى خطة الخلفاء الراشدين ، وخطة كبار ملوك المسلمين . فساروا فى أعظم طريق ، وهذبوا أحسن شعب ، وسجلوا أجمل تاريخ .

ثم قال : نسمع الناس فى كل يوم يقولون إن بلاد الدولة العلية بلاد عظيمة فيها المناجم ، وفيها الخصب ، وفيها العقول القوية ، والنفوس العالية السامية . فما هو السبب الذى أوقف سيرها ؟

وقد أجاب دولة البرنس حيدر باشا فاضل على هذا السؤال بقوله الآن « إن السبب فى ذلك الوقوف هو الشقاق والافتراق . فاليوم الذى نسود فيه جميعاً هو اليوم الذى يكون فيه السورى والكردى والتركى والألبانى والأناضولى متضامنين متكاتفين مدافعين عن أمتهم إلى آخر نفس من حياتهم ، ليكن الدين للاتفاق لا للشقاق ، وليكن سبباً للتقدم لا للتأخر .

ولكن إذا كان كل فرد من أفراد الأمة العثمانية يقول (نفسى ولو كان بعدى الطوفان) أو يقول (أنا روسى السياسة أو فرنسوى

السياسة أو انجليزى السياسة ، ولا يقول إننى عثمانى السياسة فلا أمل إذن فى الارتقاء ، لأن هذا الارتقاء لا يكون إلا بايجاد الوحدة العثمانية الخ » .

ثم قال الخطيب : لابد أنكم جميعاً سمعتم فى الشتاء والصيف والخريف والربيع المنتقدين علينا يقولون :

ما بال المصريين يحبون الأمة التركية ، ويتفانون فى تعشقها ، ولا يألون جهداً فى إعلان ذلك الحب ؟

فنحن الآن نجيب على هذا السؤال فنقول :

إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شىء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة شرقية . نحبها لأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمى المسلمين فى الشرق ، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة . فمملكة الخلافة الاسلامية هي فى الحقيقة مملكتنا ، وقبلتنا التى اليها نلجأ ونحوها نتجه . وإذا قصرنا فى واجب نحـوها نكون بلا ريب قصرنا فى أعظم واجب . نحب الدولة العلية لأنها يوم رأت محمد على والعلماء فى مصر يطلبون أميراً يحكمهم باستقلال احترمت تلك الدولة شعـورهم ، وقدرت حبهم للاستقـلال حق قدره ، ومنحت الشعب المصرى إستقلالا لا يزال هو مطمحنا إلى الآن . ولا يوجد فى مصر أيها السادة رجـل يود أن يبيع استقلال بلاده ، تلك البلاد العزيزة التى تضم عظام أجداده وآبائه . ويستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالـكا أجنبياً عنا . فنحن لانود إلا أن نـكون قوة محالفة للدولة العلية . تنصرها وتنصرنا . ونعتز بها وتعتز بنا .

ثم ختم الخطيب كلمته بالهتاف عاليا : لتحى الدولة العليـة ، ولتحى مصر . وردد الحاضرون هتافه .(١)

معنى ذلك أن مصطفى كامل ومعـه الـكثرة الساحقة من الوطنيـين المستنيرين فى مصر إلى ذلك الوقت كانوا يعلنون ميلهم إلى تركيا لأمرين :

---

(١) مجلة العالم الاسلامي العدد ٩٢ السنة الثانية ـ يناير سنة ١٩٠٧

الأول — نظرهم إلى الدولة العلية على أنها زعيمة الاسلام ، وحامية المسلمين ضد الدول الأوربيـة التى كانت لم تزل إلى ذلك الوقت تنظر إلى المسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها نظرة صليبية .

والثانى — اعترافهم بالجميل الذى أسدته تركيا إلى الأمة المصرية حين منحتها استقلالها ، ووافقت على الأمير الذى اختارته بنفسها وهو محمد على .

وقد لا يعنينا الأمر الثانى من هذين الأمرين بقدر ما يعنينا الأمر الأول . وهو نظر المصريين إلى الدولة العلية على أنها زعيمة العالم الاسلامى ولا بد لهذا العالم من قوة يواجه بها زحف الدول الاوروبية المسيحية ، وتوغلها فى البلاد الاسلامية .

والحافظون للتاريخ يعرفون أن هذه الدول الأوروبية كانت منذ دخولها، فى الشرق تحسب حسابا عظيما لهذه الحركات الاسلامية التى يقوم بها هذا الشرق ، والتى قد تؤدى يوماً ما إلى نشوب حرب صليبية تزيد من مشا كل أوربا ، وتضع العراقيـل فى طريقها إلى تنفيذ خطتها الاستعمارية . وذلك هو السبب فى أنه كثيراً ما أوجس السياسيون الأوروبيون خيفـة من حركة (الجامعة الاسلامية) أو تظاهروا على أقل تقدير بالخوف من تلك الحركة . فمنهم من كان يؤكد حدوثها ، ويفسر كل حادثة تحدث فى البلاد الاسلامية على أنها تمهيد لها ونذير بنشوبها . ومن هؤلاء اللورد كرومر نفسه فى كثير من تقاريره وأحاديثه .

ومن السياسيين من كانوا يرون أن الدول الاسلامية أضعف من أن تقوم بحركة (جماعية) . وكان هؤلاء السياسيون يدركون الهدف الأول لكل حركة من تلك الحركات الاسلامية فى كل بلد من البلاد الشرقية . ويرون أن هذا الهدف بعيد فى جوهره عن فـكرة الجامعة الاسلامية ، متصل كل الاتصال بحاجة من حاجات هـذا البلد الشرقى أو ذاك من بلاد الجامعة الاسلامية . وكثيرا ما صدرت جريدة اللواء أو جريدة المؤيد وفى فاتحة

كل منها مقالة من هذا الطراز ترجمت من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية .

وإلى القارىء نبذة صغيرة من مقال نشرته جريدة التريبيون الانجليزية بعنوان (أوربا والاسلام) ، (وذلك فى عددها الصادر فى ٢ يناير ١٩٠٧) وقامت مجلة العالم الاسلامى بترجمته إلى العربية . (١)

استعرضت هذه الجريدة الانجليزية حركات المسلمين فى مراكش ومصر والهند وايران ، ثم قالت :

ففى مراكش أصبح المراكشيون مقتنعين تمام الاقتناع بعجزهم عن مقاومة أوربا ذات الجيوش المسلحة المنظمة ، لأنهم لا يجدون وراءهم قوة تشد أزرهم ، وتسند ظهرهم ، وتقوى شأنهم . وعلى ذلك فالظن بامكان حدوث حركة إسلامية فى مراكش ظن بعيد عن الاحتمال . وجدير بمن يتمسك به أن يرمى بالجنون والطيش . ولو أن بعض ما يقال عن الجامعة الاسلامية كان حقا لاستدعى سير السفن الفرنساوية الأسبانية إلى مراكش هياج العالم الاسلامى كله ، ونهضة المسلمين عن بكرة أبيهم للدفاع عن إحدى ممالكهم ، ولقام السنوسى يدعو المسلمين إلى الجهاد الخ .

وقد دل عدم حدوث شىء من هذا على أن تلك النهضة - وإن كانت موجودة فى الأقطار الاسلامية - فليست بحال من الأحوال موجهة ضد المسيحيين ، وليست حركة تعصب مطلقاً .

أما مصر ففيها حركة وطنية - ولكن هذه الحركة لا علاقة لها بالدين ، وإن كان المصريون مسلمين ، ذلك أن الأمة المصرية نهضت للمطالبة بدستور ومجلس نيابى (كما يقول رجالها المعتدلون) وبوفاء وعود المستر غلادستون (كما يقول رجالها الأشد غيرة وتحمسا) .

وأما فى الهند فالحركة عبارة عن نهوض المسلمين لتأليف جمعية أو اتحاد يحث بعضهم بعضاً على الائتلاف وتحسين حال التعليم . وقد يشتم من خطتهم

(١) المصدر المتقدم

الميل لمقاومة حركة الهندوس المتطرفين . وقد دل برنامج هذا الاتحاد على أن أعضاءه متفانون فى الطاعة لانجلتره ، وأن إخلاصهم وإعتدالهم يعادلان هياج الهندوس وتطرفهم .

وأما فى ايران فالحركة الدستورية قد ازدهرت قوتها فى هذه الأيام الأخيرة . ولكن لايمكن أن تكون لها بالحركتين المصرية والهندية أدنى علاقة لسبب بسيط جداً ، وهو أن دين العجم يخالف دين المسلمين الأصليين مخالفة ظاهرة . (١)

ولسنا نرى فى هذه الحركات كلها شراً موجها نحو المسيحية ، فضلا عن خلوها بالمرة من روح التعصب المذموم .

إن نهضة تلك الأمم ترمى إلى تفسير القرآن بحيث يفهمه الكل . والمسلمون فى الحقيقة الآن يعملون ما كان يعمله المسيحيون للتوفيق بين العلم والدين . وبالجملة فهذه الحركة التى نراها الآن حركة سلمية ، غرضها مسالمة التعاليم الغربية التى هجمت على مصر هجمة واحدة . وغرضها تنقية دين الاسلام مما علق به فى الماضى ، مما كان سبباً فى اتهام أهله بالتعصب ، وبغض الغير . فاذا قيل لنا إن الوطنيين المصريين متعصبون فيكفينا أن نذكر أنهم الآن يجمعون مالا لتأسيس جامعة حرة تسير على خطة جامعة عليكرة الهندية . وهذه الجامعة سوف تحارب التعاليم المتأخرة التى تخرج من تأثير الجامعة المصرية القديمة المسماة (بالأزهر) .

وربما كانت الحركة المصرية حركة سياسية محضة ، لأننا لما دخلنا مصر وجدناها فى يد حكومة دستورية ، ولا يزال تأثير هذه الحكومة الدستورية إلى الآن ظاهراً للعيان . ولكن المصريين الوطنيين يطالبون بالمطالب التعليمية نفسها ، ويحاربون المسلمين من ذوى الأفكار القديمة التى عرضتهم للفشل ولمزاحمة الأجانب المتعلمين ، كالسوريين واليونانيين .

---

(١) ردت مجلة العالم العربي على ذلك بعبارة كتبتها بين قوسين وهي (هذا غير صحيح فكلنا مسلمون)

وقد يمكن أن يقال إن إختلافهم مع وكلائنا سبب إتحادهم مؤقتاً مع تركيا. وقد يمكن أن يقال إنهم بمحاربتهم لأجل تحقيق أفكارهم الوطنية اضطروا كما اضطر من يماثلهم إلى التطرف والحدة. ومع هذا وذاك فان نفوسهم نفوس أحرار. ويستحقون مد يد التعضيد والانعطاف، كما مدت فرنسا يدها لأمثالهم من المسلمين فى تونس» «انتهى المقال»

قرأ مصطفى كامل كل ذلك، وفكر تفكيراً عميقاً فى كل ذلك، ثم كتب يقول:

«الخلافة الاسلامية هى لكل مسلم السلطة العالية التى يستمد منها القوة والنور والهداية، والحصن الحصين الذى يصان به الاسلام، ويعتز بين المسلمون، والقائم بأمرها، والعامل لاعلاء شأنها، فيجب أن يكون موضع إجلال كل مسلم. ويجب مساعدته وتعضيده بالنفس والنفيس ليتم له الغرض الشريف الذى يعمل لتحقيقه ويسعى لبلوغه. وقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الاسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين فسعوا لحل عقدها، وتقويض أركانها، وتدمير بنائها ليسهل لهم استعباد أبناء الدين الاسلامي الكريم، وإمتلاك بلاده وربوعه، والاسترسال فى الاعتداء على الدولة العلية. ألخ»

ومصطفى كامل هو القائل فى كتابه (المسألة الشرقية): (١)

«والحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى؛ وإن فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق» ثم هو القائل:

«ولقد أحس الكثيرون فى أوربا من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام، وأن زوالها — لا قدر الله — يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار، وأن هدم هذه

---

(١) المسألة الشرقية ـ الجزء السابع من كتاب مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا ـ لمؤلفه على فهمى ص ١٦

المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين، وحروب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية »

ومع هذا وذاك فقد كان هناك رأى آخر مخالف لرأى صاحب اللواء فى هذه المسألة . وكان القائل بهذا الرأى هو الأستاذ احمد لطفى السيد صاحب « الجريدة » . لسان حال حزب الأمة . وكان من رأى ذلك الحزب أن مصر لا ينبغى لها أن تربط نفسها بعجلة الأمبراطورية العثمانية، وأن من الخير لها أن تستقل بنفسها عن تلك الأمبراطورية . ولكن يظهر أن هذه الفكرة كانت مبكرة ، وأن صاحبها الأستاذ احمد لطفى السيد كان سابقا للوقت الذى ظهرت فيه بزمن غير يسير . ومن ثم كان الرأى العام المصرى أميل إلى رأى صاحب اللواء منه إلى رأى صاحب الجريدة؛ وإن ظهر فيما بعد أن الأخير كان صائب النظر فيما ذهب اليه . ولا يتسع المجال هنا للموازنة التامة بين هذين الرأيين ، ومقارنة ذلك بالظروف المحيطة بهما . فمكان ذلك الجزء السادس من كتابنا إن شاء الله .

* * *

هكذا نرى أن كثرة المصريين أخذوا يغلفون الشعور الوطنى بغلاف إسلامي . وذلك منذ عهدهم بالأفغانى وعرابى ومحمد عبده ورشيد رضا ثم منذ عهدهم بابراهيم المويلحى وعلى يوسف ومصطفى كامل . وكان كل واحد من هؤلاء يتجه فى حركته الاصلاحية التى قام بها إتجاها إسلاميا لا شك فيه . كما كان كل واحد من هؤلاء يرى فى إحياء الاسلام الوسيلة الوحيدة للنهوض بجميع الشعوب الضعيفة التى تعتنق هذه العقيدة .

أجل كانت (حركة إحياء الاسلام) غالبة فى أول الأمر على (حركة الوعى القومى) وذلك فى كل بلد من البلاد الشرقيــة الاسلامية ومنها مصر . ولكن بقى المصريون على هذه الحال حتى جاء مصطفى كامل وأمال

بكلتا يديه قصبة الميزان ، فرجحت كفة الوعى القومي على كفة الوعى الاسلامي . ولعل ذلك بعض ما عناه الخديوى عباس حيث قال :

« كان مصطفى كامل قد جرد وطنيته من كل رداء دينى . ولكن ظل متدينا ومتعلقا بروح القرآن . أما على يوسف فانه برغم ثقافته الدينية البحتة قد عرف كيف يتخلص من الطابع الاسلامى الذى بقى عند مصطفى كامل . ومع أن الأخير تربى فى أوربا فقد كان يستخدم النظريات الأوروبية كوسيلة ، ولكنه لا يعتبرها غاية فى ذاتها » . (١)

ونحن نرى أن مصطفى كامل مزج — فيما نرى — عقيدته الوطنية بعقيدته الدينية مزجا ليس إلى إنكاره من سبيل . وقد أوضحنا ذلك فى فصل عنوانه « العقيدة السياسية عند مصطفى كامل » . ومن هنا جاءت عناية الرجل بالاسلام والمسلمين كما جاء اهتمامه بالدولة العلية على أنها حامية هذا الدين .

وهنا يجدر بنا أيضا أن نجيب عن سؤال يتردد فى أذهان المهتمين بسيرة هذا الزعيم . وهذا السؤال هو :

ألم يكن فى وسع مصطفى كامل أن يتخلى عن فكرة السيادة العثمانية تخليا تاما ، ويدعو إلى استقلال مصر استقلالا كاملا ؟

أجاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن هذا السؤال فى فصل كتبه تحت عنوان (٢) (مصطفى كامل وتركيا) . ويمكن تلخيص هذا الفصل فى النقط التالية :

أولا — أن مركز مصر الشرعى إلى الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . كانت تحدده معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ . وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر فى أسرة محمد على وبقاء السيادة العثمانية عليها . وحين وقع الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ عصف بالاستقلال الذى تعترف به هذه المعاهدة ، ونزل بها إلى مرتبة

(١) مذكرات الخديوى عباس كما نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

(٢) هو الفصل الثامن عشر من كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٩٠

المستعمرات التى للحاكم العام البريطانى مطلق التصرف فيها . وعلى هـــذا فالتمسك بهذه المعاهدة هو السبيل الوحيد لمطالبة الانجليز بالجلاء ، وعدم التمسك بها يجعل الانجليز فى حل من فرض حمايتهم على مصر .

ثانيا — أنه حين قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنيـــة كان عليه أن يكافح فى جبهة واحدة ضد انجلترا ، لا فى جبهتين ضدها وضد الدولة العثمانية فى وقت معا . أى أن عدم التعرض للسيادة العثمانيـة وقتئذ كان هو الخطة الحكيمة لمن أراد مناهضة الاحتـــلال البريطانى والعمل فى سبيل الجلاء والاستقلال الحقيقى . أما التخلص من السيادة التركية فانه يكون بعد ذلك أمرا فى غاية السهولة . فلقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها فعلا عقب الحرب العظمى وقبول تركيـــا مبادىء الرئيس ولسن سنة ١٩١٨ .

ثالثا — أن للمسألة المصرية شكلا دوليا لا يمكن إغفاله بحال ما . وكل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائما دوليـة ، لأن مركز مصر يقضى على الدول بالاهتمام بها . وقد أخذت الدول تطلب إلى المانيـــا أن تغير خطتها حيال المسألة المصرية ، وتدعوها إلى الاهتمام بها بدلا من إهمالها . وذلك لأهميـة قناة السويس ، وما يكون للدولة التى تضع يدها عليها من النفوذ والقوة . ومن ثم بنيت سياسة مصطفى كامل على ترقب الحوادث الدوليـة ، وضرب بعضها ببعض لتربح القضية المصرية من وراء ذلك .

رابعا — أن فى وسع تركيا — لو أرادت — أن تعقـد مع انجلترا اتفاقا وديا كالاتفاق الذى عقد سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلترا . ويومئذ تزداد المسألة المصرية تعقدا ، ويصعب حلها مدة كبيرة جدا من الزمن .

وعلى ذلك جرت سياسة الزعيم الشاب مصطفى كامل ، وعنه صدرت جميع مقالاته وخطبه وأحاديثه ، ورسالاته ومذكراته .

من ذلك على سبيل المثال ما كتبه الرجل فى اللواء بتاريخ (٦ اكتوبر سنة ١٩٠٦) ردا على جريدة أوروبية حيث قال :

« لقد أخطأ المحرر كثيرا بقوله إننا نريد حرية مصر لاعادتها إلى حكم الأتراك . فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئا على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا أو أفعالنا . ولست أجد لافحام خصومى غير طرح هذا السؤال البسيط : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلتره ؟ أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ؟ . . وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف ، فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة إتباع هذه الخطة ؟ »

وكثيراً ما صرح مصطفى كامل أن سياسته تقوم على محاسنة الدولة العلية ، وعلى التحالف معها لا لشىء إلا لأن فى ذلك الضمان الوحيد من الوقوع فى الكوارث التى تسببها ألاعيب الانجليز من وراء (الكواليس) كما يقول رجال المسرح الحديث .

وقد أوضح الرجل طرفا بسيطا من هذه الألاعيب الانجليزية الخطيرة فى حديث له مع مراسل جريدة النيويورك هيرالد الأمريكية (١) حيث قال :

« إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية — وهى السياسة التى يجرى عليها الوطنيون الصادقون — هي سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها . والتاريخ يعلمنا ألا نتبع حيالها غير هذه السياسة ، لأنه إذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب فى ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا . وقد نجح الانجليز فى التفريق بينهما باتباع سياسة ذات وجهين . فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له يعمل

---

(١) نفس المصدر المتقدم ص ٧٠ ، ص ٢٩٣

لاسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه ، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر محمد على . وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ، ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية . فلما قامت الحركة العرابية رأى الانجليز من تمام المهارة وتوسيعا لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له . فسعوا عند السلطان — سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابى الوسام العثمانى الأول . وكان عرابى يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان فى مصر وقد أوغر هذا الأمر صدر الخديو توفيق ، وألقاه فى أحضان الانجليز . وها هم الانجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان ولكن ما نعهده فى أميرنا الحالى عباس الثانى من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائماً لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية ، وهى السياسة التى فى اتباعها سلامة الكرسى الخديوى وسلامة الوطن المصرى . »

ومع هذا وذاك فلا يبعد فى نظرنا أن يكون الشاب مصطفى كامل فى أولى سنى جهاده مؤمنا بالسيادة العثمانية . ثم عدل بعد ذلك عن هذه السياسة حين ظهر له خطؤها أولا وأنها لا تتفق والرأى العام الذى أصبح له وجود ما بعد ذلك . يدلنا على هذا قول الخديو عباس فى مذكراته :

« وقد انزلق مصطفى كامل فى أثناء قيامه بدعايته إلى إدراك خاطىء للوطنية المصرية . وكان التقرب الذى ينشده مع تركيا يتخذ صورة أقرب إلى التنازل منها إلى الأمل . ولكنه عندما وجد من يفهمه ذلك استبدل بسياسته التى كانت تركية الطابع إلى حد كبير إدراكا وطنيا سليما . وقد تطور ببراعة فائقة جعلت تلاميذه يتبعونه دون أن يفطنوا إلى الخطأ الأول (١) » .

---

(١) راجع جريدة المصري بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

يجمل بنا بعد كل ذلك أن نلقى نظرة عامة فى أعداد اللواء لنعرف الحيز الذى شغله الاسلام بهذا المعنى من صفحاتها ، ونرى الطريقة التى عرض بها صاحب اللواء أفكاره الاسلامية فيها ، ثم نتبع هذا كله بمقال أو اثنين على سبيل المثال .

أما عن هذا الحيز الذى شغلته المقالات الاسلامية فى صحيفة اللواء فان نظرة عجلى إلى أعدادها فى السنوات الثمانى الأولى من حياة الرجل تدلنا بوضوح على أن المقالات ذات الطابع الاسلامى كانت هى السائدة على الصحيفة فى العامين الأولين من حياتها على الأقل . ثم أخذت هذه المقالات تقل شيئا فشيئا ، وتزداد عناية الصحيفة بالمقالات الوطنية والاجتماعية شيئا فشيئا ، حتى كانت السنة الأخيرة من حياة اللواء على عهد مؤسسها مصطفى كامل فوجدنا أن النسبة بين الاسلاميات من جهة والوطنيات من جهة ثانية كالنسبة بين عشر مقالات للنوع الأول ومائة مقال للنوع الثانى

ففى السنة الأولى نجد مقالات

سلامة الدولة العثمانية — اتحاد كلمة المسلمين — مصلحة الدولة العلية — أوروبا والاسلام — من الرجل العليل — ناموس الترقى فى الاسلام — كيف يقوى الاسلام من ضعفه — كلمات فى سبيل الاسلام — كيف يحيا الاسلام — كيف قامت الدولة العلية — المدنية الغربية والاسلام — سلامة الاسلام — مسألة بلغاريا — قوة الخلافة الاسلامية — أخبار مؤتمر اسلامي — أعداء الاسلام — فرنسا والاسلام — مصر والاسلام — كيف كانت حالة العالم لو لم يفتحه المسلمون — السر فى بقاء الدولة العلية الى ما شاء الله — الأسلام والتعصب عدوان — من الجانى على الاسلام والمسلمين — بم نقيم البرهان على سمو الاسلام — شكوى المسلمين فى البوسنه والهرسك — مسلمو البوسنه والهرسك — دعوة عامة إلى المسلمين — الحركة الاسلامية الموهومة — كلمات فى سبيل الاسلام — عيد الخلافة والاسلام — قوة الخليفة بين المسلمين — الاسلام أمس واليوم —

مصر والدولة العلية — الخلافة والاسلام — هل ينشط الاسلام — بقاء الدنيا موقوف على بقاء الدولة العليـة — تأثير الأراجيف على عقول المسلمين — كيف يحيا الاسلام — الروح الجديدة فى الاسلام — أوروبا وتهمة التعصب الديني — المسلمون والاسلام — سياسة فرنسا فى الجزائر — العروة الوثقى — الاسلام والامير عبدالرحمن — الدين والجامعة — كيف تغلب الغرب على الشرق — المسلمون فى الصين .

ثم فى السنة الثانية نجد مقالات :—

الدولة العلية ومسلمو الصين ـ أوروبا والاسلام ـ المسلمون فى جاوة ـ شكوى المسلمين فى تونس ـ السلطنة والدين والاستعمار ـ المسألة الصينية والاسلام ـ الاسلام فى افريقيا ـ الاسلام دين التسليم ـ شكوى إلى أمير المؤمنين ـ الحالة فى البلقان ـ حديث مع أمير الجبل الأسود ـ الاسلام فى الصين ـ المرأة المسلمة ـ مصلحة الاسلام ـ حركة علميـــة بين المسلمين ـ مقابر المسلمين ـ يقظة أفكار المسلمين ـ تأثير الخـــلافة على المسلمين ـ المسلمون فى الجزائر — تأثير دعوته صلي الله عليه وسلم — مسألة اليوم فى الدولة العلية — أثبات ضعف الحكومات الاسلامية — تأثير الدين على الأخلاق المحالفات الأوروبية فى البلقان — دعوا تركيا والاسلام — ماذا يؤمل الاسلام — التبشير والاسـلام — الارشاد للدين (كلمة لمشيخة الأزهر) — الروسية والدولة العلية — الخلاف بين الباب العالى وفرنسا — تركيا وفرنسا وجلالة السلطان — بين المسلمين — أوروبا والاسلام — مستقبل الاسلام — حالة المسلمين المسلمون فى الصين — القضاء والقدر — اوروبا والاسلام — هل ينشط الاسلام مستقبل الاسلام .

وفى السنة الثالثة من حياة اللواء نجد مقالات : —

مصالح الدولة والاسلام — الانشاء والخطابة فى الاسلام — إلى بنى الاسلام مستقبل الاسلام — المسلمون فى البوسنة — رجوع أوروبا إلى الاسلام —

نابليون والاسلام — الوطنية العثمانية — الاسلام بالسلطان — الجناب العالى والاسلام — التحالف الثلاثى والحالة فى البلقان — الاتحاد الاسلامى — مسألة الخلافة — مسلمو البوسنة والهرسك — سلامة الدولة العلية — شكوى مسلمى كريد — انجلتره والاسلام — الشيخ سنوسى بالدين سخيا — المسلمون فى زنجبار — المسلمون فى الروسيا — غاية أوروبا من الاسلام — الدولة العلية وبلغاريا — فرنسا والاسلام — اعتراف مسلم — أوروبا والاسلام — المسلمون والاسلام — أوروبا والاسلام .

وفي السنة الرابعة : —

رجوع أوروبا إلى مبادىء الاسلام — الانجليز والاسلام — الانجليز وجهود المبعوثين المسيحيين — الدين والسياسة — حقوق المسلمين فى مصر — مولد النبي عليه الصلاة والسلام — مسلمو الجزائر — ما معنى التعصب — العلم والاسلام — قوة الخليفة — الاسلام والاستقلال — كيف ترفع راية الاسلام — عيد الاسلام والمسلمين — بين أمريكا ودولة الاسلام — الجامعة الاسلامية — اوروبا والاسلام — غاية اوروبا من الاسلام — سفينة الاسلام — الوحدة الاسلامية — تعصب الصليب ضد الهلال — الاسلام . الاسلام — اضطهاد الصليب للهلال — مصلحة الاسلام — مسألة مراكش — انجلتره والاسلام — استيلاء الانجليز على بلاد النيجر الشمالية الاسلامية — (أيها الحكام سارعوا الى رد هذا الاعتداء عن الاسلام) — فظائع هولندة ضد المسلمين — هولنده والمسلمون

هـذا — وقد امتازت تلك السنة من حياة اللواء بكثرة الكتابة فى المسألة المقدونية ، وهى فرع من فروع المسألة الشرقية ، حتى بلغ عدد المقالات التى كتبت فى هذا الموضوع أكثر من خمسين مقالة . فلا حاجة بنا إلى ذكر عنواناتها .

وفى السنة الخامسة : —

الاسلام : ماضيه وحاضره — انعطاف المسلمين نحو الدولة العلية — استبداد

النمسا بمسلمى البوسنة والهرسك — لكم دينكم ولى دين — رفع دفاع المؤيد (عن مجلة بشائر الاسلام الطاعنة على دين الاسلام) — الحروب الحاضرة والاسلام — المسلمون فى روسيا — المراكش فى أمان — مسلم صينى — فوضى المبشرين — نجوى المسلمين لأمير المؤمنين — ارزاء المسلمين — المسألة المراكشية — مستقبل الاسلام فى العالم — المجاهرة بالالحاد (ونكران الأديان) — ثلاثون عاما فى الاسلام — طريق من الورد وطريق من الشوك: أيهما تسلك الدولة العلية — الأسطول الأسلامى — مصر والشرق والاسلام — مستقبل المسلمين — الخلافة والمسلمون — لاعانة الاسطول الاسلامى — مصر والاسلام واليابان — الخلافة والانجليز — المسلمون فى روسيا

وفى السنة السادسة: —

ممالك الاسلام — فرنسا فى مراكش — اللغة العربية ودولة الاسلام — المسلمون فى روسيا — فرنسا والاسلام — الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية — مستقبل مراكش — الاسلام والاتحاد — المسلمون يأكل بعضهم بعضا — الغربيون والممالك الاسلامية — المسلمون فى تركستان — بين مسلمى الهند — الأزهر والاسلام — مسلمو الصين — الشعور الاسلامى حيال عيد الجلوس السلطانى — رأى المسلمين فى المسألة المراكشية — مسلمو الصين — أنفع سياسات المسلمين — الأسلام فى اليابان — السياسة الفرنساوية والعالم الاسلامى — الامبراطور غليوم والاسلام — التنصر بالقوة — أوروبا والدولة العلية — لماذا تناهض أوروبا الدولة العلية — اتفاق دول وأمراء الاسلام — عداوة انجلتره للاسلام — الشعور الاسلامى — الازمة المقدونية

وفى السنة السابعة: —

الشعور الاسلامى — فى سبيل الاسلام — الدولة العلية وانجلتره — مسألة الخلافة العربية — المسلمون فى الجزائر — المسلمون المصريون — المسلمون والاحتلال — الامبراطور غليوم والاسلام — مسلمو الهند ومسألة طورسينا —

الجامعة الاسلامية — فرنسا والاسلام — عمل إسلامى جديد — الجامعة الاسلامية — بريطانيا والاسلام — انجلتره والجامعة الاسلامية — حركة الجامعة الاسلامية فى مصر — الجامعة الاسلامية — بريطانيا العظمى والاسلام

وفى السنة الثامنة :—

الجامعة الاسلامية والمسلمون فى شمال أفريقيا — الممالك الاسلامية والدولة العلية — المانيا والاسلام — نهضة الاسلام — نظرة فى تقرير اللورد كرومر من الوجهة الدينية — الشرق فى الاسلام — الجامعة الاسلامية — يقظة الشعوب الاسلامية — أصوات مرفوعة إلى جلالة أمير المؤمنين.

* * *

تلك هى مجموعة المقالات التى نشرتها اللواء فى موضوع المسلمين والاسلام . ولا يفوتنا أن نضيف اليها تلك المقالات التى نشرتها هذه الصحيفة بعنوان (حماة الاسلام) ، وبعنوان (بم نقيم البرهان على سمو الاسلام) وهى نوع من الدفاع عن الجانب الروحى فى العقيدة الاسلامية ، وبعنوان (عيد الخلافة والاسلام) وهى مجموعة التهانى التى درجت اللواء على أن تبعث بها إلى السلطان العثمانى كل عام فى عيد ميلاده ، وبعنوان (بريد الاسلام) وفيه تعنى اللواء بأخبار المسلمين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى.

* * *

أما الطريقة التى عرض بها صاحب اللواء كل هذه الأفكار فكثيرة. منها التقرب إلى بعض الشخصيات الأوروبية الهامة التى اشتهرت بميلها إلى الشرق والاسلام واستكتابها أحياناً فى هذه الموضوعات . ومنها الافاضة فى سير عظماء الاسلام وتناول هذه الشخصيات بالعرض والتحليل ليعرف المسلمون ماضيهم ، ويدركوا شيئاً من جوانب العظمة الحقيقية فى كل واحد من أولئك الرجال . ومن ثم مضت اللواء تنشر مقالات مستفيضة فى حياة الرسول ، وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة القواد العظام كخالد بن الوليد

وأبى عبيدة بن الجراح، وحياة الصالحين من الخلفاء الأمويين، فالخلفاء العباسيين. ثم جمعت هذه المقالات كلها فى كتاب (حماة الاسلام). (١)

* * *

بقى أن نقرأ لصاحب اللواء بعض النماذج على سبيل المثال ومنها مقالة له بعنوان:

اتحاد كلمة المسلمين (٢)

... على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب لوجدناها جنت على الاسلام والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فمم يشتكى المسلمون؟ نشتكي معاشر المسلمين من أن أوروبا المتحضرة لا تعاملنا كما يجب أن يعامل بنو الانسان. نشتكى من أنها دخلت بلادنا بدعوى الاصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى. نشتكى من أنها تكرهنا كراهية دينية شديدة، وهى المنادية بمبادىء العدل والحرية والمساواة. نشتكى من أنها تقصد إبادتنا كما تباد الحيوانات الضارة، وكما أبيد الهنود فى أمريكا وهم أصحاب البلاد الأولون. نشتكى من كل أعمال التمدن والمدنية، وبودنا لو كنا غير شاكين. هذا مانشتكى منه فمم تشتكى أوروبا؟

أتشتكى من أننا سلمنا إليها بلادنا، ووثقنا بأقوالها ووعودها. أتشتكى من أنها سادت علينا بارادتنا، وهضمت حقوقنا، واستنزفت أموالنا، وضيقت علينا فى حياتنا؟ أتشتكى من أننا نحسن للمحسنين فى الشرق، ونعدهم إخوانا لنا؟ أتشتكى من اعتدالنا وتسامحنا وهى معنا ظالمة قاهرة. هذه مصر أعز بلاد الاسلام على المسلمين، وأرقاها فى المعارف

(١) صاحب هذه المقالات هو أحمد بك نجيب

(٢) اللواء: العدد الخامس في ٧-١-١٩٠٠

والآداب قد سارت فى طريق المدنية الغربية، ووثقت بالأوروبيين أكبر ثقة، وعين أمراؤها من بنى الغرب حكاما وسواسا، وفتحوا أبوابها وأبواب السودان لكافة الأوروبيين بما فيهم المبعوثون الدينيون.

فماذا كانت نتائج هذه الخطة؟ وماذا جنت مصر من ثقتها بالغرب وأهله؟. كانت نتيجة خطتها وثقتها بالغرب وأهله أنها صارت فى قبضة الاحتلال البريطانى ضائعة الحقوق باكية، مجدها الشامخ واستقلالها المحبوب.

فيا كتاب أوروبا وسواسها: قبل أن تحملوا على الدولة العلية وتسموها دولة الهمجية والتعصب إسألوا أنفسكم بالله عليكم: هل يلاقى المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر معشار ما يلاقيه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية؟ وهل تعتبر أوروبا المسلمين الخاضعين لها كأبنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين؟ إذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالسلب فما بالكم يا كتاب المدنية الغربية تزيدون المسلمين بلاء على بلائهم؟ وما بالكم لا تعرفون للحقيقة مقاما؟ ولا تدركون للفضيلة الصحيحة إحتراما؟ اللهم إن كل المسلمين فى كل أنحاء الأرض متألمون لما أصابهم، آسفون على ضياع استقلالهم، ساعون فى تحسين أحوالهم. ولكن أى خطر على أوروبا من ذلك؟ نحن نصرح فى كل كتاباتنا وخطبنا وأعمالنا بأن الاعتدال أول مبدأ للمسلمين، وأن الهيجان والاضطراب والفتنة أشد خطرا على سلامتهم من كل الأخطار.

* * *

وإلى القارىء نموذجا آخر من مقالات صاحب اللواء فى موضوع الاسلام بعنوان:

اوربا والاسلام

أو

كيف تغلب الغرب على الشرق ؟ (١)

« إذا وقف الشرقيون امام التاريخ وتمثلوه شيخاً كبيراً هرما حكيما لبيبا خبيرا بالأمم وحياتها وسبب مجدها وعلة شقائها ، وسألوه هذا السؤال : كيف تغلب الغرب على الشرق ؟ لأجابهم ولا محالة : تغلب الغرب على الشرق بخيانة أبناء الشرق . نعم لا تلوموا أيها الشرقيون الغربيين إلا بعد أن تلوموا أنفسكم ، ولا تسخطوا على المسيطرين من الأجانب عليكم إلا بعد أن تسخطوا على حكامكم والخائنين منكم . فداء الشرق خيانة رجاله ، وقادة زمامه . ودواؤه عدم استسلام أممه لمن يلقى بهم فى هاوية الدمار والفناء ويحكم فيهم الأجانب والأعداء .

قرأ القراء بمزيد الأسف رسالة ذلك المسلم الفاضل الذى أراد أن يشرح لهم آلام الشعب الاسلامى فى « البوسنه والهرسك » وأجمعوا جميعاً على ان آلام المسلمين واحدة ، سواء كانوا فى مشارق الأرض أو فى مغاربها ، وأيقنوا ان علة العناء والبلاء متحدة ، الا وهى خيانة الرؤساء والكبراء ! ترى العلماء وهم الذين كان يجب أن يكونوا ورثة الأنبياء صلاحا وتقوى وايمانا أصبحوا آلات لحكام النمسا ضد أبناء دينهم المسلمين . فبهم استطاعت الحكومة النمساوية أن تخرب مدارس المسلمين ، وتقلب التعليم الاسلامى ، وتقطع الصلات والعلائق بين الأهالى وجلالة متبوعهم الأعظم . والكبراء هم قادة الأمة فى كل بلد أصبحوا كذلك فى البوسنه والهرسك عمالا للنمساويين ضد دينهم ووطنهم وقومهم . فبأى وجه نلوم الغربيين والداء منا ، والبلاء مدبر بأيدينا ، ونحن علة الشقاء ؟ ماذا نقول للغرب إذا

---

(١) اللواء (الخميس ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠)

قال لنا ساسته وحكامه: إنما نحن قبضنا على أزمة دياركم بارادة كبرائكم وعظائكم وأصحاب الشأن منكم؟ نعم إن الغرب بالغ فى الاحتيال، ولكن اللوم الأكبر على الذين قبلوا أن يكونوا مخدوعين خائنين خادمين لاهوائهم الذاتية بدلا من أن يكونوا خادمين لأوطانهم وديارهم!

هذه مصر زهرة الاسلام وكوكبه الوضاء كيف تغلبت انكلترا عليها؟ وكيف تمكنت سطوتها فى إدارتها؟ وبم تمت لها الكلمة فى أرض الفراعنة ومهد العلوم والعرفان؟ لم تتغلب إنجلتره علينا وتتمكن سطوتها فينا، وتتم كلمتها فى بلادنا إلا بمعونة الخائنين منا، المستسلمين لها الجاهلين لحقوق البلاد ومصالحها، الذين باعوا ويبيعون دينهم ويبيعون وطنهم وشرفهم بثمن بخس دراهم معدودة ينقدونها فى آخر كل شهر.

عرف الغربيون خبايا الأمور فى الشرق، واكتشفوا ما استتر فى الضمائر، وأيقنوا ان للخيانة فى بلادنا أنصارا كبارا فعمدوا اليهم واتخذوهم أصدقاء أصفياء، واستعملوهم آلات قاطعات لتدمير الاستقلال الوطنى، وهدم المجد الأهلى فأفلحوا، وكيف لا يفلحون والأمة تحسب هؤلاء الخونة قادة لها، بهم تقتدى، وحكاما مرشدين بهم تسترشد وتستنير.

وأذكر انى لم اقرأ فى حياتى كتابا اثر على فؤادى واستبكانى على حال الاسلام والمسلمين مثل كتاب ألفه رجل فرنساوى كان دخل بحيلة على المرحوم (عبد القادر) بطل الجزائر الشهير، وتمكن من التقرب منه حتى سهل لقومه الفرنساويين التغلب على الجزائريين، والانتصار على قائدهم الهمام. قال ذلك الكاتب فى كتابه بعد كلام طويل عن طرق استعباد الغرب للشرق، واخضاع أوربا للمسلمين ما معناه:

« إن السبب الأكبر فى قيام الجزائر ضدنا واستمرار جهاد أبطالها لانقاذ بلادهم من أيدينا هو أننا عندما دخلناها هدمنا حكومتها الأهلية، ووقفنا أمام العرب موقف الأعداء. الألداء على أننا لو كنا سلكنا مسلك

الرشد والحكمة ، وأبقينا الحكومة الجزائرية واستعملناها آلة لنا ، وستاراً نختفى وراءه لكنا أخضعنا البلاد بواسطتها فى أقرب زمن ، وحقنا دماء جنودنا الاشداء . وقد تنبه حكامنا لهذه الحكمة الساطعة فعملوا بها فى الديار التونسية ، وأبقوا حكومة الباى وعضدوها بالقوة واختفوا وراءها يحركونها كما يريدون ، والأمة تظن أنهم ليسوا إلا ضيوفا ، وإن الأمر كل الأمر بيد الباى ورجال حكومته ، حتى مضت الأيام والسنون وتمكنا من البلاد ورسخت أقدامنا فيها بدون أن نسفك دم أحد من جنودنا . فخير وسيلة لاستعباد الاسلام واخضاع المسلمين هى أن تحفظ الدول الأوربية شكل الحكومات الأسلامية وتختار لها رجالا أدنياء النفوس ضعاف الهمم فاقدى الشعور يخدمونها فى أغراضها ، ويكونون آلاتها ضد أممهم ! ! ! »

وهذا كلام حققته الحوادث وأيدته الأيام ، ونصيحة عملت بها أوربا فافلحت وفازت على المسلمين بفضل الخونة منهم المتربعين فى الوظائف السامية المقيمين فى القصور العالية الفخيمة ! فليسخط المسلم على أخيه الخائن قبل أن يسخط على الاجنبى ، وليعمل بحوله وقوته على ابادة هذا النوع المدمر للمجموع ، الهادم للاستقلال ، المتاجر بالأرواح والنفوس والأعراض والثروة والحياة ، وليعلم أن يوما تتخلص فيه بلاد الاسلام من الخونة الأدنياء هو يوم تفوز فيه على أعدائها ، وتسترجع مجدها وعزها ، وتعيد ما كان لها من قوة وشأن وسلطان »

مصطفى كامل

* * *

وفى الدفاع عن الاسلام وحضه على تحصيل العلوم الحديثة كتب صاحب اللواء يقول

العلم والاسلام

٢٢ يوليه سنة ١٩٠٣

لا يجد المسلم فى حكم الغرب على المسلمين والاسلام شيئاً يوجعه ويؤلمه مثل رمى ديننا الكريم بالابتعاد عن العلوم والمعارف، وعدم دعوة أبنائه إلى اكتشاف ما انطوى عليه هذا العالم، وإظهار ما خلق الرحمن للانسان فى أجل مظاهره وأجمل مناظره، واستخدام الطبيعة وكنوزها العديدة فى سعادته وزخرفة الحياة الدنيا. ونراه على الدوام عاجزاً عن إقناع الغربيين بالدليل المحسوس بأن هذا الدين دين رقى وكمال وحضارة عالية ومدنية سامية وسعى وراء العلم أنى كان، لأنهم يحاجونه بقولهم «وإذا كان كذلك فما بالنا نرى المسلمين فى تأخر واضمحلال فى كل بلاد الأرض؟»...

يحار الانسان حقيقة فى سكوت هؤلاء المتعلمين الذين يشكون ويألمون ويبصرون ويحكمون ويقارنون بين ما نحن فيه وما هم عليه وبين ما نحن سائرون إليه وما هم وراءه يسعون، ثم تراهم لا حراك بهم ولا همة تدفعهم لعمل يرفع شأن أوطانهم. ونحن وغيرنا نعذر الجهلاء لأنهم لا يدرون للعلم مزية، ولا لانفاق المال فى سبيل الوطن معنى. ولكن ما عذر المتعلمين المهذبين، والغرب ينهب الزمان نهبا وراء المجد والثروة. وهما لا يأتيان فى هذا العصر بغير استعباد الأمم التى عادت العلم فعاداها الاستقلال.

نرى الغربيين ينتفعون بكل شىء فى بلادهم وهى دون بلادنا فيما وهبه لها الخالق من نعم وخيرات طبيعية. فهذا نهر «الرون» اتخذ منه السويسريون بقوة العلم قوة كهربائية تنير مدينة جنيف ونواحيها وتنقل الماء العذب إلى مسافات بعيدة. والمتفرج على الآلات الضخمة التى تعمل هناك ليلا ونهاراً لخلق الكهرباء من الماء، وتقدر قوتها بستة آلاف حصان، يندهش من هذه

المقدرة الهائلة ، ويظن أن الانسان فى هذه البلاد غير الانسان عندنا ، ويتحسر على شلالات النيل وقوتها الضائعة ، والبسفور وتياره العظيم ، ويندب دياراً يميت الجهل ، أهلها ويحل فيها الفقر والشقاء محل السعادة والرخاء .

ومضى الكاتب فى سوق الأمثلة حتى قال :

تعودنا معاشر الشرقيين أن نلوم حكوماتنا فى كافة الظروف والأحوال . وإنى لا أبرئها من وصمات ومعائب ونقائص ، ولكن الانصاف يقضى علينا أن نقول إننا لانفضلها . لأن الحكومة التركية مثلا منحت بعض أبنائها امتيازات باستخراج معادن مهمة فى بلادها ، فأسرعوا ببيعها للأجانب ، ولم نر واحداً منهم اهتم بانشاء شركة ذات أسهم لاستخراج المعدن الذى تنازلت الحكومة عنه ، وحصر فائدته ومكاسبه بينه وبين بنى جنسه .

وعندى أن علة العلل وداء الأدواء هو عدم تربيتنا من الصغر على حب الاجتماع . وإرشادنا بالتاريخ وحججه الدامغة إلى أن الدين الاسلامي يبعث فى النفوس الحمية والاقدام . ويحبب إليها السعى وراء العيش والجد والاعتماد على العلم والمعرفة .

لعمرى ان مصدر هذه البلايا التى نسبح الآن فى بحارها هو استبداد الحكام والامراء السالفين ، وقعود العلماء عن مقاومتهم ، وردهم إلى العدل والحكم بين الناس بالشريعة المطهرة والخضوع أمام الحق ؛ حتى ماتت الفضائل ، وتجردت النفوس عن حب المعالى ، وتخلت عن صفات الرجولة والهمة وانقلب نظام العمران فصار الحاكم مالكا لمحكوميه ، والأمة متاعا يتجر فيه .

أى ديناميت فى العالم مدمر للأمم والدول مثل سدل حجاب كثيف على أعين الجماهير ، ومطاردة العلم وإحلال الجهالة محل أنوار العرفان ؟ أى

خلل فى طريق إحياء أمة مثل الفصل بين علمائها والعلوم العصرية ، وإقامة سد منيع بين الناشئة العاملة والعلوم الدينية ؟

نرى العلماء نابغين فى علوم الدين ، ورجال الناشئة نابغين فى علوم الدنيا . كأن هذه العلوم لا ترتبط بتلك . على حين أن كل قسم لا يصلح وحده ولا يفيد فائدته إلا بالاتحاد مع الآخر . وفى هذا التفريق تدمير لقوة العلم والدين معا . إذ كيف لا يخجل العالم إذا سئل عن تلك القوة الباهرة ـ قوة الكهرباء التى تسير القطارات وتنير المدائن وتستخدم فى شفاء الامراض وكان جاهلا ، ولا يخجل رجل من الناشئة سواء كان طبيباً أو مهندساً إذا سئل عن أمر من أمور دينية وكان جاهلا ؟

لا نزاع فى أن هذه الطريقة العوجاء طريقة الفصل بين علوم الدين والعلوم العصرية ضرراً على حياة الأمة الاسلامية فى الحال والاستقبال وخطرا يهددها على الدوام . والرجل الذى يوفق لانشاء كلية عالية للجمع بين هذه العلوم يخرج للاسلام رجالا هم منقذوه ورافعو لوائه بلا جدال . . . ثم قال .

لا حياة للمسلمين والاسلام فى هذا المعترك المخيف ولا سبيل لوقوفهم أمام هذا السيل الجارف سيل الغرب وأهله إلا بالعلم . فليتنبه إلى هذه الحقيقة الراغبون فى الخروج من الأسر والاستعباد والاضمحلال المشين وليعلموا أن إيجاد النظامات الجديدة الحية أسهل وأيسر من تقويم النظامات المختلة المتداعية ، وأن البناء الذى يجتمع فيه المسلمون ليعيشوا عيش الأحرار السعداء الأقوياء لا يكون أساسه سوى العقيدة ودعائمه غير العلم الصحيح . وإن الابتعاد عن هذه الحقيقة إضاعة للوقت النفيس ومجلبة لعار فوق عار ومدعاة لزيادة استخفاف الغربيين بالمسلمين والاسلام !

* * *

وأخيراً نختم هذا الفصل بنموذج من إسلاميات صاحب اللواء بعنوان :

مستقبل الاسلام

إذا كان علماء الغرب وساسته يشتغلون بمستقبل الاسلام . فمن أقدس الفروض على عقلاء المسلمين أن يشتغلوا به ألف مرة . فقد بلغ السيل الزبى وحطت المصائب بكلكلها على بنى الاسلام حتى صرنا عبيدا للغربيين يتصرفون فى أملاكنا وحريتنا وناموسنا وعوائدنا كما يحبون ويرضون . وفازوا هم فى التوازن بين الشرق والغرب بالكفة الراجحة . ونلنا نحن الخيبة المشينة والفشل الفاضح ولم يبق شك فى أنه من العار الجسيم أن يتلهى عظماء المسلمين وأغنياؤهم عن البحث فى مثل هذا الموضوع الخطر بل الدواء الشافى لأمراض العالم الاسلامى . على حين أن أعداءهم أنفسهم سألوا ويتساءلون ماذا يصيب الاسلام فى مستقبل الأيام ؟ أيسترجع مجده القديم ويسترد حياته الأولى ؟ وهل فى الامكان اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم ؟ فهم كما رأينا متفرقون منقسمون على بعضهم متباغضون .

وقف اللورد كيرزن حاكم الهند العام فى العام الماضى خطيبا فى حفلة حافلة بأعيان المسلمين فقال : لو كنت أميراً من أمرائكم أو غنياً من أغنيائكم لما أضعت لحظة واحدة من حياتى فى غير بث العلوم والمعارف ونشر النور بين أهل دينى ، ولما أنفقت شيئا من مالى فى غير هذا السبيل .

ووقف الكونت دى بولوف الوزير الاكبر لألمانيا فى هذه الأيام خطيباً فى مجلس الرشستاغ فقال :

إن التاريخ لم يورد لنا اجتماع دول كبرى متمدنة قوية واسعة السلطان فى زمان واحد كاجتماع الدول الأوروبية الآن ووقوفها أمام بعضها البعض وتنافسها فى امتلاك المعمورة واقتسام أراضيها .

أراد الأول أن يشير إلى أن مستقبل الاسلام مرتبط بالتربية والتعليم وأن المسلمين إذا لم يستطيعوا استرداد قوتهم الماضية فانهم بالتقدم فى العلوم العصرية ومباراة الأمم الأخرى فى ميادين المعرفة يستطيعون أن يحفظوا كرامتهم مع الدول المتسلطة عليهم ويضطروها إلى احترامهم ، ومنحهم ما يطلبون من الحقوق .

وأشار الثانى من حيث لا يريد إلى أن الاسلام فى حرب مع دول عدة لا مع دولة واحدة . وأن بلاده الواسعة الشاسعة صارت مطمحا لأنظار كافة الدول الغربية . وأنهن يتنافسن أشد التنافس لامتلاكها وإستعباد أهلها . وهو إيضاح لما نحن فيه من الأخطار ولما يتهددنا فى القريب العاجل .

مستقبل الاسلام فى أيدى المسلمين أولا وفى أيدى رجال الدولة العلية ثانيا . إذا عمل المسلمون للنهوض ، وسعوا فى طريق الجد والحياة الحقة ، وفهموا معنى دينهم ، وعرفوا ما فيه من حث على الاتحاد والاتفاق والجد والاجتهاد ، وطلب العلم من أطراف الأرض وسائر جهاتها ، والتنقيب عن أسرار المخلوقات والاستعداد لطوارىء الزمان ، وهجمات العدو الفائز ، واستفادوا من اختلاطهم بالغربيين معرفة الصناعات على اختلافها والاحاطة بالاختراعات الحديثة على تنوعها وتعددها نالوا — ولو بعد حين — شيئا عظيماً من العز المفقود والسؤدد المسلوب ، واستردوا من عظمته السالفة ما يقدرون أن يظهروا به أمام العالمين بمظهر الأمم الراقية المجدة الجديرة بالاحترام والاكرام .

أما الدولة العلية فقد أجمع الباحثون فى حالها ومستقبلها على أنها لا ترد إعتداء الغرب وأهله وتوقف تياره المتدفق ، وتجعل لنفسها بين دوله مقاماً جديداً وشأنا عظيما إلا إذا انتظمت ماليتها وقويت بحريتها وعمت العدالة فى أنحائها . وهى مطالب ثلاثة يحق لمن يحققها أن يفاخر المتقدمين

والمتأخرين ، ويقول لهم أجمعين : لم يخدم الاسلام والمسلمين أحد منكم مثلي.
إذ بالمال تستطيع الدولة تنظيم كل مختل ، وتقويم كل معوج ، وتقوى على الاصلاحات المرغوبة . ولا ينتظر تنظيم المالية إلا إذا خفضت المرتبات تخفيضا كبيرا ، وهو الأمر الذى شرع فيه دولة الصدر الجديد ورفت من المصالح والادارات عدداً من الموظفين غير قليل . إذ لا يدخل الانسان فى نظارة من النظارات بالاستانة إلا ويرى فيها عمالا بغير عدد عينهم الناظر مراعاة لخاطر زيد وإكراما لصديق أو عظيم . وأغلب هؤلاء الموظفين لايحضرون إلا فى أول الشهر لقبض رواتبهم . وهو خلل هائل تجب إزالته قياما بحقوق الدولة وتحقيقا لرغائب جلالة السلطان . ولا نخال سعيداً باشا إلا مهتما به بعد أن يتمم إصلاحه الأول ، وهو تخفيض المرتبات .

ومن أهم الأسباب فى زيادة الثروة وانتظام مالية الدولة عدم منح امتيازات المعادن والسكك الحديدية وغيرها للأجانب ، فان تمكنهم من الدولة وازدياد نفوذهم فيها خطران عظيمان . ولا يجب أن يغتر رجال الدولة بزيادة إيرادات الجمارك بسبب المعادن ومد السكك الحديدية وغيرها للأجانب . فان تمكنهم من الدولة وازدياد نفوذهم فيها خطران عظيمان . ولا يجب أن يغتر رجال الدولة بزيادة ايرادات الجمارك بسبب المعادن ومد السكك الحديدية فان هذه الزيادة إن أفادت الحكومة بعض الفائدة لا تعادل الضرر العظيم الذى يعود على الدولة وأهلها من امتداد نفوذ الألمان والفرنساويين والروس وغيرهم فى بلادها .

وعندى أنه خير للدولة أن تؤجل مد السكك الحديدية وإستخراج المعادن المدفونة فى أراضيها حتى تستطيع هى أو يستطيع أهلها القيام بذلك من أن تمكن الأجنبي من بلادها ، وتزيد من نفوذه وسلطانه . ولا ريب فى أن أنشاء اسطول تركي فخيم يملأ البحار هيبة ودويا من

أحب الأمور إلى كل مسلم غيور ، فضلا عن أن الحاجة إليه أصبحت بادية للعيان ظاهرة لكل إنسان . وحسبنا مسألة طرابلس الغرب ، ومشكلة الكويت واحتياج الدولة فيها إلى مراكب حربية تحمل الجنود وتحمى الثغور . ولا نزاع في أن إنشاء أسطول يفى بالحاجة يحتاج إلى مال كثير وزمن طويل . والمال غير ميسور الآن . وإن كان الزمن فى بعض الفرص أغلى منه قيمة وأندر منه وجودا . ولا سبيل إلى وجود المال بغير توفير وتدبير وإقتصاد كبير وخطة ثابتة تسير الدولة عليها فى ماليتها عدة سنين. وإذا كان تدبير المال وإنشاء الأسطول من أهم المعدات للنهوض ورفع المصائب عن المسلمين والاسلام ، فان تخريج رجال أكفاء قادرين على تعميم العدالة فى أنحاء المملكة أمر ينادى به كل مسلم ويتمناه كل عثمانى . ويرى كل عاقل أن حياة الدولة فى الداخل لا تقوم إلا عليه وهو لا يكون إلا بتقوية تعليم المبادىء الدينية فى المدارس العثمانية حتى تتشبع النفوس بالفضائل الصحيحة السليمة وبتدريس التاريخ بطريقة كاملة شاملة وافية بالمرام وشرح الحروب التى وقعت بين تركيا ودول أوربا شرحا يملأ القلوب حمية ووطنية ويعرف منه الطلاب حقيقة واجباتهم نحو بلادهم حتى يعلموا أنهم إنما يربون ليكونوا سدا فى وجه الغرب وحمى للوطن والملة والدين . وقصارى القول أن مستقبل الاسلام لا يكون كما يشتهى عقلاء المسلمين إلا إذا قاموا بنهضة قوية واستمروا بلا ملل ولا جزع فى سبيل إحياء أبناء دينهم ونشر الحقائق الاسلامية والعلوم العصرية بينهم ، وبعث الله من رجال تركيا من يصدق الخدمة لجلالة المتبوع الأعظم ويساعده على إيجاد المال والأسطول والرجال . وإلا فليبك الباكون على دين حكمنا الأجنبى فى بلاده وأهله ، وهو دين التمدن الصحيح والحضارة العالمية والتقدم والعمران

* * *

والقارىء لهذا المقال الأخير يشعر بأن صاحبه صحفى هادىء أكثر منه خطيبا يستفز السامعين فى جمع حافل. فهو يأتى بأقوال الساسة الأجانب ويناقشهم، ويستنبط منهم العبرة تلو الأخرى، ويسوق كل ذلك مساقا جميلا وحزينا فى وقت معا. والكاتب هنا يربط مستقبل الاسلام بأمرين لا ثالث لهما: هما المسلمون أنفسهم من جهة، والدولة العثمانية المهيمنة على أمورهم من جهة ثانية. والعلة بادية على كليهما. ودواؤهما بسيط فى نظر الكاتب. لأنه ينحصر كله فى كلمة واحدة هى (النهوض للاصلاح) وما أيسر هذا الاصلاح لمن أراده لو صدقت نيته وصحت عزيمته.

ثم إنه نبه المسلمين والدولة العلية إلى استغلال الأوروبيين لموارد هذه الدولة التى منحتهم كثيراً من الامتيازات التى منها مد السكك الحديدية والسيطرة على المناجم المعدنية، وذلك فى مقابل ايرادات جمركية لا قيمة لها.

وفى ختام المقال دعا الدولة العلية إلى إنشاء أسطول كبير يكون مظهراً لعزتها وحافظا لكرامتها، وذائداً عن دولها ضد كل اعتداء أجنبى.

هكذا جاء هذا المقال برنامج إصلاح كبير لو قام بتحقيقه المسلمون وولاة أمورهم من سلاطين العثمانيين لأفادوا منه الشىء الكثير

وقد ربط الرجل بين الاسلام والدولة العلية ربطا شديدا ولم يستطع مطلقا أن يتصور أن فى استطاعة الأمم الاستغناء عن هذه الخلافة. وأن الأصل فى هذه الخلافة أنها ليست ملكا عضوضا. ولا شك أن الرجل كان فى كل هذه الأفكار متأثراً بالرأى العام بين المسلمين جميعا فى ذلك الوقت. ولقد بقى العامة فى مصر الى وقت قريب يعتقدون أن زمانا يخلو من خليفة لهو زمان سوء، وأن الخلافة لازمة للاسلام لزوما تاما. ولولا سقوط الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال (أتاتورك) لبقى هذا الاعتقاد سائداً إلى اليوم.

وقد كنا نود أن نتتبع ذلك بطائفة أخرى من المقالات التى كتبها

الرجل فى هذا المعنى . ولكن المجال لا يتسع لشىء من ذلك . فعلى الناشئة التى تحرص على معرفة تاريخ بلادها أن تستقى هذا التاريخ من مصادره الصحيحة وأن ترجع بنفسها إلى صحيفة اللواء وغيرها من الصحف التى عاشت معها ، فثم تجد ما يسد حاجتها ، وثم ترى من الآراء النافعة والأفكار السديدة ما تكبر به هذه الصحيفة فى نظره وتعظم فى خاطره .

* * *

ولا ننس مع ذلك ما كان يكتبه مصطفى كامل بين حين وآخر من المقالات الطويلة فى الصحف الأوروبية على اختلافها مدافعا فيها عن الاسلام داحضا فيها حجج الأوروبيين الذين رموا الدين الاسلامى نفسه بشتى التهم العريضة

ولمن أراد من القراء أن يطلع على نموذج لهذا النوع من المقالات فانا نحيله إلى مقال على سبيل المثال كتبه مصطفى كامل إلى جريدة الفيجارو الفرنسية بعنوان : أوربا والاسلام :

وهو مقال طويل عاد الكاتب فترجمه بنفسه إلى اللغة العربية ونشر الترجمة بصحيفة اللواء بتاريخ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٣) فالتمسه هناك :

* * *

(وبعد) فان من يقرأ المقالات الكثيرة التى هاجم بها الأوروبيون والأمريكيون الاسلام ويقرأ الردود الكثيرة التى ردت بها الصحافة المصرية على تلك الصحف الأوروبية والامريكية يخرج بهاتين النتيجتين الهامتين :

الأولى : أن الصحافة المصرية أبلت بلاء حسنا فى مجاهدة الأوروبيين وحملت الكثيرين منهم على الاعتراف بفضل الاسلام فى خلق الشعوب القوية ، وأنه لا عبرة هنا بضعف الأمم الاسلامية فى الوقت الحاضر ، فسيدور الفلك دورته وتعود للمسلمين قوتهم يوما ما

والثانية : أن كتاب مصر فى عهد الاحتلال — وقبل أن تسقط

الخلافة العثمانية وتزول من الوجود كانوا محقين إلى حد ما فى دعوتهم إلى ائتلاف الأمم الاسلامية ليتكون من هذا الائتلاف ما يسمى بالكتلة الاسلامية . ولا بأس عندهم من أن تكون تركيا زعيمة هذا الحلف أو الكتلة . والكتاب المصريون لهم عذرهم الواضح فى تطلعهم إلى تحقيق هذه الأمنية ، لأنهم يرون فى تحقيقها على هذا الوجه استعادة لمجد الاسلام ، وتمكينا له من أن يأخذ لنفسه فرصة جديدة لقيادة العالم المتمدن، كتلك الفرص القديمة التى أتيحت له من قبل وقاد فيها هذا العالم قيادة حسنة إلى الحضارة .

سيقول المعارضون لهذه الفكرة بل هى خيانة للقومية المصرية وضياع للشخصية الوطنية وذهاب بالكرامة السياسية وما إلى ذلك كله من شتى التهم والأقوال ؟ ولكنى أقول لهم إن فى يد المؤرخ العدل مقياسا يقيس به أفكار الشعوب والأفراد . وهذا المقياس هو قدرة المؤرخ دائماً على أن يحيط نفسه بالظروف التى أحاطت بتلك الشعوب والأفراد حين يتحدث عنها أو يحكم لها أو عليها . وهو إن فعل غير ذلك أساء إلى عدالة التاريخ وهضم حق الفرد أو الأمة.

الفصل السابع

اللواء والحركة الوطنية

لا نعرف أن مصر رزقت رجلا أحبها وغار على مصلحتها كما أحبها هذا الفتى وغار على كل ما له مساس بها. ونحن حين نتحدث عن اللواء والحركة الوطنية فانما نتحدث عن أهم جانب من جوانب هذه الصحيفة الشعبية، ونشيد باكبر دور لعبته على مسرح الحياة المصرية. إذ الواقع أن اللواء أوشكت فى وقت من الأوقات أن تكون المتنفس الوحيد لهذا الشعب المغلوب على أمره. وكان لها الأثر البعيد فى إحياء النفوس بعد موتها، وإنهاض الهمم بعد ركودها، واسترداد الكرامة المصرية بعد ضياعها على يد الاحتلال البريطانى

والحق أنه كان لصحيفة اللواء من اسمها هذا أوفى نصيب، فقد ظلت فى يد صاحبها بمنزلة الراية الكبرى يلتف حولها دعاة الحرية والكرامة، أو العالم الرفيع يقف إلى جانبه المجاهدون من المواطنين، فيزدادون حماسة فى الدفاع عن وطنهم، وثباتاً فى ميدان الكفاح من أجل هذا الوطن.

ثم إن جريدة اللواء كانت فوق هذا كله مدرسة يتلقى فيها الشعب المصرى على اختلاف طبقاته دروساً فى التربية الوطنية، ويستمعون فيها إلى أساتذة أمناء على تربية الشبيبة المصرية. وإننا إذ نتصور مصر خالية فى ذلك الوقت من صحيفة «المؤيد» ونتصورها خالية كذلك من صحيفة «اللواء» يتجلى لنا وجه مصر أغبر اللون أصفره من الحياء والخجل،

بل من الحزن والكدر ، بل من الشعور بالخزى والعار ، ومن الذل والمهانة . وذلك ما لم يسجله التاريخ علينا بحمد الله ، لأن روح المقاومة الهادئة التى بدت من جانب صاحب « المؤيد » ، وروح المقاومة العنيفة العارمة التى بدت من جانب صاحب « اللواء » هما اللتان أمسكتا يد التاريخ عن كتابة هذه الصحيفة المخزية المؤلمة . وليس العيب أن تبتلى الأمة بالفقر أو المرض ، أو يسومها حاكمها الذل والخسف ، ولكن العيب كل العيب أن تقف هذه الأمة مكتوفة اليد أمام هذه الأعداء كلها ، أو ترضى لنفسها العيش فى جحيم هذه الشرور جميعها . علي أن المقاومة فى ذاتها عنوان الحياة ، والجهاد فى ذاته أشرف عمل فى الوجود والشعور بكمال الانسانية لا يبلغ أوجه فى أمة أو فى فرد إلا فى أحد هذين الموطنين .

وهذه هى اللواء تصبح منذ ظهورها علي مسرح الحياة المصرية مرآة صافية تسجل فيها حوادث هذه الأمة مقرونة بشعورها تجاه تلك الحوادث ، كما يسجل فيها كل ما يتصل بالحركة الوطنية أو يمس الكرامة المصرية .

فاذا ملأت الغيرة قلب رجل كعباس حلمى الثانى وراح يدعو قومه إلى الجهاد فى سبيل الوطن راحت اللواء من جانبها تحيي هذه الروح العالية فى الأمير ، وتؤكد له أن الأمة كلها معه ، وأنها تقدر له كلمته التى قالها بأعلي صوته :

« إننى أفضل أن أموت عن أن أفقد حقوقى وحقوق بلادى »

وإذا أتى كرومر وقال « إن مقاومة عباس للاحتلال الانجليزى لا تمثل رأى الشعب المصرى وأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وإنما تمثل رغبة الخديو الشخصية فى فرض سلطة مطلقة علي المصريين » نهضت اللواء ترد كيد الجبار فى نحره ، وتفرد لتفنيد دعواه الزائفة وزعمه الباطل مقالا فى عددها الواحد والثلاثين جاء فيه :

« خير لنا أن نظلم أنفسنا بأنفسنا بدون تدخل الغير من أن نرى إهانة الاحتلال الأجنبي ملتصقة بنا فى الصباح وفى المساء »

ثم تهيب اللواء بالمصريين قائلة لهم :

« ولكن أكبر علة لمصائب هذه الديار الأسيفة ولنجاح الانجليز فيها هي سكوت المصريين عن حقوقهم وركونهم إلى السكون التام الذى يعتبر فى نظر السياسيين والحكماء موتا معنويا دونه الموت الحقيقى . » ثم تقول:

« وقد جاهر سمو أميرنا المعظم بمبادئه الوطنية ، ونادى الشعب بالمطالبة بحقوقه والمدافعة عن حريته واستقلاله . فماذا كان منا ؟ إعجاب بعمل الأمير وحب لذاته الكريمة . ولكن هل إلى هذا يقف همنا ؟ ليعلم الانجليز أن الشعب ذو شعور وإحساس ، وليجد سمو الأمير قوة من أمته تعضده وتشجعه على التمسك بحقوقه وحقوقها الخ »

ثم إذا دب اليأس والخور فى قلوب المصريين لا سيما بعد حادثة فاشودة واتفاقية السودان راحت اللواء تنفخ فيهم من روحها ، فتطرد اليأس عن القلوب ، وتبعث الأمل فيها من جديد .

وإذا تطرق اليأس حتى إلى أفئدة الخاصة من الوزراء والحكام ، كما حدث لرياض باشا أنحت اللواء عليهم باللائمة ، وأمطرتهم وابلا من ضرباتها ، وشاركت جريدة المؤيد فى تلك الحملات الصحفية التى حملتها على رياض ، وغيره من دعاة الهزيمة والتردد .

وإذا اتفقت الدول على شر أرادته بمصر والمصريين جاءت اللواء تنبه على هذا الشر وتدعو المصريين جميعاً إلى لزوم الحذر حتى يزول الخطر .

وإذا أقبل المحتلون يمارسون ألاعيبهم السياسية المعروفة ، ويحاولون خداع المصريين وصرفهم عن آمالهم المنشودة طلعت اللواء بمقالاتها العنيفة فكشفت عن هذه الألاعيب الخطيرة ، وفتحت أعين المصريين على نوايا الانجليز القريبة والبعيدة .

وحين جاء اليوم الذى تم فيه الاتفاق الودى بين دولتين من دول الاستعمار الأوربى ، هما انجلتره وفرنسا وذلك عام ١٩٠٤ وانقطع رجاء الناس جميعاً فى مصر فى التخلص من براثن المحتل ضاعفت اللواء من جهودها ، وتأهبت للهجوم على العدو منددة بهذا الاتفاق الودى ، مدركة يومئذ أن واجبها أصبح أثقل من ذى قبل ، وأنها أصبحت تمثل آخر خيط من خيوط الأمل المصرى . فاذا انقطع هذا الخيط فقد تم القضاء على مصر

وكم كان العمل شاقا والطريق وعرا والموت يبدو أشباحا تتراقص أمام العيون فى ذلك الحين . ولكن اللواء أحسنت تقدير ذلك ، وعملت على علاجه ، واستطاعت أن تصون للحركة الوطنية حياتها وتحتفظ بالبقية الباقية من روح كفاحها . وما زالت بهذه الحركة المباركة حتى نهضت من كبوتها ، وقامت من كسرتها وأزاحت عن نفسها كل شعور بالضعف أو الخور ، واستبدلت به شعوراً بالقوة والظفر .

وفى مايو سنة ١٩٠٦ كانت حادثة (العقبة) وخلاصتها أن تركيا ومصر تنازعتا على موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة . وكان قصد تركيا من ذلك إثارة (المسألة المصرية) من جديد . ولكن انجلتره وقفت إلى جانب مصر ، وتظاهرت بحمايتها للحدود المصرية . فثار لذلك الشعب المصرى وأعلنت اللواء سخطها واستنكارها لموقف انجلتره ، وطالبت الانجليز بالجلاء عن البلاد . ولولا أن الاتفاق الودى جرى بين فرنسا وانجلتره عام ١٩٠٤ كما قدمنا لكانت هذه الأزمة كافية لاثارة المسألة المصرية من جديد كما رغبت تركيا فى ذلك . ولولا اللواء ونضوج الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل لكان من الجائز أن تقبل مصر على نفسها وقوف انجلتره منها موقف المدافع عنها المعلن لحمايتها . ولكن اللواء صانت كرامة المصريين أيضاً فى هذه المحنة ، وأضافت بذلك يدا جديدة من أياديها على الحركة الوطنية .

وأخيراً يأتى دور « دنشــواى » أو دور الحادثة المشؤومة على الاحتلال البريطانى ورجاله فى مصر . وهي الحادثة التى كان لها من الآثار ما تحدثنا عنه من قبل . ثم هى الحادثة التى انتهت بسقوط جبار الاحتلال (كرومر) عن عرشه فى مصر . وهنا تم لصاحب اللواء أكبر انتصار فى تلك الموقعة الفاصلة التى دارت بينه وبين ذلك الجبار .

هكذا كان تسجيل الحوادث الوطنية تسجيلا دقيقاً من جهة ، والوقوف بالمرصاد للاحتلال البريطانى ومعارضته بقوة لا هوادة فيها من جهة ثانية ، وتذكير المصريين بين حين وحين بكل حادثة من الحوادث التاريخية التى كان لها مساس قوى بمصر والسودان من جهة ثالثة ، واليقظة التامة المستمرة لحوادث السياسة العالمية — أو بالأحرى للجزء المتصل منها بالقضية المصرية — من جهة رابعة . نقول هكذا كانت هذه الأمور الأربعة وأشباهها من أهم الوسائل التى اتخذها صاحب اللواء لبعث الروح الوطنى فى مصر ، ولولا هذه الجهود التى بذلتها اللواء لتعرض هذا الروح الوطني للضعف المفضى إلى الموت .

على أن صاحب اللواء كانت له طرق أخرى كذلك ترمى إلى بعث الروح الوطنى فى الأمة . ومن أهم الطرق التى تجب الاشارة اليها ثلاث :

أولاها — سرد تاريخ الأمم الحية والاشــادة بمواقفها العظيمة فى ميدان الجهاد من أجل الوطن والأمة ، وذلك على نحو ما كان يفعل صحفى قديم كأديب اسحاق وغيره فى أوائل النهضة .

والثانية — العناية بسير العظماء الذين أبلوا بلاء حسنا فى بناء مجد مصر خاصة ، وكانت لهم مشاركة قوية فى إقامة هذا البناء .

والثالثة — التعليم والدعوة الى تأسيس المدارس على نفقة الأهالى .

ومن الأمثلة على الأولى مقالة نشرتها اللواء (فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٢) بعنوان

(الحوادث عبر)

كنت اقرأ البارحة فى كتاب قيم فصولا شتى من التاريخ وحوادثه فاذا بى أمام رجل مثله اليونانيون القدماء لأبنائهم ليعرفوا مقام الوطن والوطنية. رجل نفته بلاده واضطهده أهله وقومه، واتهموه بالتهم الشنيعة والفظائع الجمة، ورموه بكل ما يرمى به الخونة المارقون. فما سكن ببلاد الأجانب واختلط بأهلها وعرف لسانها حتى أنقذ وطنه من حرب كانت تدبر ضده وأخرجه من مشاكل كان يستحيل على أمهر الساسة أن يفك عقدتها. فتذكرت قول الشاعر :

بلادى وأن جارت على عزيزة * وأهلى وأن ضنوا على كرام

وقلت حياكم الله يا شعراء العرب ما تركتم معنى من المعانى السامية إلا ملأتم به أشعاركم، وقدمتموه للأعقاب من بعدكم ثم انتقلت من سيرة ذلك اليونانى الكريم حتى وقع نظرى على قصة (انيبال) بطل قرطاجنة الشهير، حيث كان يجمع أطفال بلاده ويعلمهم نشيداً وطنياً يتعهدون فيه بخدمة قرطاجنة وإعلاء شأنها وسحق أعدائها، ومحو كل كاره لها على وجه الأرض الخ.

* * *

ثم من الأمثلة على الطريقة الثانية، وهى العناية بسير العظماء من المصريين والاشادة بذكرهم وإعلاء شأنهم ما فكر فيه صاحب اللواء يومئذ من الاحتفال بالعيد المئوى لتولية محمد على عرش مصر برضى من أهلها وسعى منهم فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية. ولقد جاء هذا الاحتفال من العظمة والجلال بحيث هز شعور المصريين جميعاً، وسما بنفوسهم جميعاً، وكان لفتة وطنية قوية لها خطرها ومغزاها يومذاك.

وبمناسبة الحديث عن سير العظماء المصريين نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نأخذ على مصطفى كامل أنه شوه كثيرا من سمعة عرابى، وننظر

اليه على إنه خائن لبلاده، وعبرت مقالاته تحت عنوان (عرابى أمام التاريخ) عن هذا المعنى فى صراحة تامة.

* * *

ومن الأمثلة على الطريقة الثالثة من الطرق التى اعتمد عليها صاحب اللواء فى تربية الروح الوطنية فى نفوس الناشئة المصرية وهى طريقة التربية والتعليم ما قام به صاحب اللواء فى ذلك الحين من إنشاء مدرسة سميت باسمه، وبلغ عدد تلاميذها مائتين وسبعين تلميذاً. وكان على إتصال دائم بهذه المدرسة، لا يدع فرصة تمر دون أن يقف فى تلاميذها خطيباً يلقي عليهم دروساً فى الوطنية الصحيحة. وهكذا استحقت هذه الجهود كلها إعجاب الوطنيين جميعاً والأوروبيين جميعاً، وأصبح بها الرجل موضوع حديث هؤلاء وهؤلاء واولئك.

* * *

تلك نظرة عامة فى المجال الوطنى الذى سبحت فيه جريدة اللواء.

والآن يجدر بنا أن ننظر نظرة إحصائيـــة إلى بعض ما نشرته اللواء من مقالات فى هذه الناحية. وسنكتفى بذكر العناوين الهامة لهذه المقالات الوطنية سنة بعد سنة. حتى إذا فرغنا من ذلك عدنا إلى بعض الحوادث الكبيرة، فنظرنا فيما قالته اللواء فى كل حادثة منها، وأتينا بطائفة يسيرة من النماذج على سبيل المثال.

* * *

ففى السنة الأولى من حياة اللواء كانت المعانى الاسلامية غالبة على تلك الصحيفة اليومية بحيث تضاءلت إلى جانبها نوعا ما جميع الأغراض الأخرى كالغرض الوطنى والغرض الاجتماعى وغيرهما.

ثم فى السنة الثانية من حياة اللواء وثبت الصحيفة وثبة ظاهرة فى الميدان الوطنى، وزادت عنايتها بالوطنيات زيادة فاقت الاسلاميات، وكذلك

الشأن فيما يتصل بالفصول الاجتماعية التى نشرتها فى تلك السنة أيضا . ومن يومئذ والاهتمام بالمقالات الوطنية والاجتماعية يتزايد فى اللواء عاما بعد عام ، حتى كان العام الخامس من حياة اللواء وهو العام الذى شهد الاتفاق الودى بين انجلترة وفرنسا ، ثم العام السابع من حياة هذه الصحيفة وهو العام الذى شهد حادثة دنشواى فضوعفت عناية اللواء بالوطنيات ، ولوحظت هذه الزيادة بوضوح تام فى الكم تارة ، وفى الكيف تارة أخرى ، وفيهما فى أكثر الأحيان .

ثم تأتى السنة الثامنة من حياة اللواء وهى السنة التى شهدت انتصار الوطنيين انتصاراً حاسماً على اللورد كرومر ، وانتهت بسقوطه ورجوعه إلى بلاده . وفى هذه السنة طغت المقالات الوطنية طغياناً تاماً ، وقلت الاسلاميات إلى حد كبير من حيث العدد ، وإن بقيت على حالها من القوة والتدفق .

وإلى القارىء بعض العنوانات التى إتخذتها المقالات الوطنية فى كل سنة من تلك السنوات الثمان .

ففى (السنة الأولى) نجد عنوانات منها : كيف يحيا الوطن العزيز — الأمة والأمير — سياسة الشرف والاباء — أعمال انجلتره فى مصر — يوم ١٩ يناير (يريد إتفاقية السودان سنة ١٨٩٩) — كلمات فى سبيل السودان — لمن يعمل الانكليز فى مصر — حياة الشعب بالشعب — واجبات الوزراء أمام الأمة والأمير — الدين والوطنية عند الأمم الحية — السلطة الشرعية فى مصر — إلى أبناء وطنى — حقوق الشعب وواجباته — بماذا يلام الشعب المصرى — أين الشرف البريطانى — كيف تتحقق الآمال — لماذا لا نعمل — التضامن الوطنى — التضامن والاخاء — السياسة الانجليزية فى السودان — مسئولية فاشودة — مقام المصرى فى بلاده — الوطنية وأسلحتها — بم نصير رجالا ؟ - الخ

وفى (السنة الثانية) نرى عنوانات منها :

عظاؤهم وعظاؤنا — حاربوهم بالاعراض — نوايا المحتلين نحو مصر — متى تحل المسألة المصرية — عرابى أمام التاريخ — عرابى بين المصريين — عرابى وعظاء الرجال — عودة عرابى — عرابى والانجليز — الاستقلال أم الاحتلال — الشبيبة المصرية — اللورد كرومر والمستر دنلوب وضياع الأمة بينهما — حقوق الأمة فى مصر — الجندية فى مصر — فاشودة والمسألة المصرية — مصر والسودان — الشعور الحى — العيد المئينى لمؤسس العائلة الخديوية — هل فى مصر دستور — العيد المئينى لمحمد على — ذكرى الرجال فى مصر الخ .

وفى (السنة الثالثة) نقرأ مقالات منها .

الحوادث عبر — مستقبل الأمة — كفاءة المصرى — صوت العظام أو عرابى أمام قتلى التل الكبير — تنبهوا يا رقود — الاحتلال والمغرورون به — حقوق الأمة فى مصر — إلى أى مآل نسوق أبناءنا — انكلتره والاستعمار — قيمة الفرد الواحد فى الأمة الحية — قوة العقيدة — الدفاع عن الشرف — المنفعة والدستور خصمان — انكلتره في مصر — بعد عشرين عاما — إلى أين يسوقنا الاحتلال ؟ عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم — أقطاب الوطنية الخ .

وفى (السنة الرابعة) نجد فصولا منها :

دستور أم استبداد — الشعب المصرى — صنائع الاحتلال — حقوق الأهالى — نصيحة الدخلاء لشبان مصر الأذكياء — إلى أين المصير (أو الاحتلال والمصريون) — نوايا الانجليز — حاجة مصر إلى مجلس نيابى — بلادى بلادى — ارتقاء الشعور الوطنى فى حكم مولانا العباس — افلاس الاحتلال — الجهاد فى سبيل الوطن مع الجهاد فى سبيل الله — الامتيازات الأجنبية فى مصر : أما آن وضع حد لها ؟ الخ .

وفى (السنة الخامسة) : نرى مقالات منها :

إنشاء مجلس نيابى — مصر بين انكلتره وفرنسا — المسألة المصرية — تهنئة غريبة — كيف تحيا الشعوب — الأمم بالرجال والرجال بالأعمال — إذا تركنا السودان فهو لايتركنا — خطبة رياض — الوزير المنتحر — انفجار العواطف — رأى اللورد ملنر فى رياض باشا — إهانة الأمة من رياض — الخطبة الرياضية — رياض باشا والاحتلال — إن البلاء موكل بالمنطق — خطبة فى الموقف السياسي لمصر وواجبات المصريين — حزب المعارضة (إلى جناب اللورد كرومر) — المصرى هنا وهناك — نحن وهم — الاستبداد فى صورتيه — البلاد بكبار الرجال — المجلس النيابى — لا ناصر لرجل خذلته أمة — من فضيحة إلى فضيحة — حديث مع صاحب اللواء (حول الاتفاق الودى) — كيف تعتز الامم — حقوق البلاد — أحرصوا على البقية — حرب الدستور — مجلس الشورى والاحتلال — من الرجل العظيم ؟ — من الكاره للسودان ؟ — مصر فى عام (مقال فى الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلتره) . خطبة رياض وتقرير كرومر .

وفى السنة السادسة :

كلية محمد على — مجلس الشورى — المصريون والمحتلون — أمنية الجميع — الامتيازات الأجنبية — ارتفع الستار فماذا أنتم فاعلون — أمة لا تموت — الجهاد فى طلب الاستقلال — الوزراء المصريون — إلى سمو الخديو المعظم — كونوا عبيدا — سر الانتصار — معاملة الانكليز للمواطنين المصريين — عبرة مؤثرة — الرجال والمبادىء — التمرين على الاستعباد — لو كنت أميرا — صداقة انكلترا — بين مصر والسودان — قوة الرأي العام — الأعمال النافعة وحاجة الأمة إليها — محمد على والانكليز — المصريون والمحتلون — اسماعيل والانكليز — المصريون والانكليز — المصريون والنزلاء — الوطنية الحقة

وفى السنة السابعة :

مصر فى عام — المبادىء والغايات — استعداد الأمة للترقى — رأى فى سياسة الاحتلال — تحرير مصر — خطبة لصاحب اللواء — المهاجرة إلى السودان (إسمعوا أيها المصريون) — قضية السودان بين الربح والخسران — المصريون والانكليز — رئيس النظار والاحتلال — صوت الطلبة — أمة تستعد — الراية المصرية (عبرة لمصر والمصريين) — أكبر أمانى مصر (إنشاء مجلس نيابى) — حقوق الأمير — كلمات لأعداء مصر — الافتراء على المصريين — ماهذه المغالطة ؟ — مركز الانكليز فى مصر — معركة دنشواى — المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى (عدد من المقالات) حادثة دنشواى — يادافع البلاء — الانكليز فى مصر — اللورد كرومر وعقول المصريين — احتجاج وطنى على وجود المحكمة المخصوصة — تنفيذ الأحكام فى مصر — إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن — إرفعوا أصواتكم — مسألة دنشواى فى مجلس العموم — مسألة دنشواى فى البرلمان الانكليزى — أربعة من الانجليز حول لفظة واحدة (مصر للمصريين) — أيها المخلصون لمصر — مصر للمصريين (إيضاح واجب) — المطالبة بالحقوق — الوطنية المصرية الجديدة — فظائع العدالة فى مصر — المستر بلنت ومصر — الحركة الوطنية فى مصر — إجلال الوطنية — الحزب الوطنى فى مصر .

فى السنة الثامنة :

لا يعرف الوطن من لا وطن له — ياحضرات أعضاء الجمعية العمومية — ماذا تريد الأمة — التيمس ومصر — المصريون والنزلاء — الشقيقان المؤتلفان (المسلمون والأقباط) — مصر والأحرار الانجليز — لينصروا الاحتلال ويؤيدوه — عواطفنا نحو الأوربيين — الحياة الحرة — مصر للمصريين — اللورد كرومر والحركة الوطنية المصرية — مستقبل الحركة الوطنية (ردا على تقرير اللورد كرومر) — مصر وسياسة الأحرار الانكليز — نهضة مصر ومطالبها — حقوق الأهالى — فى سبيل بلادى — المطالبة

بالحقوق — قوة هائلة يجمعها اللورد كرومر ضد المصريين — حفلة الأوبرة — أعمال محمد على باشا الكبير — حياة الأمة بنفسها — العالم ناظر إلينا فلنسر دائماً إلى الأمام — مشكل الوطنية (من كتاب همومى وجهادى لمدام جولييت آدم) — ذكرى دنشواى (إحدى عشرة مقالة : ابتداء من ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٠٧ إلى ٤ ـ ٧ ـ ١٩٠٧) ـ يوم ٤ يوليه — حان زمن الجلاء — ألا ينبغى أن نعد من الآن عدتنا ؟ (أربع مقالات متوالية) ـ أبطال الوطنية — مطالب المصريين وأمانيهم تنحصر فى الاستقلال وإدارة شؤونهم بأنفسهم — بلادى بلادى — مصر والاستقلال — الفرق بين الوطنيين — الاستقلال — نحن وحدنا — أعداء الحقيقة — الشعور الوطني — الحقيقة المرة — حب الوطن من الايمان — لو لم أولد مصريا لتمنيت أن أكون مصريا ـ مسجونو دنشواى ـ الوطنية المصرية ـ لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ـ هكذا فلتكن الوطنية ـ مصر والاستقلال ـ الحزب الوطنى ـ مصر فى عام .

* * *

لم يبق إلا أن نسوق للقارىء طائفة من النماذج الصحفية التى كتبها مصطفى كامل . وهنا نحار حيرة كبيرة فيما نأتى به من هذه النماذج وما نذر منها . والحق أن جميع ما كتب مصطفى كامل يدل دلالة قوية على شخصيته ، وينادى بوطنيته ، ويصلح أن يكون نموذجا لكتابته . وقد كان مصطفى كامل ـ كما كان السيد على يوسف ـ صاحب فكرة يصدر عنها ، ورأى سياسى يدافع عنه ، وحزب يتحدث باسمه . وكان صاحب الصحيفة إلي ذلك العصر ملتصقا بصحيفته ليل نهار ، لا يبرحها إلا إلى عمل يتصل بها ، ولا يترك لغيره كتابة ما يتبقى من صفحاتها إلا بعد أن يطمئن كل الاطمئنان إلى أنه عبر عن رأيه أولا ، وشرح فكرته للقراء شرحا وافيا . وذلك كله بالطبع مخالف لما يحدث من أصحاب الجرائد اليومية ، وزعماء

الأحزاب السياسية فى وقتنا الحاضر، فانهم لا يكلفون أنفسهم بعض هذا الجهد، ولا يحاولون أن يقدموا لصحفهم وأحزابهم مثل هذه التضحية .

أجل - يحار الباحث حيرة كبيرة حين يريد أن يقدم للقارىء طائفة من المقالات الصحفية لصاحب اللواء على سبيل المثال . ومع ذلك فنحن مضطرون هنا إلى الاكتفاء بهذه الصفحات الآتية : —

النماذج

منذ العدد الثانى من السنة الأولى من حياة اللواء حرص مصطفى كامل على محاربة اليأس فى الأمة فنشر مقالا بعنوان :

كيف يحيا الوطن العزيز

(بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٠٠)

جاء فيه :

لم يأت على مصر حين من الدهر اشتغل فيه أبناؤها بحالها ومستقبلها مثل هذه السنين التى توالت فيها المصائب، وتعاقبت النوائب وعرفنا حقيقة المصائب الانجليزية ضدنا وضد الوطن العزيز .

وقد ذهب أبناء الوطن فى أمر مستقبله مذاهب شتى . فأصحاب العقائد الصحيحة والمبادىء القوية يؤملون له مستقبلا سعيداً وحياة طيبة، لأنهم يرون أن الأمة المصرية هى أكثر الأمم استعدادا للتقدم والرقي ، وأن اليأس من المستقبل يأس من قدرة الخالق سبحانه وتعالى . ويرى غيرهم أن مصر قضى عليها إلى الأبد، وأن أبناءها ليسوا كغيرهم ...

واختلاف الآراء بين المصريين فى هذه المسألة الجوهرية الحية هو داء من أكبر أدواء مصر التى يجب العمل لشفاء الأمة المصرية منها . فان اليائسين من الله ومن الأمة تراهم لا يهتمون أبدا بأمر من أمور الوطن ،

بل يسخرون من كل العاملين على إحيائه وإعلاء شأنه . فهم فضلا عن تقصيرهم فى خدمة الوطن التقصير الجسيم يعملون على تثبيط الهمم ، وإفقاد العزائم ، وقتل العواطف الحية ، وإنتشار كلمات « موت المصريين » و « جبن المصريين » و « عدم فلاح المصريين » على الألسن ؛ وهى أضر على مصر والمصريين من كل المصائب والبلايا . فاعتقاد الأمة فى نفسها أنها لا تصلح ، وأنها لا تعرف معنى الوطن والوطنية آفة دونها كل الآفات ، وبلية تسهل بجانبها البلايا .

على أننا لو تصفحنا تاريخ مصر نجد أن أبناءها قاموا بأعظم الأعمال ، وبرهنوا على استعدادهم التام لكل تقدم وفلاح ، وأظهروا فى ظروف كثيرة من الشجاعة ما حفظه لهم التاريخ فى صحائفه البيضاء . فكيف يدعى البعض مع ذلك أنهم أمة ميتة لا حرارة بها ، وأنه يستحيل أن يوجد بينهم شعور وطنى صادق ؟ أو ليس من الدلائل الكبرى على حياة المصريين ووطنيتهم أن يوجد بينهم من يعرف حب الوطن بعد أن أخنتهم الحوادث ، ودكت بنيان استقلالهم ؟ من فى أمم العالم يستطيع أن يحمل ما حملت مصر من المظالم والدواهى ثم يبقى عنده شعور وطنى كما نراه ويراه الناس جميعا عند المصريين ؟

نعم إن الأمة المصرية نهضت نهضتها السالفة بهمة قائد عظيم أو أمير عالى الفكر ، ولم تنهض من نفسها بدون حكومة تديرها كما فعلت أغلب الأمم الأوروبية . ولكن ذلك لا يقضى على المصريين أمام العقلاء . فالأمم تحيا بأبنائها ، وكل أمة تقبل النصح والارشاد هى أمة سائرة فى طريق التقدم والسعادة والحرية . ولا يستطيع أحد أن ينكر اليوم أن المصريين أدركوا أن الوطن وطنهم ، والبلاد بلادهم ، وأن الناس سواء أمام الوطن فى الحقوق والواجبات . وهو شعور ينمو يوما بعد يوم نموا ظاهرا . .

وإنى لأعجب ممن ييأسون من قدرة الله ورحمته ، ويتناسون التاريخ

وأمثاله الكبار . فهل أراهم التاريخ أمة دامت على حالة أو دولة بقيت بنظام ثابت ؟ وهل خلدت الدول التى حكمت مصر قبل دولة بريطانيا ؟ كلا ثم كلا ! إن دوام الحال من المحال ، ولا معنى لليأس مع الحياة . وهذه انكلترا نفسها كان يخيل للعالمين فى العام الماضى وقت حادثة فاشودة أنها لا تغلب ولا تهزم أبدا ، وأن دول أوروبا كلها ألعوبة فى يدها . فقضت إرادة الرحمن ألا يحول الحول حتى تقوم الحرب بينها وبين أمة الترنسفال ، وهى كما يعلم الناس أصغر شعوب العالم ، وعدد سكانها لا يتجاوز عدد سكان أصغر المدائن فى انكلترا . وتنتصر عليها جيوش البوير المرة بعد المرة « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله » . فهل بعد هذا دليل على أن اليأس من المستقبل جنون فى جنون ، وأن المستقبل بيد الخالق يدبره كيف يشاء ؟ ...

فالعواطف الوطنية فى الأمة المصرية قوية ، والأمل فى المستقبل عظيم . وما على المصريين الراغبين فى إحياء بلادهم وخدمتها الخدمة الواجبة إلا أن يحاربوا اليأس ، ويقضوا على المطاعن الفاسدة التى يوجهها هؤلاء ضد الأمة المصرية العزيزة . والاخلاص فى محبة الوطن والثبات فى خدمته كفيلان بالنجاح الخ .

* * *

من هذا القبيل كثير جدا من مقالات مصطفى كامل كتبها فى الظروف التى استبد فيها اليأس بقلوب الأمة ، وظهر التراجع والتخاذل عند كثير من قادة الرأى فيها . ولعل من اروع هذه المقالات واحدة له بعنوان (بلادى بلادى) نشرتها اللواء بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٩٠٣) قال فى نهايتها :

لقد كنت أعرف أن لكل تجارة سوقا . ولكنى لم أكن أدرى أن لبيع الأوطان سوقا . فليبع بلاده من شاء التنازل عن الشرف والناموس .

أما أنا فسأستمر بمشيئة الله طول حياتى - ولو بقيت وحيدا أخطب فى الصحراء وأكتب على صفحات الماء - ذلك الذى عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز : مصطفى كامل

ثم ما كاد يأتى يوم ١٩ يناير وهو اليوم الذى أبرمت فى مثله من عام ١٨٩٩ إتفاقية السودان المعروفة حتى بادرت اللواء الى نشر مقال ذكرت فيه المصريين بذلك اليوم المشئوم، واتخذت لهذا المقال عنوانا هو :

يوم ١٩ يناير

(بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠)

ومما جاء فيه :

... وإن أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر، وأسوأ تذكار يهيج فى نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير - يوم تذكار اتفاقية السودان - ذلك اليوم المشئوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كله أن السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل، وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التى صرفت فى سبيل استرداده قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرما وأكبرك بلاء وهما . أجل - كان الأمس (١) تذكار المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التى أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الأسيفة من سماء عدالتهم وإنصافهم . فان كان لكم معاشر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكر الأحياء، واعتقدوا أن حقوقكم فى السودان مقدسة، وأن كل المعاهدات والاتفاقات لا تميت هذه الحقوق أبداً . وعلموا أبناءكم صغارا معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كبارا أو يحافظوا عليها إن استرجعتموها أنتم .

---

(١) صحتها أمس بدون ال ، لان المقصود بها (البارحة) . واما (الامس) بأل فيطلق على أى يوم مضى .

تذكروا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم، وصرفت فيها أموالكم، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء .

تذكروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان، وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم .

تذكروا يا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر، وأنتم بغير السودان فاقدون الحياة . تذكروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرامانات جلالة السلطان الأعظم ومعاهدات الدول الأوروبية . تذكروا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم، وقد مضى على انفصالهما ثلاثون عاما . وما حاجة فرنسا اليهما كحاجة مصر إلى السودان الخ

* * *

وحدث أن زار اللورد كرومر السودان واجتمع هنالك بالموظفين والأعيان وألقى فيهم خطبة أثنى فيها على الموظفين الانكليز، وعلى نشاط الارساليات المسيحية التي جاءت للتبشير بين القبائل الوثنية السودانية، ثم انتقل إلى الحديث عن تعليم السودانيين، ومحاولة إلحاقهم بوظائف الحكومة فقال :

« أما فى السودان فالهيئة الحاكمة الآن هيئة أجنبية . إذ لا يخفى أن المصرى أجنبى عن السودان كالانجليزى سواء بسواء . وكلا الشعبين البريطانى والمصرى يخدم السودان خدمة جليلة ».

ونشرت اللواء هذه الخطبة فى عددها الصادر فى أول فبراير سنة ١٩٠٣ وساءها أن ينعت اللورد كرومر المصريين بأنهم كالانجليز أجانب عن السودان فنشرت مقالا بعنوان :

غريب فى بلاده

جاء فيه :

لم يقرأ أحد من المصريين العارفين لحقوق بلادهم وتاريخها ، المطلعين على مايجرى بين الأمم من التزاحم على السلطة والنفوذ ، والعناية بتقديس ميراث الآباء والأجداد خطاب اللورد كروم حتى قال ما قلناه من أنه سخر فيه من عواطف المصريين وحق مصر وكرامة المسلمين ، وأنه جاء مؤيداً لما قلناه على رؤوس الأشهاد من سنوات مضت من أن الانجليز لا يرومون من احتلال مصر إلا إضاعة كل حق ثابت لها ، واستخدامها ضد مصالحها .

ولو كانت الظروف السياسية اليوم كما كانت فى أول عهد الاحتلال لكنا سمعنا اللورد يملأ الأرض تأكيدا بأن مصر صاحبة الحق الشرعى فى كل ناحية من نواحيها ، وأن المصرى لا ينازع فى السيادة على بلاده . ولكننا الآن فى زمن كشف فيه المحتلون الستار ، ورفعوا الغطاء وأسمعوا الملأ أنهم هنا وهناك بقوة الاغتصاب ، وأن مصر آلة فى أيديهم ضد نفسها . والمصريون بين مستعبد خاضع لارادتهم ، ومتفرج لا يبدى حراكا .

وأى سخرية من حق المصرى أعظم من كون اللورد يعلن أمام أبناء جنسه ويقول القول ليبلغ مسامع الأمم كلها إن المصرى كالانجليزى غريب فى السودان ، غريب فى بلاده . غريب فى تلك الأرض التى امتلأت جهاتها من عظام آبائه ، وشربت أرضها دماء إخوته وأهله وذويه . غريب فى مهد النيل ، غريب بين قومه . غريب فى السودان بعد ذلك الجهاد المشهود والمال الممدود ، والدم الطاهر الذى أهرق فى سبيل حقوق مصر والمصريين . غريب فى بلاد قال عنها غلادستون « إن المصرى بما أنفق فى السودان من مال ودماء مالك له ، ولو فصلت زوابع السياسة بينه وبين مصر » .

فاسمعوا معاشر المخدوعين والضالين أقوال اللورد ممثل الاحتلال وكبير المحتلين فى مصر. اسمعوه يقول، وللبيب أن يفهم مرمى أقواله إن مصر انفقت وستنفق على السودان عاما بعد عام حتى ينتظم أمره ويسعد حاله ويصير جنة دانية القطوف، ثم يطرد منه كل مصرى، ويستقل به الانكليزى دون سواه .

قال اللورد كرومر إن الممولين المصريين تعهدوا بدفع مبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه سنويا مساعدة للسودان. ثم أراد أن يشكر مصر على هذه المنفعة فألقى على أبنائها الموظفين فى السودان تهمة الشك والريب فى استقامتهم وحسن سلوكهم، وهددهم بالمساس بحقوق الجناب العالى الخديوى إذا خالفوا إرادة الانكليز وساروا على غير رغبتهم. وبديهى أنه ليس بعزيز على المحتلين أن يخلقوا من الحوادث البسيطة أسبابا كبارا لتأييد هذه التهمة وإبعاد كل مصرى عن السودان متى جاء الوقت المناسب وتم لهم مايريدون .

وما قصد اللورد من المساس بحقوق الجناب العالى الخديوى إلا حرمان المصريين من التمتع بنعم السودان وخيراته والاستفادة بتلك الشركة المشؤومة بين مصر وانكلتره.

وإذا كانت ظروف السياسة وحالة البلاد قضت على المصريين أن يقفوا موقف المتفرجين على مصائب بلادهم وشقاء أوطانهم، فليكونوا فى هذا الموقف ذوى قلوب تشعر وتتألم، وأفئدة تحس وتتوجع، وعيون تبصر وتذرف الدموع، لأن المصيبة كل المصيبة أن تصب البلايا على بلاد أهلها فى لهو لا يشعرون ولا يتحركون الخ .

* * *

ولعل من هذا القبيل ما قيل من أنه احتفل بمد الخط الحديدى بين الخرطوم وبور سودان، وقام الانكليز بالقسط الأوفر من هذا الحفل الكبير، ولكن المصريين لاحظوا يومئذ أن الخديو عباس لم يحضر بنفسه

هذا الاحتفال، ولا أناب عنه أحداً فى الحضور، ولا حضر كذلك أحد من الوزراء المصريين. فساء ذلك صاحب اللواء وكتب مقالا بعنوان (مصر والسودان) (١) لسنا بحاجة الى اثباته كله أو بعضه.

* * *

قلنا إن من وسائل اللواء فى إذكاء الروح الوطنى فى المصريين الاهتمام بذكرى العظماء والاشادة بحسن بلائهم فى خدمة الوطن. ومن ذلك عناية صاحب اللواء بالدعوة إلى الاحتفال بالعيد المئوى لتولى محمد على حكم مصر. قال فى هذا الصدد تحت عنوان:

العيد المئينى لمؤسس العائلة الخديوية

جاء فيه:

خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بارادتها، وصافحتها للنهوض إلى ذرى العلياء، ونوال المنن والنعماء، واعتمدت عليها فى إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى اليها»

وبعد أن أشاد الكاتب بتاريخ محمد على وما قام به من جلائل الأعمال دعا إلى الاحتفال المئينى لولايته قائلا:

«وهذا التذكار السامى يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠. أى لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهراً، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله إعترافا بفضل محييها، وإجلالا للوطن الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر. فخير ما يحيى الوطنية فى النفوس، ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى. ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون» الخ

---

(١) بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٠٦

وقد نجحت الفــكرة نجاحا رائعا ، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزنيا بالاسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ وهو يوم التذكار المئيني لولاية محمد علي . وكان موضوع الخطبة (عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم) ضمنها ما عمله الرجل لاحياء مصر ، وقارن بين مجدها فى عهده ، وما صارت إليه من الذل والمهانة فى عهد الاحتلال ، وناشد المصريين أن يهبوا لاحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها . وقد كان الاقبال على سماع الخطيب عظيما إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها . وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان . وقوبلت الخطبة فى معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان ، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابي لمراقبة تصرفات الحكومة وتقييد أعمالها

* * *

ثم تأتى الكارثة العظمى كارثة الاتفاق الودى بين انجلتره وفرنسا سنة ١٩٠٤ وينظر الناس في مصر إلى هذا الاتفاق على أنه ضربة قوية صوبها الاستعمار الأوروبى إلى قلب الحركة الوطنية . ولكن اللواء لا يصيبها الذهول الذى أصاب عامة المصريين ، بل سرعان ما تغير خطتها وتطرح فرنسا وغيرها من الدول وراء ظهرها ، وتتجه بكل قوتها إلى الشعب المصرى ، فتعتمد عليه فى بقاء هذه الحركة ، كما تعتمد عليه فى تحقيق آمال المصريين من وراء هذه الحركة. وتتربص اللواء بدعاة الهزيمة فى الأمة ، وتقف لهم موقف الرقيب العتيد الذي يحصى عليهم حركاتهم وسكناتهم ، ويسجل عليهم أقوالهم ، ويلومهم على كل كلمة يراد بها بث الشعور بالهزيمة . من ذلك أن صحيفة من الصحف المصرية هنأت الانجليز بعقد هذا الاتفاق الودى بين انجلتره وفرنسا ، فانبرت اللواء لهذه الصحيفة ، وردت عليها رداً فيه كل معانى السخرية فى مقال بعنوان :

تهنئة غريبة

(بتاريخ الاثنين ١٨ ابريل سنة ١٩٠٤)

جاء فيه :

قامت إحدى صحفنا المصرية التى شيد المصريون بناءها بأيديهم لاعتقادهم أنها كانت الناطقة بلسانهم ، المعربة عما فى خواطرهم ، المدافعة عن حقوقهم ، المذكرة كبارهم وصغارهم بأن الاستقلال يجب أن يكون على الدوام نصب أعينهم . قامت هذه الجريدة تهنىء انكلترا على فوزها العظيم فى المخابرات التى تمت بينها وبين فرنسا بموافقة هذه الدولة على الاحتلال ، وتعهدها بعدم المطالبة بالجلاء . وما معنى هذه التهنئة فى هذا المقام إلا القول لانكلتره « هنيئاً لك بتأييد كلمتك فى مصر وإتساع نطاق حكمك وسيادتك علينا معشر المصريين ! » وما عهدنا من قبل مأكولا يهنىء آكلا بوقوعه فى قبضته واستعداده للقضاء عليه ، وما عهدنا شعبا يفرح بنصرة عدوه عليه ويهنئه بفوزه فى سياسة امتلاكه والتحكم فيه . فما هذا الشعور ؟ وما معنى هذه السياسة ؟ وهل يرجو صاحبها خدمة أمته بقتل عواطفها ، وتدريبها على عدوها المستحكم فيها ، المتصرف فى شئونها تصرف المالك فيما يملك ؟

أنظر أيها الكاتب إلى الشعوب التى أصابها ما أصاب شعبك تجد البولونى وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث يجد ويعمل مفكرا كل يوم وكل لحظة فى بولونيا . يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية ، ويربى إبنه على حبها والتمسك بحقوقها . والفنلندى وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الامة . والايرلندى وقد عارض انكلترا فى ضغطها على بلاده وسلبها لحقوقه ، واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ، ورد الأراضى الايرلندية إلى أصحابها الأصليين .

وأنظر إلى غيرهم وغيرهم لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الاخلاق والصفات وينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير إلا بالشعور الوطنى. فكل عامل على إطفاء ناره محارب لأمته وقومه وذويه. وكل داع اليه مجد فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقي الخالد الخ

* * *

ولقد سبق أن ذكرنا أن صاحب اللواء بلغت به الغيرة الوطنية حداً فقد بسببه كثيرا من أصدقائه وأعوانه فى جهاده. ومن هؤلاء الاصدقاء على سبيل المثال: سعد زغلول. وقد بقيت الصداقة بينه وبين صاحب اللواء على أتمها وأخلصها إلى أن جاء يوم تولى فيه زغلول نظارة المعارف العمومية، وأحس مصطفى كامل فى صاحبه أول الأمر بعض الميل إلى رجال الاحتلال، فحاسبه حسابا عسيرا على ذلك، وكتب فى هذا المعنى مقالات من أهمها هاتان المقالتان على سبيل المثال. أما الأولى فبعنوان:

لا يعرف الوطن من لا وطن له

(١٢ فبراير سنة ١٩٠٧)

لم يصرح فيها باسم سعد زغلول وإنما ساق الكلام. سوقا عاماً حيث قال:

يظن بعض الجهلاء ويتوهم الدخلاء أن انتقاد الكبراء والطعن على المقصرين والخائنين من العظماء وأصحاب المراكز السامية جريمة على الوطن وبنيه، وأن الوطنية الحقة تقضي على صاحبها بأن يستر عيوبهم ويقبل نقائصهم.. فيقول أولئك الضالون والمضلون: ما بال صاحب اللواء يمزق (المجد الكاذب) لبعض كبراء مصر من أبناء جنسه ودينه؟ أهذه هى الوطنية؟ كيف يدعى كفاءة المصريين لحكم أنفسهم بأنفسهم، ويقضى بقلمه على أفراد من عظماء المصريين؟ الى آخر ماجاء فى هذه المقالة

وأما المقالة الثانية من المقالات التى هاجم فيها سعد زغلول ففيهاصرح باسمه ووجه الخطاب اليه حيث قال بعنوان :

الحقيقة المرة

(بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧)

يتوجع سعادة ناظر المعارف لأنى إنتقده وأريد تقويمه وأدله إلى طريق الشرف الحقيقى لا الشرف الموهوم . وما هو بأكبر من سيدنا عمر ، وما أنا بأحقر من راعى الابل .

فاسمع يا سعادة الناظر الحقيقة المرة : —

إنك كنت قبل تعيينك وزيراً تشكو مما نشكو منه ، وتتألم لما نتألم منه ، بل سبقتنا فى الشكوى والتألم والانتقاد والسخط عقب حادثة دنشواى. وسمعنا منك من الطعن على الاحتلال وسياسته ما لم نسمعه من إنسان . وكنت تقول إنك تنوى بيع كل أملاكك ومبارحة هذا القطر ، لأنك سئمت المعيشة فى بلاد أحكامها ما نرى . فما ارتقيت الوزارة حتى تغيرت مرة واحدة ، وصرت « احتلاليا أحمر » . ولعلك لا تجهل أننا ممن يقولون بأنه لا يمكن للمصرى أن يكون احتلاليا ويبقى مصريا . وبعبارة أوضح أن خدمة الاحتلال ومصر معا ـ ما دامت سياسة الاحتلال هى هى ـ أمر مستحيل . وتعرف كذلك رأينا فى زملائك فى الوزارة . وقرأت مرارا فى اللواء حكمنا عليهم .

ولذلك قلنا لك عند تعيينك ناظرا للمعارف إن أمامك سبلا ثلاثة . فاما أن تكون وزيراً حقيقياً ، أو ترى الأمر محالا فتستقيل . وفى كلتا الحالتين تكون قد خدمت البلاد . وإما أن ترضخ للاحتلال فلا تجد منا إلا نفوراً وعداء .

ولعلك لا تنكر أمام ضميرك أنك اخترت الطريق الثالث ، وأنك جاريت

المحتلين بما لم يكن ينتظر منك . فتركت الجامعة ، وسألك اللواء يومئـذ « كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف ؟ » . وقمت مدافعا عن دنلوب وسياسته فى المعـارف ، فصرحت بسرورك وارتياحك من حالة المعارف فى جريدة الأهرام الغراء ، وخطبت خطبتك المشهورة فى الجمعية العمومية ، فقلت ضد ما نعلم من اعتقادك ، وجرحت الأمة كلها ، وأبيت أن تمد الجمعية بالعمل لجعل التعليم باللغـة العربية . وصرت ترى فى اللورد كرومر سيد البشر ، فلا تقبل طعنا فيه ولا انتقادا عليه . ورأى كل أصدقائك هذا الانقلاب فى طباعك ، وبالغت فى الأمر ، فلم تلتفت إلى عواطف أمتك ، بل جعلت كل عنايتك موجهة لنفسك ومصلحتها ، فقلت عن اللورد كرومر إن له فى قلبك « مكانة عالية من الاحترام » بعد أن سب الاسلام والمسلمين ، ولقب المصريين بالعميان ، وحكم عليهم بالمذلة والهوان إلى آخر الزمان . (١)

وكان الذوق يقضى ألا تقول عن اللورد كرومر هذا القول بعـد طعنه القبيح فى سمو الأمير .

قد يرضى البعض منك أن تعمل الجزئيات والصغائر ، فتعين هذا وترقى ذاك مما يتركه لك الانـكليز . ولـكننا نحن كنا نريد سعدا أكبر ممن نرى : أتعرف ماذا كنا نرجو منك ؟

كنا نرجو أن تضع خطة إصلاح للمعارف شاملة لتعميم التعليم الابتدائى ، وجعله مجانيا ، ولانشاء مدارس تجهيزية فى أنحاء القطر ، وجعل التعليم باللغة العربية ، والاستعانة بالأساتذة الاكفاء الذين لبوا نداءك وطلبوا خـدمة بلادهم . فتركت دنلوب يمزق هذه الطلبات وما حركت ساكنا ، ومكافأة الذين يؤلفون الـكتب النافعة للتعليم وإرسال الارساليات فى كل أنحاء أوربا .

---

(١) راجع خطبة اللورد كرومر ورد السيد على يوسف عليها وذلك فى الجزء الرابع من كتابنا هذا ص ١٧٣ - ١٧٥ ، ص ٢٣٧ - ٢٥٠

فاذا قبل الاحتلال خطتك كنت الوزير الذى يشار اليه بالبنان . ونحن نعتقد أنه كان مضطرا لقبولها للظروف الاستثنائية التى تعينت فيها . وإن رفضها إستقلت وأعلنت للأمة أسباب إستقالتك ، وبرهنت للملأ كله أن فى المصريين من يضحون بالمناصب حبا فى الوطن ومصالحه .

ولـكنك وجدت « محالا » اتباع هذه الخطة ، فوجدنا « محالا » قبول ما عملت والتمدح بما أتيت . لأن مبدأنا الذى نعرفه يقضى كما قدمنا باساءة الظن إلى آخر حد بمن يجارى المحتلين ضد مصالح الأمة .

يدفعك الغضب إلى القول بأنى لا أحب أن أرى فى البـــلاد عاملا يذكر بحبها والسعى لخيرها غيرى . فهل هذا اعتقادك الصحيح إذا سكن غضبك ورجعت إلى نفسك ؟ أهـــذا ما كنت تقوله بأعلى صوتك قبل تعيينك وزيراً بساعة واحدة ؟ وكيف دافعت فى اللواء عن المرحوم المنشاوى باشا وأطريته ووقفت ثنائى عليه لما وهب هباته الجسيمة للتعليم بعد أن كنت ألد خصومه ؟ وكيف مدحت كل خادم لهذه البلاد قام بالواجب خير قيام ؟ ولماذا كنت أرى فيك المستشـار العادل والقاضى المتمسك بالحق ولا أرى فيك اليوم الوزير الذى تريد أن تمثله للامة بغير حق ؟

فلا يدهشنك منى أن أكون اليوم على خلاف معك فانى عدو لـكل صديق للاحتلال ما دامت سياسة الاحتـلال هى هى . ولا تهمني الصغائر ، بل أطلب الـكرامة والوطنية الحقة قبل كل شىء ، فهما الجوهر وما عداهما العرض . ولعلك لا ترى اليوم ما أرى ، ولـكن سعد بك زغلول كان يرى هذا الرأى من قبل .

فاسمح لى أن أكون معه ولا أكون مع الوزير .

* * *

ثم يأتى يوم دنشواى وما أدراك ما يوم دنشواي ، فقد صال فيـــه

الرجل وجال ، ولم تكفه يومئذ صحيفة اللواء الوطنية ، وزميلتاها الفرنسية والانجليزية ، بل سافر إلى أوروبا وأخذ يكتب المقالات المثيرة فى الصحف الكبرى ، وذلك فضلا عن الأحاديث الكثيرة التى سعت إلى أخذها منه بعض هذه الصحف ، والخطب الطويلة التى ألقاها الرجل فى كبريات المدن الأوروبيه ، وبحسبنا هنا أن نشير إلى مقالة واحدة نختم بها هذا الفصل. ويحسن بنا أن نورد هذا النموذج الاخير كما ورد فى الصحف ، وهو كالآتى :

الى الامة الانكليزية والعالم المتمدن

(بتاريخ ١٨ يوليه سنة ١٩٠٦)

وافتنا الأنباء التلغرافية فى الأسبوع الماضى منبئة بأن صاحب اللواء كتب فى جريدة « الفيجارو » الشهيرة مقالة ضافية عن مسألة دنشواي وتهمة التعصب الدينى المزعوم . وقد دوت فى أوربا دويا عظيما وتناقلتها الجرائد الخطيرة على اختلاف لغاتها ، واهتم بها الساسة الانكليز بنوع خاص .

وقد جاءتنا « الفيجارو » الصادرة فى يوم ١١ الجاري — وهو يوم تذكار ضرب الاسكندرية — وفى صدرها هذه المقالة الكبرى. وكانت الفيجارو قبل ذلك بأيام وافقت على خطبة السير ادوارد جراى فى البرلمان الانكليزي ، فلم يكن فى استطاعتها الرجوع عما قررته . ولذلك تركت مسؤولية المقالة التى نحن بصددها لصاحب اللواء .

وحسبنا أنها نشرتها بكل عناية واهتمام . وقالت إنها « بليغة ومؤثرة » . وأذاعتها فى أنحاء العالم ، فكأن كل الجرائد الخطيرة نشرتها لا جريدة واحدة .

وإلى القراء ترجمتها بالحرف الواحد :

« لقــد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى دنشواى ، تحركت بسببها عواطف الانسانية فى العـالم كله . وقام أحـرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار فى انـكلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمع بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس كهذا .

وإنه لمن الواجب على الذين يشفقون حقيقة بالانسانية والعدالة أن يدرسوا هذه المسألة ويحكموا عليها . وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها .

فقد ترك ضباط من الانـكليز فى يوم من أيام يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية وقصدوا إلى صيد الحمام فى الأملاك الخصوصية للأهالى .

فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالى استاءوا فى العام الماضى من صـيد الضباط الانـكليز لحمامهم ، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد .

ورغماً عن هذا الانذار فان الضباط أخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة وحرق غيط . فاجتمع الفلاحون من كل مكان ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانـكليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين ، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانـكليز . وقد تخلص أحد المجروحين وهو الـكبتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس . ثم ما علم العساكر الانـكليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية مجاورة لدنشواى ، وقتلوا فلاحا بدق رأسه .

هذه هى الوقائع . ولـكن ما علمها أصحاب الأمر من الانـكليز حتى فقدوا الرشد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم . وبدلا من أن يعتبروا الحادثة بسكون جأش كـكل المشاجرات والمعارك ،

بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة . فلم تكن العدالة هى المنشودة فى المسألة ، بل الانتقام الفظيع !

ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الانكليزى قبل المحاكمة بأسبوع مذكرة رسمية أثقلت فيها كواهل المتهمين بالتهم ، وقصدت صراحة إلى التأثير على المحكمة والرأى العام . وبلغ من احتقار إحدى الجرائد القائمة فى خدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواى .

وقد راع الشعب كله ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه .

وقد اجتمعت المحكمة فى هذه الظروف يوم ٢٤ يونيه وأى محكمة ! محكمة استثنائية لا دستور لها ولا قانون يربطها . لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال .

محكمة الأغلبية فيها انكليز ، ولا تستأنف أحكامها ولا تقبل العفو ! وإن الدكريتو الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ بناء على طلب اللورد كروم وضغطه — ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أقل مقاومة — ذلك الدكريتو يحمل قراءه على الظن بأن الجيش الانكليزى الذى ألقت اليه انكلترا أمر تأييد الأمن فى مصر فى خطر مستمر جعله فى حاجة لمحكمة كهذه أو لآلة إرهاب ؟

وقد قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية . وتبين أن الضباط الانكليز هم الذين هيجوا الفلاحين بصيدهم فى أملاكهم ، وبجرحهم إحدى نسائهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانكليز بصفتهم صيادين يختلسون الصيد لا بصفتهم ضباطا بريطانيين . وأعترف أمام المحكمة أطباء انكليز منهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكابتن بول مات بضربة

الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الموت .

ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم . وأبت سماع أقوال أحد من رجال البوليس أكد أن الضباط الانكليز أطلقوا أعيرة نارية على الأهالى . وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة .

وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة . وبالجلد على خمسة . وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول !

وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم ينقض إلا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم .

ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيه جىء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق والثمانية المحكوم عليهم بالجلد من شبين الكوم مديرية المنوفية إلى قرية الشهداء التى تبعد أربعة كيلو مترات عن دنشواى ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المريع .

وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ يونيه جىء بهم إلى دنشواى . وكان أصحاب الأمر من الانكليز صمموا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها !

وقد نصبت المشانق وآلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر . وأحاطت عساكر (الدراغون) الانكليزية بالمحكوم عليهم . والتفت السوارى المصرية حول الانكليز . وتولى المستر متشل ومدير المنوفية أمر التنفيذ . وقد تقدم إليهما ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده

لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضا قبول هـذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه إنسان !

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانـكليزية خيولها ، وأشهرت سيوفها ، وبدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق . فشنق رجل ، ولبث أعضاء عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم على بعـد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب . وجلد اثنان أمام الجثة !

وتـكرر هذا المنظر ثلاث مرات !!!

واستمر ساعـة من الزمن منظر وحشى مهيج للعواطف ذرف فيـه بعض الحاضرين من الأوروبيين دموع الحنان والنفور مما رأى . وذهب كل واحد منهم وهو يكرر كلمة أحد المشنوقين :

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! »

إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا . وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية .

وقد عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عنـد انتشار أخبار تنفيذ الحكم فى دنشواى . وقد كان يستحيل على أعداء انكلترة الوصول إلى هذه النتيجة بعد جهاد خمسين عاما . ومن العجيب أن يكون الموجدون لها هم عمال الانكليز !

وقد انشأ الشعراء المصريون على حـكم دنشواى أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الـتى أهينت فيها المدنية والانسانية بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس .

وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الانـكليزية نفسها والعالم المتمدن عما إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادىء العدالة وشرائع الانسانية إلى هذا الحد ؟ جئت أسأل الانـكليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا

لنا عما إذا كانوا يرون مد النفوذ الأدبى والمادى لانكلترا فى مصر بالظلم والعسف والهمجية ؟

جئت أسأل الذين يرفعون أصواتهم عالية ذاكرين الانسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط - إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة — أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد المدنية الأوروبية فى أعين الشعوب الشرقية .

جئت أسأل الأمة الانكليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما إلى قوانين استثنائية ، ووسائل همجية ، بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهى كرامة الانسان .

إنى أعجب فى إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانكليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت فى مصر .

ولكن لما رأى السير ادوارد جراى أن الرأى العام أنقاد لهم ، وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر حين وقف فى مجلس العموم وتكلم عن التعصب الاسلامى المزعوم فى مصر ، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح أن لايشتغلوا بمسائل مصر حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، أو بعبارة أخرى يضعفوا اللورد كرومر القادر فيها على كل شىء أمام خطر صرح علنا بأنه موهوم .

إن هذا الخطر ليس فى أيدى أصحاب الأمر من الانكليز إلا وسيلة لتبرير الفظيعة الحديثة وفظائع أخرى فى المستقبل القريب .

على أنه لا وجود لهذ الخطر . وما القصد من تلك الفظائع إلا إحداثه . وإنى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لاوجود للتعصب الدينى

فى مصر. نعم — إن الاسلام سائد فيها، لأنه دين الأغلبية العظمى. ولكن الاسلام شىء والتعصب شىء آخر.

إن السير ادوارد جراى انخدع فى هذه المسألة. وإنى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى:

هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع إنكلتره أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية، مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم!

هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان هناك تعصب حقيقة؟

ولماذا لم يحدث ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير ادوارد جراى معارك كمعركة دنشواى فى أثناء مسألة (طابة) حين كانت الأغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا مع أن الجنود الانكليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان؟

لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل إفاضة وبيان أنه لادخل للاسلام فيها، فان الضباط الانكليز وجدوا من بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدا.

إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا فى المسألة. وإن مصر على بعد يومين من أوروبا. فليأت اليها الانكليز المحبون للعدالة والراغبون فى عدم ثلم الشرف البريطانى. ليذهبوا إلى المدائن والقرى، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين وكافة المصريين، وليقتنعوا بأنفسهم أن الشعب المصرى ليس متعصبا أبداً، ولكنه ينشد العدالة والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب لا كقطيع من الأغنام. وهو يعمل لنجاح هذا المطلب بكل وسيلة.

أجل — إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته. وذلك أمر لا يمكن

إنكاره اليوم . وهو يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب وهو طلب غير مبالغ فيه أبداً.

ولقد تكلم السير ادوارد جراى عن حماية الأوروبيين ضد المصريين . ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين بمصر ؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الاجنبية ؟

ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الأجانب يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم يقتلون ويجرحون المصريين ، ثم يفلتون من أيدى المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الانكليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى ، والضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون فى السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا إن البرلمان والرأى العام فى انكلتره يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضا .

ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما اشتغل البرلمان بمسائل مصر ، واحتج على أعمال وحشية كهذه حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بأن التعصب مخيف على شواطىء نهر النيل ، وإنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت . وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف .

ولذلك يقضى شرف الأمة الانجليزية عليها بأن تزن الأقوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضيـــة التى أمامها الآن بكل استقلال .

لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأن الأمراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال ، لأنه سلبهم سلطتهم ؛ بخلاف الفلاحين فانهم يحبونه حبا جما ، ويدعون بدوام العصر الحاضر .

وبناء على ذلك فانه إذا لم يعتد فلاحو دنشواى على الضباط الانكليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة ، ويحق للعالم كله أن يقابلها بمزيد السخط . وإذا كان الأمر بالعكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر أن يتعرف بأنهم يمقتون الاحتلال ، وأن إدارة جنابه أدت إلى فشل ليس له مثيل . ويحق عندئذ للمستر (ويلون) أن يقول مؤكدا « إن خطة السير ادوار هي أتعس شرح لمركز انكلترا وسياستها فى مصر » .

على أن كافة الذين يقطنون مصر ويحبون الصدق والحقيقة يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا ثمرة حركة عدائية ضد الأوروبيين ، وأن المصريين هم أكثر أمم الارض إعتدالا وتسامحا .

إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير على الرأى العام فى مصر واضحة جلية . فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا ، وتعريفه حقوقه وواجباته ، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم . وإننا أدركنا من أكثر من قرن إنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية . ونحن أول شعب شرقى صافح أوروبا . وإننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه . وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال أحترام العالم وحرية مصر .

ومقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا . ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد .

وإن إنعطافنا نحو الشعوب الاسلامية الأخرى طبيعى ولا تعصب فيه . وإنه لا يوجد مسلم متنور واحد يظن لحظة واحدة أن من الممكن إجتماع الشعوب الاسلامية فى عصبة واحدة ضد أوربا . والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوروبى والمسلمين .

ولا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العالم والفكر الواسع الراق .

وإن لمصر مكانا خاصا بها فى الشرق . فهى التى وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية ، وجعلت فيها طبقة راقية الفكر . وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سريعا . ومن المستحيل أن تحكم مصر — وهذا حالها — كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق أفريقيا وليس بينها وبين أوربا اتصال .

ألم ير الناس الانكليز ينفعلون ويتهيجون ضـــد ما يجرى فى جهات الكنغو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون بحدوث أفظع الجرائم فى مصر ؟

إن من الواجب على أوربا كلها أن تهتم بمصر . فان مصالحها فيها جسيمة ، والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة بها .

وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى تهييج الشعب المصرى ، وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية .

وإننا إنما نطالب بالعـدالة والمساواة والحرية . ونطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة . ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدالة فى انكلترا إلا أن يكونوا معنا ، ويطلبوا مثلنا أن لا تكون مصر التى وهبت العالم أجمل وأرقى مدنية أرضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلاداً تستطيع المدنية والعـدالة أن تبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة !

مصطفى كامل

* * *

(وبعد) فربما أطلنا على القارىء بكثرة النماذج التى عرضناها فى هـذا الفصل . وعذرنا فى ذلك أننا أردنا أن نعرض عليه صورة واضحة من هذا القلم الذى وقفه صاحبه على الدفاع عن الوطن وكرامة الوطن .

ومع هذا وذاك فاننا لم نستطع أن نفى الرجل حقه من الوصف ، ولا استطعنا أن نقدم النماذج الكافية للبرهنة علي بلائه فى ميدان الوطن والوطنية

* * *

واختار الله صاحب هـــذا القلم إلى جواره فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فمضت اللواء فى جهادها مستعينة فى ذلك بالحزب الوطنى ورجاله . وقد نجح الحزب الوطنى نجاحا تاما فى القضاء علي الخلافات المذهبية فى مصر ، ثم نجح الحزب وصحيفته نجاحا تاما وفى أمور ثلاثة أخرى :

أولها — المطالبة بالدستور . فلم يزل بولاة الأمور حتى شهدت مصر اجتماع مجلس الشورى فى ٣١ اكتوبر سنة ١٩٠٨ . وفيه أثيرت مسألة المطالبة بانشاء مجلس نيابى على وجه السرعة ، بشرط أن يكون كأحدث المجالس النيابية فى أوربا .

وثانيها — اشتداد الحملة على بطرس غالى باشا الذى تولى الوزارة بعد مصطفى فهمى باشا . وقد أساءت هذه الحملة أيضا إلى الخديو نفسه . ثم ازداد اللواء حدة منذ تولى الشيخ عبد العزيز جاويش تحريره إبتـــداء من (٣ مايو سنة ١٩٠٨) فحمل على الحكومة المصرية بصفة عامة ، وعلى دنلوب المستشار الانجليزى لوزارة المعارف بصفة خاصة ، وانتقد خطة الحـــكم المصرى فى السودان بوجه أخص . واضطرت الحكومة المصرية أمام هذه الحدة البالغة من جانب الشيخ جاويش أن تقرر العودة إلى قانون المطبوعات الصادر فى سنة ١٨٨٢ وإعادته فعلا فى ٢٩ مارس سنة ١٩٠٩ ولكن هذا القانون كان كعود الثقاب أحـــدث الحرائق الهائلة فى الأوساط الوطنية والصحفية ، وراحت الصحف المصرية وعلى رأسها اللواء تشن الغارات المتوالية على الحكومة بسببه .

وأخـيرا سجلت اللواء لنفسها نصراً كبيراً على الحكومة فى الأمر الثالث والأخير وهو .

ثالثها — رفض المشروع الذى كان يهدف إلى مد إمتياز قناة السويس . غير أنه فى أثناء مناقشة المشروع حدث أن عمد ابراهيم الوردانى إلى إغتيال

بطرس باشا غالى . وكان يومئذ رئيس الحكومة المصرية . وقتل فعلا فى ١٠ فبراير سنة ١٩١٠ . وكان من أثر هذا الحادث أن صدرت ثلاثة قوانين ضيقت من حرية الصحافة . غير إنه بالرغم من صدور هذه القوانين مضت اللواء قدما فى معارضة الاحتلال والحكومة فى وقت معاً. فنشرت مقالا بعنوان « الزراعة والصناعة فى عهد الاحتلال بين مصر والهند » أورت فيه إحصائية دقيقة توضح البون الشاسع بين عهدين، هما عهد ما قبل الاحتلال وعهد ما بعده. فقامت الحكومة من جانبها بانذار اللواء، فهاجت معظم الصحف على هذا الانذار ، وهاجمته واستمرت اللواء فى كفاحها الموفق ونضالها المجيد حتى وقع خلاف بين ورثة مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وانتهى الأمر بالحجز على مطابع الصحيفة ، نخسرت الحركة الوطنية خسرانا عظيما .

وعلى أثر مقال حاد لمحمد بك فريد فى موضوع صندوق التوفير والنقابات الزراعية عطلت اللواء ، واختفت من ميدان السياسة ، بعد أن أبلت فى ميدان الحركة الوطنية من البلاء الحسن ما لم تبلغه صحيفة أخرى من الصحف فى مصر .

الفصل الثامن

اللـــواء والمجتمع المصرى

نتصفح جريدة اللواء فى السنوات الثمانى الأولى من حياتها كذلك فنجد لهـا عناية تامه بالمجتمع المصرى من جميع جوانبـه . ولا غرابة في ذلك فقد كان صاحب اللواء رجلا كثير الأسفار ، وكانت له عين يفتحها على وجوه التقدم فى البلاد الأوروبية التي يختلف اليها ، وكان له ذهن يعى كل ذلك ، وقلب فياض الاحساس ينبض بالغيرة على مصر ، ويتمنى على الدهر أن يراها بلغت ما بلغته أوروبا .

على أن صاحب اللواء كان لا ينسى فى أثناء ذلك أن لمصر شخصية خاصة ، وأن لهذه الشخصية طابعاً خاصاً . ومن ثم كان الرجل ملهما فى كل ما اتجه اليه من إصلاح إجتماعي . وكأن إصلاحه مطابقا فى أكثره للطابع الذى تمتاز به هذه الشخصية المصرية . ومن ثم كتب له النجاح فى هذا الميدان الاجتماعى كما كتب له فى غيره من الميادين الاخرى .

ولنا أن نسرع هنا فنقول إن أكبر مسألة عنيت بها اللواء فى عصر مصطفى كامل هى مسألة التعليم ، وأن أكبر موضوع عنى به صاحب اللواء من موضوعات التعليم إنما هو موضوع اللغة العربية باعتبارها اللغة القومية للامة المصرية . ومن أجل ذلك دافع الرجل عنها أصدق دفاع ، وجرى فى ذلك على طريقة أستاذه النديم وطريقة الشيخ محمد عبده . ثم أضاف صاحب اللواء إلى كل ذلك دفاعه الحار عن مدرسى اللغة العربية . فقد أدرك يومئذ أن المحتل حين أراد شراً بالعربيـة هبط بمدرسيها إلى مستوى أقل من

مستوى زملائهم ممن يشتغلون بتدريس المواد الأخرى . ومتى هان مدرسو اللغة القومية على أنفسهم فقد هانت هذه اللغة معهم ، واستخف الناشئة بها وبهم .

وكان من مظاهر العناية التامة من جانب اللواء بأمور التعليم أن تصدت هذه الصحيفة لنقد ناظر المعارف المصرى سعد زغلول ، ونقد المستشار الانجليزى لهذه النظارة ، وهو المستر دنلوب ، ونقد كثيرين من موظفى هذه النظارة بعد ذلك .

وأن قارىء المقالات العديدة التى نشرتها اللواء فى موضوع التعليم ليحس برغبة ملحة فى أعماق مصطفى كامل فى أن يبنى التعليم المصرى على أساس من القومية المصرية ، وأن تعدل نظارة المعارف عن سياستها التعليمية التى هى من وضع رجال الاحتلال .

على أن صاحب اللواء لم يكن ينهج فى ذلك خطة صاحب المؤيد فى الاعتراف ببعض حسنات عهد الاحتلال ، وذكر شىء من مآثره على التعليم . فقد اعترف صاحب المؤيد للاحتلال الانجليزى بأنه أصلح مايسمى (بالتعليم الأولى فى مصر) وهذا حق فقد نظم الكتاتيب ، وعمل على إنشاء المدارس التى تخرج (المعلم الأولى) ليحل محل الشيخ القديم الذى كان يقوم على تعليم الصبية القرآن الكريم ، وهو شخصية معروفة فى تاريخنا المصرى باسم « سيدنا » .

غير أن مصطفى كامل — بدافع عن حماسته ووطنيته — لم يكن من خطته الاعتراف ولو بالقدر الضئيل من الفضل لرجال الاحتلال على التعليم . وهذا أمر إن أجازته الوطنية المصرية ودعت إليه الحركة القومية فان البحث العلمى لا يرضى به ، بل يؤثر عليه أسلوب السيد على يوسف فى إنتقاد الانجليز ، وهو أسلوب يقوم على ذكر حسناتهم ، كما يقوم على نقد عيوبهم على أن كلا من الرجلين (على يوسف ومصطفى كامل) كان يكمل صاحبه

من هذه الناحية — وأعنى بها ناحية النقد الموجه إلى سياسة التعليم، كما كان يكمله فى غير ذلك من وجوه الاصلاح الأخري .

وإن ننس لا ننسى لصاحب اللواء أنه كان من أول الداعين فى مصر لعقد مؤتمرات التربية . وقد أعد عدته فعلا لواحد من هذه المؤتمرات تم انعقاده فى نوفمبر سنة ١٩٠٧ .

على أن هذه الجهود المثمرة من جانب اللواء كانت تؤازرها جهود أخرى قيمة من جانب الصحافة المصرية ، ومن جانب الجمعية العمومية وكبار الشخصيات الوطنية والشرقية . ومن هؤلاء على سبيل المثال : محمد كرد على — وقد دعا إلى إنشاء المجمع العلمى ، وفريد وجدى — وقد دعا إلى إنشاء مدرسة للعلوم العالية لطلبة العلم الدينى الاسلامي ، ويوسف البستانى — وقد دعا إلى تأليف جمعية لترقية اللغة العربية . ويطيب لنا أن نعيد هنا ما ذكرناه فى الجزء الخاص بالسيد على يوسف من إنه كافح فى الجمعية العمومية من أجل اللغة العربية . وما زال على يوسف بصديقه سعد زغلول إذ ذاك حتى أقنعه بضرورة جعل التعليم فى المدارس المصرية بهذه اللغة .

* * *

وهكذا كانت مسألة التعليم من أهم المسائل التى عنيت بها جريدة اللواء كما رأينا وتأتى بعد ذلك فى الأهمية مسألة التجارة والصناعة القومية . فقد عنيت بهما جريدة اللواء ، وطفقت تشجع المصريين على اقتحام هذه الميادين. وأعان على ذلك ماقلناه من أن صاحب اللواء كان كثير السفر إلى البلاد الأجنبية ، كثير الغشيان لمعارضها ومصانعها ومحافلها فكانت الغيرة تدب فى قلبه دائماً على مصر ، وكان الأسى يملأ نفسه على تأخرها . وكان يدرك بثاقب بصره يومئذ أنه إذا أريد بمصر أن تنهض نهضة تبلغ بها شأو الأمم الأخرى فلا سبيل إلى ذلك إلا بالصناعة . فالانقلاب الصناعى هو الذى قضى على طبقة الملاك الزراعيين فى أوروبا، وهو الذى غير وجه الحياة فى ذلك الجزء

من الدنيا ، وهو الذى قاد تلك البلاد إلى ميادين جديدة للعلم والحضارة . فأن أرادت مصر أن تصل إلى شىء من ذلك فعليها (بالتصنيع) الذى تستبدل به حياة بحياة ، ونظاما من نظم المجتمع بآخر ، وطريقة فى سياسة العيش بأخرى .

* * *

وتأتى بعد ذلك عناية اللواء بموضوع الجيش المصرى ، والجندية المصرية ، وموضوع البوليس المصرى ، والأمن العام فى الأقاليم ، وموضوع النوادى العامة وحق المجتمعات الراقية فى إنشائها وإدارتها . وكان من أظهر النوادى المصرية فى ذلك الوقت (نادى المدارس العليا)

كانت اللواء تفهم أن هذه الأمور كلها بأيدى الانجليز ، وأن هؤلاء كان لا يعنيهم الاصلاح الحقيقى قدر ما تعنيهم المحافظة على هيبة الاحتلال البريطانى ومكانته فى نفوس المصريين ولذلك وجدت هذه الصحيفة مشقة كبيرة فى هذا السبيل ، ولكنها طفقت تجاهد فى ذلك جهاداً طويلا حتى كتب لها الفوز فى نهاية الشوط .

نعم إن اللواء كان عليها أن تقف للاحتلال بالمرصاد . وقد زعم رجاله فى مصر يومئذ أنهم إنما أتوا إلى مصر ليأخذوا بيدها فى سبيل الاصلاح المادى والاصلاح المعنوى . فشرعت اللواء تراقب أعمالهم باهتمام ، وتحاسبهم حسابا عسيراً على هذه الأعمال ، وتفسر حركاتهم بما ينبىء عن يقظة هذه الصحيفة وحسن فهمها لألاعيب الانجليز . وسترى من النماذج الصحفية التى نوردها فى هذا الفصل مايدلنا على ان اللواء كانت — بدافع من حرصها على المصلحة الوطنية — أميل إلى سوء الظن بتلك السياسة البريطانية فى معظم الأحيان

ولعل أخطر ما كان المحتلون يرموننا به من التهم طعنهم فى كفاءة المصرى لادارة بلاده . وهنا انبرت اللواء لهؤلاء فردت عليهم وذادت عن كرامة المصريين ، وحمت ظهورهم من سوء معاملة المحتلين ، وسخرت من تفضيل

الموظفين البريطانيين الذين كانوا يتكبرون على شيوخ مصر وأعيانها فى ذلك الحين .

ومن المسائل التى شغلت بال الرأى العام فى المجتمع المصرى يومئذ مسألة (السفور والحجاب) ومسألة (تعليم المرأة) . أما الشق الأول من هذه القضية — ونعنى به السفور والحجاب — فقد كان لجريدة اللواء رأى صريح فيها . وخلاصة هذا الرأى أن المرأة المصرية لا ينبغى لها أن تذهب فى محاكاة المرأة الأوروبية إلى حد تقليدها فى ترك الحجاب جملة واحدة . ومن ثم أخذ كثيرون من محررى هذه الصحيفة يهاجمون السفور مهاجمة شديدة ، وعارض الكثيرون منهم آراء قاسم أمين فى هذا السبيل . على حين انتصرت (الجريدة) لصاحبها الاستاذ أحمد لطفى السيد — وهى لسان حزب الأمة — لآراء محرر المرأة . وبقى الرأى العام فى مصر مشغولا بهذه المسألة إلى يومنا هذا .

وأما الشق الثانى من هذه القضية — وهو تعليم المرأة — فقد أجمعت عليه آراء الأمة ، ولا نعرف أن صحيفة من الصحف شذت عن هذا الاجماع بحال ما . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن رفاعة رافع الطهطاوى كان أول من دعا إلى تعليم المرأة ، وأعد لذلك العدة . وبفضله احتلت هذه الفكرة مكانها اللائق بها فى برامج التعليم المصرى منذ ذلك الوقت . ولقد دأب اللورد كروم على إيذاء المسلمين فى شعورهم . وكان فيما أورده فى ذلك أنه راح يبكى فى تقاريره حظ الزوجة المسلمة ويقول : ما أشقاها حالا ، وما أكثرها عذابا الخ . فأخذ صاحب اللواء على عاتقه الرد على كروم فى هذه المسألة الأخيرة . وقد أراد صاحب اللواء أن يكون رده على اللورد بجريدة (لتندار إجبسيان) المعروفة . ومما جاء فى رده يومئذ قوله :

... وإنه ليطول بنا البحث فى المقارنة بين مركز المرأة فى الحياة الاجتماعية الشرقية ومركزها فى الحياة الاجتماعية الغربية . ولكن يستحيل

على مثل اللورد كرومر — وهو من رجال السياسة والاجتماع — أن يجهل ما عليه الكثيرات من الفتيات الغربيات فى المدن الأوروبية الكبرى شظفا فى العيش، وعناء فى الكد والسعى، وشقاء ما مثله شقاء. بل مثله لا يجهل أن الرق هو استعباد من بعض الوجوه؛ ولكن هؤلاء الفتيات قد استعبدن من كل وجه.

وغريب أن يعيش اللورد كرومر طول حياته السياسية فى الشرق وهو يجهل ما فى الشريعة الاسلامية من أوامر الرفق بالنساء والدفاع عن ذمارهن، وتوفير أسباب الهناء لهن. يعانى الرجل أشد المتاعب طول نهاره سعياً على رزقه ورزق أهله، فلا يخطر بباله مطلقاً أن يشرك زوجته معه فى عمله، وأن يعطيها قسطها من تعبه. بل هو يرى فى مثل هذا العمل حطا من كرامته ونقصا فى شهامته. أما الغربى فيرهق امرأته عسراً. بل لقد يستريح هو وزوجته تفنى فى العمل إجهاداً.

ومن يدرى لعل العلم والمدنية يتفقان غدا على تخطئة المدنية الأوروبية الحاضرة فى إنهاك النساء بالعمل. وهن إنما خلقن ليربين النسل فى هدوء البيت وسلامه. وهذا هو رأى (شوبنهاور) أعظم علماء الاجتماع بلا خلاف. ولعله يكون غدا رأى جميع العلماء. (انتهى المقال)

* * *

على أن للمجتمع المصرى كما للمجتمعات الأخري آفات كثيرة ومعايب شتى. والمصلحون فى كل زمان يبذلون الجهد فى محاربة هذه الآفات، ومكافحة هذه المعايب. ومن الحق أن يقال هنا كذلك إن المصلحين الاجتماعيين فى هذه الناحية عيال على رجلين من رجالات مصر؛ هما السيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده. فلقد كان هذان الرجلان العظيمان أول رائدين من رواد هذا الميدان، وأعظم فارسين من فرسانه. والذى لا ريب فيه أن أصحاب الصحف منذ يومئذ أخذوا يتابعون السير فى هذا الشوط حتى

كان عهد الصحافة المصرية بالمويلحى الكبير والمويلحى الصغير والسيد على يوسف ومصطفى كامل، فوجدنا هذا الرعيل من الصحفيين يهتمون اهتماماً زائداً بموضوع العادات المصرية والاخلاق المصرية، فيستقبحون منها ما قبح، ويستحسنون منها ما حسن، ويقومون فى أثناء ذلك بالواجب الذي أملاه عليهم الضمير الصحفى.

على أن صحفيي عهد الاحتلال — وفيهم مصطفى كامل — كانوا يتبعون كذلك نفس الخطة التى أتبعها المصلحون من قبل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ونحن نعلم أن أولئك المصلحين من أمثال محمد عبده والنديم كانوا كثيراً ما يكتبون عن الشرق والغرب. ويوازنون بين المدنية الشرقية والغربيـة، يرمون من وراء ذلك إلى نقد المصريين من الناحية الاجتماعية والعقلية والخلقية والحضرية، وينبهون القارىء المصري بشدة إلى أن الفرق بعيد جداً بين الحضارة فى لبها والحضارة فى قشورها. وأن الخطأ كل الخطأ إنما هو فى الأخذ بقشور الحضارة دون اللباب، أو بعبارة أخرى الاكتفاء بمصطلح الحضارة أو عنوانها دون الكتاب!

من أجل ذلك حاربت اللواء كثيراً من عادات المصريين الضارة فى الأفراح والمآتم، وعاداتهم الضارة فى الخمر والميسر وتعاطى المواد المخدرة ونحو ذلك، وعاداتهم الضارة فى المضاربات والرشوة والمحاباة والعزوف التام عن الهجرة الخ

بل إن صاحب اللواء ذهب فى نقده الاجتماعى إلى حد أنه عاب على الأمراء المصريين الذين ينفقون أموالهم فى أوروبا؛ وإذا دعاهم داعى الوطن إلى شىء من البذل بخلوا بعشر هذه الأموال الطائلة على الأمة التى هم منها! (١)

وأكثر من هـذا وأشد إمعاناً منه فى تربية الشعب المصرى وتدريبه

(١) راجع فى ذلك مقالا بعنوان (بين الشاطئين) ١٣ يوليو سنة ١٩٠٣

على احترام نفسه أمام الحكام ما نشره فى اللواء بعنوان « حكام الريف » من مقال نصح فيه الموظفين المصريين فى الريف ألا يبالغوا فى إحاطة أنفسهم بمظاهر الاجلال والعظمة ، فان ذلك مما يبعث فى قلوب العامة رهبة شديدة من الحاكم تميت فيه قوة الدفاع عن الحق والمطالبة بالواجب ! (١)

* * *

وأخيراً وجدنا لجريدة اللواء اهتماماً خاصاً بالقضايا الفردية فى المجتمع المصرى . وأهم هذه القضايا ما كان له علاقة واضحة برجال الاحتلال ، أو كانوا يقحمون أنفسهم فيه إقحاما لغاية من غاياتهم المعروفة فى تلك الفترة .

ومن هذه القضايا على سبيل المثال :

قضية المنشاوى باشا ، وقضية الزوجية وغيرها . أما قضية الزوجية فخاصة بالسيد على يوسف . وقد أشرنا إليها فى الجزء الرابع من أجزاء الكاتب .(٢)

ونضيف هنا أن مشاركة اللواء فى التعليق على هذه القضية كان ذا وجهين :

أولهما — النزاع الصحفى الذى كان مستمراً فى كثير من الأوقات بين صحيفتى المؤيد واللواء .

وثانيهما — الكيد للاحتلال البريطانى الذى أراد أن يقف فى صف السيد على يوسف فى هذه القضية الشخصية لينصره على الشعب المصرى ، وعلى الحكومة المصرية . وبذلك يكسب الاحتلال إلى صفوفه رجلا ذا نفوذ كبير كالسيد على يوسف . ولكن إرادة الشعب المصرى ممثلة فى القضاء المصرى عكست على الانجليز أغراضهم ، وطاحت بآمالهم ، واستطاعت أن ترد السيد على يوسف الي صفوف الشعب الذى علم زعيمه درساً بقى يذكره طول العمر .

---

(١) اللواء في ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٢

(٢) راجع الفصل الثالث ص ١١٠ — ١٢١

وأما قضيـــة المنشاوى باشا فخلاصتها (١) : أنه سرق من مزارع سمو الخديو (بالرجدية غربية) ثوران فى يوم ٢٢ مارس . فاهتمت المديرية بالأمر ولـكنها لم توفق للعثور عليهما . وعندئذ تقدم المنشاوى إلى الخاصـــة وعرض عليها معاونته فى العمل لاعادة الثورين . فقبل طلبه . وقد توصـل بعد البحث إلى معرفة السارقين واسترد الثورين . وقبض المأمور على اثنين من بلدة (شـــبراقاص) انحصرت فيهما التهمة . فتسلمتهما النيابة للتحقيق ، وأودعا ســـجن المركز . وبعد يومين أخذهما المأمور إلى القرشية بلدة المنشاوى باشا بناء على طلب منه ، بعد أن أفهم المأمور أن وجودهما بداره يفيد القضية ، ويعاون فى الـكشف عن خباياها . ثم أعيدا إلى السجن . ولما ذهب رئيس النيـابة لسؤالهما ثانية قررا أنهما عذبا بالضرب فى دار المنشاوى باشا . فأحيلا إلى الـكشف الطبى ، ووجدت بهما آثار الضرب . وتقرر لأحدهما علاج خمسة عشر يوماً ، وللآخر عشرة أيام . فأخذت النيابة فى تحقيق هذه الواقعة الجديدة . وذهب النائب العام والمســـتر ويلسن مفتش الداخلية إلى طنطا للاشراف على التحقيق .

وفى ٢٩ مارس قرر المنشاوى والمأمور وعدة شـــهود أن المتهمين لم يضربا فى داره . ولـكن التحقيق انتهى بالقبض على المنشـــاوى باشا والمأمور ، كما أوقف سعد الدين باشا مدير الغربية وأحيل إلى مجلس تأديب .

« وقد علمت أن وفـــداً من الـكبراء حضر إلى السراى لرجاء سمو الخديوى فى الافراج عن الباشـا نظراً لمكانته . ولـكن جنابه رأى أن يأخذ التحقيق مجراه » .

وفى ١٤ ابريل رفع المنشاوي باشا إلى الخديو برقية بأنه بريء من

---

(١) كما وردت فى كتاب : مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا ـــ القسم الأول ـــ الجزء الثانى ـــ ص ٣٩٠ حوادث سنة ١٩٠٢

تهمة التعذيب ، ويرجاء اهتمام سموه بالأمر . فأوفد إليه أحد رجال السراي لتحقيق شكواه . ولكن سموه كان يعرف أن المنشاوي باشا إنما يعامل هذه المعاملة نظراً لصلته بالسراى الخديوية ، وأن هذه المسألة موجهة للخديو فى شخص المنشاوي باشا . ولم يكن الخديو يريد الاصطدام بالانجليز فى مسألة قانونية .

وقدم المحامى عن المنشاوى باشا تقريراً إلى اللورد كرومر طالباً فيه نفى موكله من مصر ، إذ أنه يفضل النفى على حالة الاذلال التى يلاقيها فى السجن . وانه يعامل معاملة سياسية لا قانونية . فأجاب اللورد كرومر بأن ذلك خارج عن حدود اختصاصه وأن المسألة داخلية بحتة .

وقدم المنشاوي باشا وشركاؤه إلى المحكمة . فأصدرت حكمها فى ٢٥ ابريل بحبس المنشاوي باشا ثلاثة شهور ، والمأمور شهرين ونصفا ، وخادمين من خدام المنشاوى باشا نفذا أمر التعذيب شهرين (انتهى كلام أحمد شفيق)

اهتم رجال الاحتلال بهذه القضية الفردية لأغراض سياسية ، منها حرصهم على أن يظهروا للجمهور المصري ولأوروبا بمظهر الحكم العدل الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم . ومنها حرصهم علي أن يظهروا كذلك بمظهر المدافع القوى عن الديمقراطية التى تنكر الرق وتستهجن كل ما يقترن به من أمر التعذيب بغير حق ، ونحو ذلك .

غير أن وراء هذا الاهتمام أموراً لا تخفى على ذهن القارىء .

منها محاربة الانجليز للخديو فى شخص المنشاوى باشا ، كما صرح سموه بذلك .

ومنها إذلال الكرامة المصرية فى أشخاص كبار المصريين تحت ستار المساواة التامة فى القانون . وقد كان ذلك دأب المحتلين . وكان أكثرهم من الشبان المتغطرسين الذين جلبهم اللورد كرومر من انجلتره . ولقد دعا ذلك كلا من السيد علي يوسف ومصطفى كامل إلى الكتابة مراراً فى صحفهما ، والى الشكوى من

هذه الغطرسة التى يتكلفها شبان الانجليز من الرؤساء لأغراض خبيثة ، من أهمها إفهام المصريين أنهم ليسوا أهلا للحكم الذاتى ، وأنهم خليقون بهذه الوصاية الانجليزية التى يقوم بها الاحتلال الانجليزى ؛ وذلك حتى يبلغوا بالمصريين مرحلة الرشد السياسى والرشد الاجتماعى والرشد الثقافى .

شعرت اللواء بكل ذلك ، وأحس صاحبها بأكثر من ذلك . فاندفع يذود عن كرامة المصريين ، ويكشف فى صحيفته عن نوايا المحتلين . فكتب كثيراً فى هذا المعنى ، وختم فصوله الكثيرة بمقال له بعنوان : (إفلاس الاحتلال) ستأتى الاشارة إليه .

* * *

وكان للاحتلال البريطانى فى مصر موقف شبيه بهذا الموقف المتقدم فى مسألة من مسائل المجتمع المصرى ، هى (مسألة الحج) .

فقد انتشر الوباء فى مصر فى سنة من السنين ، فأوعز الانجليز إلى الحكومة المصرية ، فأصدرت أمراً بمنع الحج فى تلك السنة . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لقلنا أن للانجليز الحق فى إصدار هذا الأمر . ولكن الأمر تعدى ذلك إلى محاولة الانجليز فرض ضريبة على المصريين يؤدونها عند قيامهم بالحج . ونظر الرأى العام فى مصر إلى هذه الضريبة على أنها نوع من الاذلال للمصريين ، وعلى أنها حيلة من الحيل التى يعمد إليها الاحتلال الانجليزى ليحرم المسلمين من أداء فريضة من أهم فرائض الدين . ومن ثم أفسحت اللواء صدرها لعشرات من المقالات التى كتبت فى هذا المعنى ، حتى لقد أصبح لمسألة الحج معنى جديد فهمه اللورد كرومر فيما بعد . فقد فهم أن كثرة إلحاح الكتاب فى هذا الموضوع قد أصبح مظهراً قويا من مظاهر قوة الرأى العام فى مصر . ثم أشارت اللواء إلى هذا المعنى فى كثير من مقالاتها بعنوان (حقوق الأهالى) وعنوان (الحج وسكوت الأمة) وعنوان (معنى احتجاج الأمة) ونحو ذلك .

وكان لصحيفة اللواء موقف كهذا الموقف فى مسألة (سكة حديد الحجاز) وذلك حين أوحى الانجليز إلى المصريين بالامتناع عن الاشتراك بأموالهم فى هذا المشروع. فحذرت اللواء المصريين من ذلك الصنيع. ودل هذا العمل وغيره من الأعمال المماثلة له فى ذلك الوقت على قوة الرأى العام المصرى، وعلى بغضه لكل ما يتصل بسياسة الانجليز فى مصر.

ثم أن الاحتلال الانجليزى فى عهد اللورد كرومر كان يمارس لعبة خطيرة كل الخطورة. وجاء خلف اللورد كرومر فى مصر — وهو السير الدن غورست — فمضى فى هذه اللعبة الخطيرة إلى آخر الشوط. ونعنى بهذه اللعبة محاولة الانجليز التفريق بين عنصرى الأمة، وهما المسلمون والقبط. واتخذ هذا التفريق فى بعض مراحله مظهرا من مظاهر المنافسة الحادة فى ميدان الوظائف الحكومية. وكانت مصلحة السكة الحديدية ميدانا خطيرا لهذه المنافسة. وذلك منذ أوحى إلى القائمين بأمر هذه المصلحة أن يؤثروا فيها الأقباط على المسلمين، وأن يعتمد ولاة الأمور فى ذلك على أوهى الحجج.

وبالفعل سارت هذه المصلحة من مصالح الحكومة المصرية على هذه الخطة الظالمة. وأحدث ذلك فى نفوس المصريين شعورا بالحرج، ووجدوا فيه تحديا لشعورهم الدينى ولكرامتهم القومية. وحمل ذلك اللواء على كتابة المقالات الكثيرة فى هذا المعنى. وهى مقالات تلطف فيها الكتاب المسلمون، وحملوا أنفسهم على الأدب فى كتابتها، وضمنوها إحصائيات كثيرة لعدد المسلمين من المصريين بالنسبة لعدد الاقباط منهم، ولعدد المتعلمين من هؤلاء وهؤلاء. وقد أشرنا إلى محنة قاسية كهذه المحنة عند الكلام عن السيد على يوسف، وذلك فى فصل من فصول الكتاب بعنوان على يوسف والمؤتمر المصرى.(١)

---

(١) هو الفصل السابع ص ١٩١، كتاب أدب المقالة الصحفية فى مصر الجزء الرابع.

ثم أسرف الكتاب المسلمون وانزلق بعضهم إلى الشتائم التى أصابت إخوانهم القبط عن قصد . أو غير قصد . وكان فى وسع الانجليز أن يطفئوا هذه النار الملتهبة ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك رموا فى النار حطبا وصبوا عليها زيتاً . وطفقت اللواء تطفىء من هذه النـــار حينا ، وتشعل بعض أجزائها حينا آخر . فمرة تنشر مقالا بعنوان (الجامعة الوطنية) . وأخرى تنشر مقالا بعنوان (المسلمون والأقباط) — كلمة إلى من يجيدون سماعها) ، إلى أن مات مصطفى كامل ، وخلفه الشيخ عبد العزيز جاويش فى تحرير اللواء ، فوصل بهذه الفتنة إلى أقصاها ، وأخذ الامر حده . ثم جاءت الثورة المصرية عام ١٩١٩ فألفت بين عنصرى الأمة ، ووحدت بينهما . وما زال الأمر على هذه الحال الطيبة إلى اليوم .

* * *

ذلك إذن هو المجال الذى كانت تسبح فيه اللواء منذ أخذت على عاتقها الاهتمام بأمر المجتمع المصرى فى تلك الفترة .

وإذ قد فرغنا من هذا الاطار العام للمقالات الاجتماعية التى نشرتها اللواء فخليق بنا بعد ذلك أن نقدم للقارىء إحصاء مجملا لأهم هذه المقالات فى السنوات الثمان الأولى من حياة اللواء ، أعنى إلى أن حال المـوت بين مصطفى كامل وصحيفته .

ففى السنة الأولى من حياة اللواء نجد عنوانات :

الحج الشريف — احترام الأديان فى مصر — واجبات الوزراء أمام الأمة والأمير — التربية الجنسية — ما هى التربية — اللغة والأمة — حقوق الجيش — بماذا يلام الشعب المصرى — المدارس الأهلية — التقليد — الحجاب الحجاب — أينهض المصريون — الحرية الشخصية فى مصر — حالة الكتاتيب أمس واليوم — لماذا لا نعمل — الحكومة والصحافة فى مصر — كيف تكتسب الفضيلة — المضاربات وعبرتها — مظاهر المدنية الحقة — الحكومة والشركات — فضل الشرق

على الغرب - علة الشرق - كلمات فى الخطابة والخطباء - الوطنى والأجنبى فى بلادنا - أمنية الفلاح - بم نصير رجالا - مصير الصناعة - كتابنا وكتابهم - الخطر العظيم على الشبيبة المصرية - الصنائع فى مصر - الجيش المصرى - كيف تغلب الغرب على الشرق - الجهاد العلمى .

وفى السنة الثانية :

الأمة والأمير — مقارنة بين مدنيتين — المرأة الجـديدة — تحرير المرأة — المرأة الجديدة فى باريس — الصناعة فى مصر — المرأة المسلمة — التربية والتعليم — مصائب الشرق — الاحسان فى الاحسان — حركة علمية بين المسلمين — يقظة أفكار المسلمين — الاتجار فى الزواج — حق الانتخاب فى مصر — المديرون — الداء الأجنبى — أصل تأخرنا — عظماؤنا وعظماؤهم - حاربوهم بالاعراض - تعاسة الفلاح - الحجاب الحجاب - رجاء المنوفية فى مديرها الجديد - الحجاب - عوائد الأمة فى أفراحها - أأفراح أم خراب وأتراح - الحكومة والميسر - حياة الأمم بحياة لغاتها - حالة المتعلمين فى مصر — سلطة العمد فى البلاد — تأثير الدين على الاخلاق — محاربة الخمر — الاجهاز على لغـة البلاد — المرأة والحجاب — الرتب والنياشين — الجهاد فى سبيل العلم — هل للنساء أن يشاركن الرجال فى الأعمال — منزلة الصحف وما يجب أن تكون — أحوال الفلاح — الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما — نظارة المعارف — الجندية فى مصر — التربية والتعليم — البوليس — إحدى نتائج المدنية الغربية — ثمن النصيحة فى مصر — المصريون والنزلاء — الحرية الشخصية والحرية العمومية — سكرتارية المعارف — مدرسة محمد على (دعوة واجبـة الاجابة) — الوظائف والموظفون — لا يعرف الصحة إلا من مرض — الترقى بالدين والترقى بالوسائل المادية — القضاء والقدر — حقوق البلاد على أهلها .

وفى السنة الثالثة :

كفاءة المصرى — ما هى الواسطة التى توصلنا إلى السؤدد والمجد — إلى أين . نسوق أبناءنا — الميراث المقـــدس (يريد اللغة العربية) — الفضيلة والرذيلة فى مصر — الجيش المصرى — همجية المتمدنين — الحرية الشخصية — نحن أحق بصحفنا — السراة عنوان الامة — قواد الجيوش وقواد الأفكار — قوة العقيدة — طنطا وما فيها — لامساواة فى مصر — مسألة المنشاوى باشا (٥ مقالات) — إلى رجال العدالة — الف خطوة إلى الوراء — مناهضة المديرين وماذا يجب عليهم — كلمة عن نظار الأوقاف الأهلية — قضية المنشاوى باشا — هل على جمر أم بميت غمر — فئة أخرى تموت جوعا — لا قانون إذا كان العقاب غاية الحكومة — الحكم فى قضية المنشاوى باشا — كيف يخلف الولد أباه — ماذا يعوز مصر — خطوة كبرى إلى الأمام (أو روح جديدة فى مصر) — الأصل فى تزويرات الفيوم — السر فى تقدم الانجليز — نظارة الزراعة المصرية — امتحـــان الشهادة الابتدائية — شوارع المدينة — التعليم أيها الشاكون — المربيات المربيات — المتاجرة بأوراق اليانصيب — سخرية الغرب من الشرق — الجرائم فى مصر — هذه شدتكم ألا تذكرونها يوم رخائكم (كلمة فى الاقتصاد) — الصيدليات والصيادلة فى مصر — التمثيـــل — الوباء والحج — الخطابة فى المدارس — حكام الريف — البوليس البوليس — رأى على المرأة المصرية — الكوليرا — الكتابة والكاتب — كفاءة المصرى — حقوق النواب فى مصر — الأمن والعدالة فى مصر — المجالس الحسبية — المتحف المصرى — مسألة الحج — فوائد الصوم الصحية — كلمة إلى القائمين بمهمة التعليم — إحتكار الحج (أو المتاجرة بفرائض الاسلام) — مهرجان العلم (أو المؤتمر الوطنى) .

وفى السنة الرابعة :

مياه الشرب — دستور أم استبداد (أو دفاع اللواء عن اللغة العربية وعن التعليم بها) — الحج الحج — مسألة المجلس البلدى — الانقلاب فى التعليم — مسألة الحج (أى الحكومتين الانكليزية أم المصرية) — الوقت والنظام — الحج الحج — الحج فى الاسلام — مابعد هذه النهضة — التعليم فى مصر وشعور الأمة بضرورته — الزراعة فى مصر — ٢٧ حاجا — الجمعية الزراعية الخديوية — الغرباء فى مصر — القضاء المصرى ومجلس النظار — آفات التقاضي — حاجة الشرق إلى تقليد الغرب — التعليم الأهلى ووجوب الاهتمام به — الضباط المصريون (قسمة ضيزى بينهم) — الاصلاح وخطة الدولة — تعليم القرآن الكريم — التعليم فى مصر — الامن فى الأقاليم — الاصلاح والقلاقل — مصر والزراعة — صفحة الامن — المجالس الحسبية والأوصياء — اللورد كرومر والحج — عمران العاصمة — الأمن فى الأقاليم — الاحتلال والتعليم (مدهشات اللورد كرومر) — الضربات الثلاث على مصر والمصريين (الحشيش والمقامرة والمهاجرة) — مريوط وعمرانها — الحج والحجاج — (ماذا عملت الحكومة) — إذا اشتد البياض صار برصاً ، وإن اشتدت المحاباة صارت تعصبا — المساجد والنساء — السكة الحديد كلها عجائب وغرائب — العلم والعلماء فى الاسكندرية — المحسوبية والاحتلال (علاقتها بالسكة الحديدية) — امتحان شهادة الدراسة الابتدائية — المسلم فى السكة الحديدية — المسلمون والأقباط (كلمة يحبون سماعها) — خطباء المساجد كيف تترقي الأمة — الازهر الشريف وعلومه — جناية البوليس على الآداب — شكاوى المسلمين من الأقباط — اللغة العربية وأنصارها — المدارس والمعارف فى مصر — الحركة الفكرية فى مصر — الثروة المصرية — داء الجدرى وداء الجهل .

وفى السنة الخامسة :

آفات التقاضي فى المحاكم الأهلية — تلافى الطاعون ومايخشاه

الزارعون — محاباة الحكومة للشركات — الصحافة فى مصر — كرة القدم فى مصر — العـــدل والمحاكم — الشرق ماضيه وحاضره — متى يستتب الأمن فى مديرية البحيرة — الكلمة الأولى لرجال المحاكم الشرعية — الكلمة الثانية لرجال الحكومة بشأن المحاكم الشرعية — نظارة المالية — افتتاح المعرض الزراعى المصرى لعام ١٩٠٤ — الاحتفال بالعلم : مدرسة مصطفى كامل — مالية مصر — تلاميذ الصنائع والمهندسخانة — التعليم والتربية — الجميل فى مصر — المجمع العلمى المصرى — همجية المتمدنين — مجلس الأوقاف الأعلى — الاعتداء على الأديان فى مصر — ثروة المحاكم وفقر القضاة — فوضي المبشرين — استقلال القضاة — رد على رأى اللورد كرومر — تقتير وأمن ضدان لايجتمعان — أين جمعية الرفق بالحيوان لترى مايحل بالانسان — الفضيلة الأولى بين الأمم — مستقبل صغار المستخدمين - شرف الجندية ومجد الأمم - الحكومة والشركات - استقلال القضاء - الامتحانات العمومية - البلاد فى الصيف - أهم موارد الثروة - الجزاء من جنس العمل (أو قضية صاحب المؤيد) - المجاهرة بالالحاد - المعارف ومدرسة المعلمين - الشعب والأوقاف والحكومة - محاسبة نظار الأوقاف - استقلال الموظفين - الحج والحكومة - رخص لاغلاء - حرية الموظفين والاهالى - اللغة العربية والاحتلال : تقرير عظيم الأهمية (وهو تقرير قدمه حسن باشا عبد الرازق نائب المنيا إلى مجلس شورى القوانين حول مشروع المحاكم الجنائية) — من الرجل العظيم ؟

وفى السنة السادسة :

تربية البنات - مجلس الشورى - الأهالى والأموال الأميرية - اللغة العربية ودول الاسلام - هل تعمل الحكومة فى مصر لخير الشعب ؟ كلا - الوزراء المصريون — همجية المتمـــدنين — المشروع القطنى (بين الأمـة والحكومة — سلوك وزارة المعارف وغلاء التعليم — زراعة الدخان فى القطر المصرى — موقف المصريين بين العلم والسياسة — خطاب إلى حضرات

القضاة فى المحاكم الجنائية الجديدة — أهذا برهانكم يا أنصار غلاء التعليم — الشركات فى مصر — الازهر — معاملة الانكليز للموظفين المصريين — التعليم واللورد كرومر — قضية الفقراء (العلم يتألم والشبيبة تتأوه). بيضة الديك فى نظارة المعارف — تجارنا الوطنيون — مصائب الحجاج ومن أين جاءت — الواقفون والعلماء — مؤتمر المستشرقين — الحكومة وأموال الفقراء — الحكم فى قضية آل رفاعة — مذكرة المعارف لمجلس النظار بتحوير نظام الدراسة الثانوية — الأمة المصرية وشيء من صفاتها — الصحة فى العاصمة — المحاباة داء قاتل — ولاة الامور ورجال الاصلاح — التربية قبل العلم — الاقبال على التعليم — مبدأ حركة فكرية فى مصر والهند — المعرض الزراعى بالمنصورة وتشريف الجناب العالى لافتتاحه — محاربة العلم فى مصر — تقدم الجهاد الفردى فى مصر — تعميم نشر التعليم — الصحافة والأمن العام — الغلاء والمستخدمون .

وفى السنة السابعة

قضية تتجدد (ما بين الأغنياء والفقراء كل آن) — استعداد الأمة للترقى — المهاجرة إلى السودان — رفاهية مصر وتحريرها — المعارف والتعليم ومغالطة الصحف فى البحث — زمن الشدة على الفقراء — مسألة الطلبة — العدل لمن ادخرتموه إن كنتم عادلين — النساء عندهم والرجال عندنا — الجمعية الخيرية الاسلامية — مسألة التعليم — المجلس التشريعى الجديد (أو مشروع اللورد كرومر) — التعليم العالى بمصر — الأزهر والأزهريون — انظروا للأمن العام — الصحافة المصرية فى نظر اللورد كرومر — المجاهرة بالرأى الصحيح — فظائع العدالة فى مصر — كلية عليكرة — ماذا يفيد المال والعلم ضائع — حاجة مصر لترقية الصناعة (وأثرها فى المعرض الزراعى) — آمال البلاد فى ناظر المعارف الجديد — تحرير المرأة وتحرير الرجل — ماذا يريدون من أوقاف المسلمين — نهضة الأمة وحياتها (حديث عن التعليم) —

حياة الصحف بحياة الأمة — البورصة جحيم الطامعين .

وفى السنة الثامنة :

مشروع الجامعة المصرية ومن أين جاءه الفتور — ياولاة الأمور (لفتة إلى الصناعة المصرية) — كتاب جديد عن الشرق والشرقيين — الأهالى يخاطبون النواب فليخاطب النواب الحكام — الرشوة الرشوة وماذا يعمل المديرون — النهضة الوطنية ومسألة التعليم — نظارة المعارف العمومية — على باشا مبارك والتعليم بالمدارس الأميرية — المصريون والنزلاء — الشبيبتان المؤتلفتان (المسلمون والأقباط) — سياسة على باشا مبارك فى التعليم — مغالطة سعد زغلول : بقلم فقيد الوطن على باشا مبارك — رأى على باشا مبارك فى تعليم اللغات الأجنبية — اللغة العربية والتعليم — خمسة وعشرون عاما فى وادى النيل (أيهما محيي مصر وموجدها : محمد على الكبير أم اللورد كرومر ؟) — الجنسية المصرية — الرق فى الاسلام — مسألة اليوم (المدرسون الوطنيون) — يا نظارة المعارف — حديث لناظر المعارف — القرعة ومشايخ الحارات — علم الاقتصاد السياسى — المحاكم القنصلية — علماؤنا وعلماؤنا — الصحف والأحزاب — أخلاق وآداب أم جرائم (مستشفى القصر العينى) — أمة عطشى فكيف لها الورود — كتاب المسيو لامبير (فى أحوال المعارف المصرية) — تعليقات على كتاب الأستاذ لامبير (أكثر من عشر مقالات) — توطيد الأمن — الارساليات العلمية — تعليم البنات — تعليم المرأة — المرأة اليابانية — المحاضرات العلمية ونادى المدارس العليا .

* * *

وإذ فرغنا كذلك من هذا الاحصاء العام فانه يجدر بنا أن نعرض على القارىء موجزا صغيرا لبعض النماذج الصحفية التى نشرتها اللواء فى هذا المجال .

الميراث المقدس (أو اللغة العربية)

(بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٩٠٢)

ومما جاء فيه :

إذا نازعنا الغربيون فى كل أمر من أمور الحياة جاءونا كل يوم باختراع جديد ، واكتشاف مفيد ، وقضوا علينا بسوء التدبير فى سياسة الممالك ، وقصر اليد عن مطاولتهم فى إعـــلان شأنها ، ورفعة قدرها ، فانهم لا يستطيعون أبد الدهر أن يحولونا عن احترام ذلك الميراث المقدس الذى يعتبر المساس به مساسا بالشرف والعرض والناموس ، ألا وهو اللسان !

ألا إنه هو الدرع التى يتقى بها كل خطب ، ونحفظ بها العقيـدة فى الفؤاد ، والدين من خطر الضياع . اللسان هو خزانة التاريخ الملى ، والشرف الأهلى ، ومستودع أسرار حكمة المتقدمين والمتأخرين . والمطالب بمحوه وتغييره بغيره إنما يطلب قلب كيان هيئتنا الاجتماعية ، وتدمير أركان ديننا ، والاستسلام الأبدى للغرب وسلطانه !

ومن المسائل مايصح النظر فيه ، والمناقشة والمجادلة بشأنه ، ومنها ما يكون الأخذ والرد فيه ابتعادا عن محجة الرشد والصواب ، وتشويشا للافكار بلا باعث ، وضياعا لنفس الوقت ، وما أحوجنا معاشر المسلمين اليه !

فمن يقترح على الناطقين بالضاد هجرة اللغة العربية الفصحى ، واستعمال اللغة العامية فى الكتابة والخطاب بدلها كمن يقول لنا معاشر المسلمين :

« اتركوا دينكم ولا تحفلوا بنبيكم » أو كمن يقول للمصريين :

« إنما مصر ليست وطنا لـــكم ، بل وطن للعالم أجمع » . ومثل هذا المقترح لا يصح مقابلته بغير السخرية والاستهزاء . ومن التساهل الكبير أن يناقشه الانسان فى رأيه ، ويبحث عما فيه من خطأ أو صواب . إذ كله خطأ فى خطأ ، وهذيان فى هذيان .

نرى المستشرقين إذا تعلموا اللغة العربية الفصحى ، وأحاطوا بآدابها ،

ووقفوا على أسرارها يعترفون جهارا بأنها أسمى اللغات وأرقاها وأغناها وأجدرها بأن تكون آلة التمدن وواسطة الترقى بين الشعوب . فكيف لا يكون حكم أبنائها عليها ، وهم الناشئون فى مهدها ، المستمدون منها كل حكمة وكل علم ؟ وكيف نقبل أو نصدق أنها عسيرة على بنيها ، والغربى يتعلمها وينبغ فيها ، ويقرأ العلوم القديمة والحديثة ، والآداب العربية بها ؟

إذا كنا نجد من الفائدة الاعتبار بنيات الانكليز وغيرهم من الأوروبيين نحو المسلمين بمثل اقتراحهم هذا ، فان الحوادث كلها تصيح بأعلى أصواتها : « حذار معاشر المسلمين حذار ، فلو استطاع الغرب لمحا دينكم وقرآنكم واللغة التى نزل بها ، لتزول آثار عظمتكم المنبهة لكم ، الموقظة لهمتكم ، الداعية لاجتماعكم واتحادكم ونهوضكم بعد طول رقادكم » . ومن السذاجة أن نعجب إذا سمعنا آنا بعد آن « كاتبا » من الانكليز أو « مهندسا » منهم ينصحنا بتبديل لغتنا ، أو « مبشرا » من المبعوثين يعظنا بترك ديننا ، أو رأينا « مؤدبا » يهتك الأعراض ، ويطأ الناموس بغير حياء . فانما الغربيون مهاجمون ونحن المدافعون . لهم أن يسعوا فى قلب كل أمر ، والمساس بكل شىء مقدس ، وعلينا أن نجاهد لصيانة الدين واللغة والوطن — هذه القوى التى لا حياة لشعب بدونها ، ولا أمل فى ارتقائه بغيرها .

أمامنا شعبان هضمت حقوقهما ، وتحكم الأجنبى فى بلادهما ، وتولى أمرهما غير أهلهما . وهما لا يزالان متمسكين باللغة الأهلية أشد التمسك ، يفضلان كل سوء على ضياعها ، ويمدان الموت فى سبيل المحافظة عليها حياة دونها كل حياة ، وهما الشعبان : البولونى ، والملطى .

سمع العالم كله ضجة أولئك الأطفال الصغار الذين حاول الألمان محو لغتهم البولونية ، وتعويدهم على تلاوة الأناشيد الدينية باللغة الألمانية . وأعجب الغربيون والشرقيون بتلك الحمية التى أبدوها ، وذلك العزم الشديد الذى ظهروا به فى سبيل حياة لغتهم ، والمحافظة على ذلك الميراث المقدس الذى

يتعزى به البولونيون كلما ذكروا ضياع بلادهم وتمزيقها ، وتحكم الروسى والألمانى والنمساوى فيها . ورأى العالم كذلك نهضة المالطيين ، ونخوتهم فى رفض قبول اللغة الانكليزية ، واجتماعاتهم المتكررة ، واحتجاجاتهم المتعددة التى حملت « شمبرلن » على الرضوخ لمطالبهم ، والانصياع أمام رغائبهم ، وهو هو الوزير العنيد الذى كان سبباً فى إهراق الدماء ، وجلب الخراب والشقاء على إفريقية الجنوبية ، وداعية ذلك البلاء الذى يئن منه العالمون فى سائر البلدان والأنحاء .

فدعوة الناطقين بالضاد إلى ترك لغة آبائهم وأجدادهم ، ولسان نبيهم وقرآنهم فى هذا الوقت الذى رأوا فيه دفاع الأمم حتى المقهورة منها عن لغاتها هى مسبة كبرى ، وإهانة عظمى ، واستخفاف بدرجة عقولهم لا يجدر بهم مقابلتها بغير الاحتقار والازدراء ، حتى يعلم « ريلمور » ومن على شاكلته أننا أرشد من أن نتبع رأيه ، ونغتر بفكره ، واننا كأبناء جنسه نعرف أن لدينا « ميراثا مقدسا » الموت أحب إلينا من أن يمس بسوء أو أذى ، أو يحاول الاعتداء عليه إنسان ، (انتهى المقال)

وللقارىء المستزيد أن يرجع كذلك إلى الخطبة القيمة التى ألقاها مصطفى كامل فى حفلة افتتاح مدرسته ، وذلك فى أول مارس سنة ١٩٠٢ ومنها قوله :

« .. فالاحتلال يريد أن يعمل بأبناء المصريين ما عمل فرعون بأبناء الاسرائيليين حذراً من ظهور « موسى المجهول » . غير أن فرعون ذبحهم بسكين ماضية أسالت دماءهم فى لحظة واحدة ، والاحتلال يريد أن يبقى عليهم ليتسنى للجهل أن يفعل بهم فى سنوات مافعلته سكين فرعون فى لحظات . ونتيجة العملين إعدام . ولكن أحدهما مادى والثانى معنوى » .

* * *

وكان من الأهداف الاجتماعية لجريدة اللواء دعوة المصريين الى العناية بشؤون الزراعة والصناعة والتجارة . ومن ذلك مقال نشرته اللواء بعنوان :

نظارة زراعة مصرية

(١٧ يونيه سنة ١٩٠٢)

ومما جاء فيه :

لو جاء غريب هذا القطر، واستطلع أحواله العامة لرأى فيه كثيراً من الغرائب، ولكان أغربها لديه أن يعلم بوجود وزارة « للحربية وللبحرية » بعد أن باد الاسطول قديما، واصبح الجيش لهذه الأيام فى حكم الملغى؛ ثم لا يرى أثراً لديوان زراعة يرجع إليه فى أمر من الأمور المتعلقة بأعظم مورد للرزق فى هذه البلاد.

ولقد طالما سألت الجرائد على اختلاف نزعاتها وصبغاتها إنشاء ذلك الديوان، فلم تجبها الحكومة إلى دعوتها، وكانت تعتذر عن هذا التقصير بعذرين يكفى ذكرهما للدلالة على التمحل فيهما : فأما الأول فهو أن الحكومة لا تستطيع أن تتولى كل شيء فى البلاد، وإلا لم يبق عمل للأهلين سوى أن يجنى لهم ويأكلوا منبسطين على وساد الراحة؛ وهو نقيض ما تحتاج اليه الأمم ـ ولاسيما الناشئة ـ من الجد والاستنباط والاتكال على نفسها فى شؤونها المعاشية.

وأما الثانى فهو أنه لا يتسنى للحكومة إيجاد مال تنشىء به نظارة جديدة؛ لما هو معلوم من كثرة ما تقتضيه من النفقات، وأن الذى يبذل سنويا فى سبيل الرى والصرف، وفى سبيل مدرسة الزراعة وجمعيتها وتجاربها مغن عن المزيد. (الى آخر المقال).

* * *

ثم طفقت اللواء تفند هذين الرأيين لتقنع الحكومة بوجوب النظر فى إنشاء هذه النظارة. ولا نرى حاجة الى المضى فى هذا الموضوع من موضوعات الاصلاح. بل نرى الانتقال منه إلى موضوع آخر شغل الرأى العام، وعنيت به اللواء عناية تامة؛ وهو موضوع (الحج). وقد كتبت فيه اللواء مقالات عدة، يحار الباحث حين يختار واحدة بعينها. منها واحدة بعنوان :

الحج وسكوت الأمة

(٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٢)

ومما جاء فيه :

لما اشتعلت نيران الفتنة العرابية،وعمت أنحاء الأرض أخبارها ، واهتمت الدول بالأمر قام « غمبتا » خطيب فرنسا الكبير، ورجل سياستها يومئذ وقال فى مجلس النواب الفرنساوى بأعلى صوته : « إنكم بسياستكم الخرقاء ستوقعون مصر فى قبضة انكلترا . وإن هذه الدولة اعتادت فى سياستها أن تختبر الأمم التى ترغب فى السيادة عليها ، والكلمة النافذة فيها . فان وجدتها ذات رأى قوى ، وإرادة ثابتة منحتها الحقوق العامة ، وسهلت لها السبل للترقى ، وأحسنت إليها ليدوم حكمها عليها ، ولا تقوم الثورات فى وجهها . و إن رأت فيها خمولا واستسلاما عاملتها بيد من حديد ، وأذلتها وجرت على أهوائها كما تشاء . وعنــــدى أنها ستبلغ فى مصر غايتها من سياسة العنف والقوة ، لأن أمتها مستسلمة . ولو أن ظاهر الحوادث العرابية يحاول الادلال على غير ذلك »

وهذه السياسة التى قال عنها غمبتا جرت وتجرى عليها انكلترا من أيام استقلال الولايات المتحدة إلى اليوم ، لأنها تعلمت من حوادث ذلك الاستقلال درساً مفيداً ، وأدركت أن مقاومة الأمم الحية الراغبــة فى الرقى وخيمة العاقبة فى كل حال . فمنحت كندا واوستراليا غاية الحقوق الأهلية ، وتركت أهاليها يحكمون أنفسهم بأنفسهم . وبلغ من استقلالهم الداخلى فى أمورهم أنهم يقررون الرسـوم على البضائع الانكليزية أسوة بالدول الأجنبية . ولا نزاع فى أن مصير العناصر المختلفة بجنوب أفريقيــة هو الاتحاد تحت الراية البريطانية ، والتمتع بالاستقلال الداخلى ، لما هو مشهور عن هــــذه

العناصر من الشجاعة والاقدام ، والمطالبة بالحق ، وعدم الرضوخ للضيم والهوان .

وقد اختبرت انكلترا الأمة المصرية فى عواطفها الوطنية ، فدمرت ما شاءت ، وغيرت ، وبدلت . واستخدمت جيشها وأبطال رجالها فى تأسيس المستعمرة البريطانية فى السودان . فماذا وجدت ؟ وجدت وزراء يوافقون ويهنئون ، وأمة تنظر إلى وزرائها قائلة : « ماذا عملتم وماذا تعملون ؟ »

وها هم الآن يصوبون السهام إلى فؤاد الأمة ، ويحاربونها فى عقيدتها ، ويصادرونها فى دينها ، فماذا قالت ؟ ومتى تقول ؟ أخذت الأمة تتساءل عن مصدر هذا البلاء ، وأصل ذاك الشقاء وتنادى : ألا من مدافع عن الدين ! ألا من مرشد لليقين ! وما أدركت أنها هى التى يجب عليها أن تدافع وترشد وتحتج وتقاوم وتطالب بالحق الصراح !

يقول الانكليز فى نواديهم ومجامعهم إن الوزراء المسلمين هم أول الموافقين على « ضريبة الحج » وأن الأمة بسكوتها أعلنت موافقتها ، وأن أصحاب الصحف ورجال مجلس الشورى لا يمثلون إلا أنفسهم الخ وهم لا يلامون فى هذا القول . لأنهم إنما يختبرون الأمة . فان وجدوها ذات شعور حى رضخوا لارادتها ، وامتثلوا لرغبتها . وإن رأوا منها استنامة تحكموا فيها ونفذوا رغائبهم . فماذا تنتظر الأمة ؟ هل تؤمل قيام وزرائها المسلمين بالدفاع عن حقوقها ومطالبها ، وهم الذين أيدوا كل مطلب للاحتلال ، وتربعوا فى المناصب ليكونوا كذلك ؟

هل نسى المصريون أن بلادهم هى طريق الحرمين ، وأقرب ممالك الاسلام للحجاز ، وأنهم أبناء أولئك الكرام الذين مهدوا طريق الحج ، وفتحوه تحت لواء « محمد على » بعد أن لبث مقفلا ثمانية أعوام ؟ هل جهلوا أن أبعد الشعوب الاسلامية عن الحجاز أصبح الآن أسعد منهم حظا ، وأقرب منهم إلى الحج سبيلا ؟ كيف لا تمطر على دوائر الحكومة

الاحتجاجات ، والاعتراضات ، والرسائل من كل جانب ، وقد رأى المصريون عن بكرة أبيهم أن الانكليز رجعوا إلى الوراء فى مسألة المحاكم الشرعية ، وعدلوا عن مسعاهم أمام هياج الأمة والحاحها فى احترام رغائبها ؟ ماذا يخشى الناس والحكومة تدعى أنها دستورية ، والانكليز يقولون باحترام الرأى العام والجمهور ؟

أين أولئك العلماء الأعلام ، والحكماء ، والفلاسفة الذين إذا قرأوا كلمة ضد الدين ، أو سمعوا صوت طاعن عليه جردوا الأقلام لرفع راية الاسلام ؟ أين هم ليؤدوا اليوم عملا أجل وأعظم وأنفع وأسد ؟ أين هم ليكونوا زعماء الأمة فى مطالبها ، ومرشديها إلى إبطال « ضريبة الحج » بقوة الاعتراض ، ومناقشة الحكومة الحساب ؟ أين هم ليقولوا للانكليز على رؤوس الاشهاد إن بلاداً تركت فيها الحرية التامة للمبشرين من القسس والرهبان لا يقضى فيها على حرية المسلمين فى السفر إلى وطن نبيهم الكريم ؟

أين هم وقد منع الحج فعلا وإن لم يمنع قولا . أين هم ليدفعوا هذه النازلة ، وهم الذين يطالبون الصغير والكبير باحترامهم وإجلالهم ، وهم العالمون أن الاحترام والاجلال لم يخلقا إلا لرجال الأعمال وصفوة الرجال ؟ أين هم ليعلموا هذه الأمة أنها لا تموت إلا بسكوتها واستسلامها ، ولا تحيا إلا بالعمل والجهاد فى مصلحة الدين والبلاد ، لتسلك أحب السبيلين إليها ، فتريح العالم من وجودها ، أو تعيش مرفوعة الشأن والذكر بين الناس .

* * *

ثم فى الفتنة التى حدثت بين عنصرى الأمة المصرية ، وأفضت إلى إيثار القبط فى مصر بوظائف السكة الحديدية ، نشرت اللواء مقالات شتى ، منها على سبيل المثال مقال بعنوان :

المسلمون والأقباط

(كلمة يحبون سماعها)

(بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيه :

تحاشينا فى كل ما كتبناه عن موضوع اختلال السكة الحديدية ، وهى المصلحة التى ساد فيها الغرض والمحاباة بقدر ازدياد عدد الأقباط أن نقول شيئاً عن الفرق الذاتى بين القبطى والمسلم . لأننا لانريد أن نزحزح الأول عن وظيفته ، ونحل الثانى محله بلا سبب ، بل نريد أن الذين يتقدمون من الفريقين لنيل بعض الوظائف يكونون متساوين فى الرفض والقبول ، متى تساوت معارفهم ، بغير تعصب لواحد دون واحد ، ولا تميز زيد على عمرو ، فيما عدا المعلومات التى تحتاجها الوظيفة المرغوب التعيين فيها .

ولكن يظهر أن مناظرينا غير ميالين إلى الجهر بهذا المبدأ الحق ، ويحبون أن يسمعوا كلمة كنا نتمنى عدم قولها ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . ونحن لا يضرنا أن نجيبهم إلى سؤالهم المتكرر ، ونقول كلمة كجملة معترضة فى الموضوع . أى أننا نقولها مع الاستمرار فى نشر فضائح السكة الحديدية .

وهذه الكلمة هى : أيكون المسلم أقل ذكاء من القبطى ، وأدنى مقدرة على تأدية الأعمال ؟ أم يفوقه ؟ أم كلاهما متساويان ؟ وهل المتعلمون من المسلمين أقل من أمثالهم الأقباط حتى نشأ عن ذلك كثرة عدد المستخدمين من الأخيرين فى مثل مصلحة السكة الحديدية ؟

هذه هي الكلمة التى لم نرد التصريح بها زمناً . ولكن الذين يعملون على الحط من كرامة المسلم ، ورميه بقلة النبوغ هم العلة فى تصريحنا بها اليوم ، ليعلموا أنهم إذا استمروا على مهاتراتهم كان نصيبهم الفشل فى هذه النقطة كفشلهم فى النقطة الأخرى (الى آخر ماقال)

كان المقال السابق لكاتب غير مصطفى كامل ثم لم يكتف صاحب اللواء بالمقالات التى كتبها المحررون فى جريدته على كثرتها وغزارة مادتها حتى كتب بنفسه مقالا عنوانه :

باليتنا كنا متعصبين

(بتاريخ ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيه :

لو كان يعلم ذلك الذى أفتى السلطان سليم بما سينال قومه ، وأمته ودولته من جراء فتواه بعدم توحيد الدين فى المملكة العثمانية لكان فضل أكبر بلايا الحياة على النطق بتلك الفتوى التى أوقعت الاسلام فى مهواة الخطر العظيم ، والشر الجسيم . فان المتأمل فى تاريخ الدولة يجدها لاقت بسبب تركها الحرية الدينية والسياسية للشعوب المسيحية التى وقعت تحت حكمها الشدائد والأهوال ، وأضاعت ثمرات فتوحاتها الباهرة ، وانتصاراتها العديدة بتمسكها بالتسامح والاعتدال .

وقد شعر الأتراك وكافة المسلمين بنتائج تلك السياسة التى مهما أعجب بها مؤرخ عادل ومحب الحرية فلا ينكر أحد ضررها على المملكة ، ومخالفتها لمبادىء الاستعمار . ومن يقارن بينها وبين خطة العرب فى البلاد التى فتحوها يجد خطأ العثمانيين السالفين كبيراً . لأن العرب غرسوا لغتهم ودينهم فى كل بلد دخلوه بمهارة مدهشة ، ولسان حالهم يقول « حسبنا هذا الفتح الخالد الذى يستوى معه دوام ملكنا وزواله ! » ووضعوا بهذه الوسيلة أمتن أساس لقيام حكومات إسلامية أخرى بعد حكومتهم .

نقرأ كل يوم فى صحف الغرب أن الحكومة الفرنساوية تزداد شدة فى إضطهاد الجمعيات الدينية ، رغبة منها فى توحيد التربية الأهلية ، وتوجيه أميال الناشئة إلى غرض واحد ، وتقوية العقيدة الوطنية فى خاطر الأمة

ومستقبلها . فماذا يقول السادة المتمدنون إذا نهضت الدولة العلية غداً بمثل هذا المطلب ، وأصدرت أمرها بإبطال المدارس الأجنبية فى بلادها ، وإرغام أبناء كافة الأجناس على الدخول فى مدارسها ، وتلقى العلوم والآداب على أساتذتها ؟ هل ترضى الدول المتمدنة بهذا العمل الذى هو حق طبيعى للدولة العلية ؟

لا ريب ولا نزاع فى أنها ترفضه جماء ، وتقيم الأرض وتقعدها منعاً لوقوعه ، ومقاومة فى سبيل تنفيذه .

وهل يدرى المسلمون مهمة تلك المدارس المسيحية المنتشرة فى أنحاء المملكة العثمانية ؟ إنها كلها ترمى إلى بذر بذور عداوة الترك والاسلام فى قلوب الأطفال ، حتى إذا صاروا رجالا كانوا ألد أعدائنا . وبهذه المدارس — لا بغيرها — ثارت اليونان والصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الأسود . وبها ثار الأرمن ، ويثور المقدونيون فى هذه الأيام . وما على الجاهل بهذه الحقيقة إلا أن يقرأ ما نشرته جريدة « الفيجارو » فى الأسبوع الماضى نقلا عن مؤلف انكليزى تحت عنوان « أمريكا فى الاستانة » حيث أبانت أن كلية « روبرتس » التى يراها كل من قطع البوسفور شاهقة البناء فوق « روملى حصار » هى التى أعدت لبلغاريا كبار ثوارها ، وهى التى ربت أبناءها على كراهة المسلمين ، وعرفتهم أساليب الخروج عليهم . وأفهمتهم حقوق الصليب وواجباته ضد الهلال !

وبديهى أنه إذا كانت أمريكا — وهى أبعد الدول عنا — تعمل هذا ضدنا ، فإن غيرها يقوم بأضعاف ذلك .

وغنى عن البيان أن الدولة لا تستطيع فى مركزها الحالى ، وتألب الدول المسيحية عليها أن تقفل المدارس الأجنبية الموزعة فى بلادها . ولكنها تستطيع أن تنافسها فى استمالة الناشئين المسيحيين الى مدارسها ، حتى تربيهم تربية عثمانية صحيحة ، وتبث لغتها واخلاقها وأميالها بينهم على قدر الامكان .

إذ كيف يقبل أن جانباً عظيما من رعاياها لا يتكلمون لغتها — كما هو الواقع فى مقدونيا — على حين أن الصرب والبلغار ورومانيا تعد ميزانيات مخصوصة لنشر لغاتها ، وتأييدها فى الولايات المقدونية . وبذلك التساهل الكبير الذى اتبعته الدولة ، وظنها الخير والاعتراف بالجميل للمسيحيين صار فريق منهم أمة فى الأمة ، وجسما غريبا فى الدولة . ولا سبيل لمقاومة الأميال الشريرة ، والنوايا العدوانية إلا بالتربية التى تؤدى حتما إلى اندماج العناصر ، وتحويل أميالها . والوسائل لادراك ذلك عديدة . وإنه من العار الكبير علينا أن نرى الأجانب ينفقون القناطير المقنطرة من الذهب لسلبنا رعايانا وبلادنا ، ونبقى لاهين عن مداواة هذا الداء ، ومقاومة ذلك التيار المخيف — تيار الزوال والفناء !

وكما أن استمالة العثمانيين المسيحيين ، وتربيتهم تربية عثمانية أمر واجب ، فان للخلافة وظيفة سامية إذا قصرت فيها قطعت أوصال الاسلام وبددت قواه الباقية ؛ وهى جمع كلمة المسلمين . ولا يكون ذلك إلا بجعل اللغة العربية فى مدارس الدولة ذات الشأن الأول ، أسوة باللغة التركية نفسها ، وبارسال الوفود من المتعلمين إلى البلاد العربية لتقوى ملكة اللغة عندهم ، كما تفعل كافة الدول الأوروبية ، حتى لا يرى المسلم نفسه فى دار الخلافة غريباً من أى وجه كان ، ويندفع تيار الحركة الفكرية ، والنهضة الاسلامية التى عمت روحها بلاد المسلمين بقوة وافية ، وبأس شديد .

وكم من مرة شعرنا بخجل شديد عندما رأينا أنفسنا مضطرين لمخاطبة إخواننا الأتراك بلغة أجنبية . فخليق بهم أن يتعلموا العربية قراءة وكتابة وتكلما ؛ لأنهم رأس الاسلام ، وقادته ، وحماته ؛ ولأن الجزء الأكبر من المملكة عربى ، والعربية لغة الدين المبين .

وليس فى تعلم العربية وحده سر الوصول إلى الاتحاد الاسلامى المرغوب ، وتقوية الخلافة وإعلاء شأنها به . ولكن بلوغ هذه الغاية السامية يطلب

أيضا تلقين الناشئين حقائق التاريخ، وإيقافهم على ماضيهم الفخيم، وأعمال آبائهم الغزاة الفاتحين، وإيضاح قيمة ذلك الميراث الفريد الذى آل اليهم ميراث كله شرف فاخر، ومجد باهر، وعز يأخذ بالأبصار عظمة وجلالا. وجهاد مستمر متواصل فى سبيل الاسلام، وإرشادهم إلى حالة البلاد الاسلامية، وأسباب تحكم الأوروبيين فيها، حتى يدركوا بهذه الدروس علل الانحطاط، ويبصروا سبل التقدم والارتقاء، ويحافظوا بما آتاهم الله من عقول رشيدة، وملكات مختلفة على الدولة وأملاكها الباقية، ويكونوا «متعصبين» فى أرقى معانى التعصب، ويقولوا غير خائفين لومة لائم:

نعم نحن متعصبون للوطن والدين. نعم نحن متعصبون للحياة العالية والشرف الرفيع. نعم نحن متعصبون ضد كل عدو للدولة والملة. نعم نحن متعصبون ضد كل دخيل بيننا أو خارج علينا. ونعم التعصب تعصب المتبصرين المخلصين فى خدمة الأوطان.

بهذا ـ لا بسواه ـ تبلغ الدولة غايتها، وتحارب أعداءها بالسلاح الذى حاربوها به السنين والأجيال، وتحقق رغائب المسلمين فى الحال والاستقبال. ولعمرى إن الساعة الحاضرة فى تاريخ الاسلام، ودولة آل عثمان لساعة إنذار وإخطار. والأمل وطيد فى أن القائمين بأمور الدولة يسمعون صوت الزمان والمكان، ويعدون للمستقبل ما أهمله السالفون للحال، ويدركون أن مسألة التربية وتأثيرها على حياة الأمم هى أهم المسائل التى يجب عليهم النظر فيها، وأنه إذا كانت فرنسا وإنكلترا اهتمتا بها مرة، يتحتم عليهم الاهتمام بها ألف مرة، لكي نبرأ من ذلك الداء العضال، ويحيا بيننا عصر الآمال والأعمال!

* * *

أما القضايا الفردية كقضية المنشاوى باشا وغيرها من القضايا التى أشرنا اليها فكانت توحى كذلك إلى صاحب اللواء بشتى الأفكار التى سجلها فى صحيفته، ومن ذلك مقالة له استعرض فيها بعض اعمال الاحتلال، وبعد فراغه من ذلك عرض لقضية المنشاوى. والمقالة بعنوان:

إفلاس الاحتلال
(بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيها :

لو كانت الدول التى تتهم تركيا بالتقصير فى إصلاح أحوال مقدونيا ، وهى لم تقم بأمر التنظيمات الجديدة إلا من بضعة أشهر قضت معظم أيامها فى مقاومة الثوار ، وحفظ الأمن والأرواح تنظر إلى مصر وأحوالها وارتباك أمورها ، لأعلنت افلاس الاحتلال والمحتلين ، ونادت على رؤوس الاشهاد ، بأن قد مضى على هؤلاء المسيطرين واحد وعشرون عاما ، وهم أصحاب الكلمة النافذة فى طول البلاد وعرضها ، والقول المسموع ، والأمر الذى لا يرد ، فأين نحن اليوم ؟ وإلى أى درجة وصلنا فى سلم الارتقاء ؟

نحن اليوم نرى المحتلين يتساءلون عن القوانين والنظامات التى تلائم البلاد وأهلها ، كأنهم يؤسسون لها حكومة جديدة ، ويهدمون ما بنوه بالأمس ، ويرفعون ما وضعوه قبلا ، ويثبتون بهذا الاضطراب الغريب عجزهم عن معرفة مصالح القطر الحقيقية ، أو تعمدهم تأييد الفوضى ، ونشر أعلامها على هذه الديار الأسيفة .

أنظر إلى المعارف وهى التى تعد مستقبل الوطن وتربى ، زهرة شبيبته ما أكبر تعاستها ، وما أكثر المضحكات المبكيات فى أمورها ! وهل بعد انحلال مدارسها العالية ، واختلال طرق سيرها يؤمل المصريون منها خيرا لهم ولأعقابهم من بعدهم ؟

وماذا يجد الانسان فى الادارة والقضاء ، وهما ركنا العدالة والأمن العام ؟ يجد سقما عضالا ، وداء عياء . يجد التنازع شديداً ، والخطر كبيرا ، وأساة هذا الشعب جاهلين بالعلة . وهل يجرد الجاهل بالداء بالنافع من الدواء ؟

يرى الباحث فى تاريخ الاحتلال أن عميده انتصر للنيابة على الادارة

حينا من الدهر طويلا ، ثم مال للبوليس والادارة بكل قواه ، حتى خيف على القضاء ، وحقوق الناس من الضياع . ولم يلبث أن أخذ بناصر النائب العمومى ، وجعله مشرفا حتى على المستشار القضائى . وها هو اليوم يضرب النيابة ورئيسها بتلك اليد التى طالما أيدتها وأيدته الضربة القاضية . ولا لوم على أحد إذا عير المحتلين بأنهم أجهل أهل الأرض بأخلاق المصريين ، ومعرفة النافع لهم من القوانين والنظامات ، لأنهم أنفسهم لا ينكرون ارتباكهم فى هذه الأيام ، وحيرتهم الشديدة فى الوقوف على الرأى المفيد ، والفكر السديد.

ولا يخطى المنصف إذا وجد الشبه عظيما بين البورصة ، وإدارة الحكومة المصرية . فان نفوذ كبار الموظفين الانكليز يعلو ويهبط بسرعة مدهشة ، وفى أزمان متقاربة . فقد كان المستر « كوربيت » أقوى عمال الاحتلال كلمة ، وأرفعهم شأنا ، وأوسعهم سلطة ، وأكبرهم نفوذا . فأصبح اليوم آخر من يسمع له رأى . ويقول مستشار الداخلية القول فيرجعه إلى الوراء ، ويشكو إختلال الأمن ، فتلقى المسئولية على النيابة ورئيسها . وها هو يسمع وينظر ، ويعارض ، ولكن الزمن عنيد عبوس ، لا يرد له أيام سيطرته وبطشه إلا بعد حين . ولا نقول باستحالة رجوعها ، لأن إدارة حكومتنا أشبه بالبورصة من جميع الوجوه .

وقد كان المحتلون يصفقون طربا أيام قضية المنشاوى باشا ، ويقولون : لقد أدخلنا فى مصر المدنية العاليه ، وأيدنا أركان المساواة بين أهلها ، فصار القوى الغنى الشديد البطش يساق إلى السجون ، إذا إعتدى على الفقير الضعيف العديم النصير . ونسمعهم اليوم يأسفون على تهورهم فى هذه القضية ، وتحريضهم الأشقياء ، والمفسدين على التوسع فى الأذى ، والاضرار ، وعدم المبالاة.

وعندى أن هذه الأدوار المختلفة ، والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى . فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحرر مادة إلا بمشيئته ، ولا يزعزع نظام

بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته . وإلا فان بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد — سواء كان مصريا أو أجنبيا — يضر بالبلاد كثيرا ، ويجر عليها الوبال. فالمجلس النيابى هو الأساس الوحيد للنظامات السليمة . ولا سلامة لبناء الحكومة بغير ذلك الأساس (الى آخر ما قال).

* * *

وكما كان على اللواء أن ترد على رجال الاحتلال فى شتى التهم التى يكيلونها ضد الاسلام ، وكما كان على اللواء أن تدفع الأباطيل التى كان هؤلاء يرمون بها القضية الوطنية والكرامة المصرية فى أكثر الأحيان، فكذلك كان على اللواء أن ترد على الكذب الذى اشتملت عليه تقارير اللورد كرومر ، والدعاوى العريضة التى ادعاها فى ميدان الاصلاح . فكثيرا ما ملأ اللورد أشداقه بهذه الاصلاحات ، وكثيرا ما زعم للعالم المتمدن أنه أحيا مصر من الموات . ولكن الوطنيين فى مصر كانوا يتعقبون هذه الدعاوى والمزاعم بالمناقشة تارة ، والتكذيب أخرى . وكان الأدب المصرى — كالصحافة المصرية — لا يدع فرصة تمر دون أن يرد على مثل هذه المزاعم . وهذا هو شاعرنا الاجتماعى الكبير حافظ ابراهيم ينكر على اللورد كرومر كل شىء ، حتى امتنانه على مصر باصلاحاته التى أدخلها على الرى الذى أخصب الأرض ، فيقول :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت	حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى	وأن أصبح المصرى حرا منعما
أعد عهد اسماعيل جلداً وسخرة	فانى رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا	فأغليتمو طينا وأرخصتمو دما
إذا أخصبت أرض وأقفر أهلها	فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

أجل — لقد اخصبت أرض مصر بفضل هذا الري ، ولـكن أهلها مفتقرون من العلم والثقافة ، مفتقرون إلى عز الحرية والاستقلال . وهيهات لمثل اللورد كرومر وأشياعه أن يأذنوا لمصرى بأن يأخـذ نصيبه من هـذا الخصب المعنوى !

أما صاحب اللواء فكان يصنع صنيع صاحب المؤيد دائماً ، فلا يكاد اللورد كرومر ينتهى من نشر تقرير من تقاريره التى يكتبها عن مصر فى كل عام ، حتي يتصدى له من ساعته ، ويكتب رده على التقرير فى صحيفته . ولـكنه لا يصطنع فيه الهدوء الذى اصطنعه السيد على يوسف فى مؤيده ، وانما يجرى مصطفى كامل فى هذا وفى غيره على سجيته ، فيخرج الرد صورة من تحمسه وشجاعته وصراحته . ومن الردود التى كتبها مصطفى كامل — ولعله أدناها إلى القصد والاعتدال — رد كتبه بعنوان :

صنائع الاحتلال

(بتاريخ ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيه :

إهتم جناب اللورد كرومر فى تقريره بذكر الرشوة ، ووصفها فى السنين السابقة لعهد الاحتلال ، وقارن بين الماضى والحال مقارنة معجب بعمله ، ساخر من سياسة المتقدمين . فقال أنصار الاحتلال ما أجمل هذا البيان ، وتنبه المصريون إلى النظر فى طريقة انتقاء الموظفين ، وترقيتهم فى العهد الحاضر . .

وإنه لا يدهشنا أن يكون جناب اللورد ممن تشمئز نفوسهم من ذكر الرشوة ، ويرونها آفة الآفات ، ويميلون بكل جوارحهم لمحو وجودها وآثارها . لأن كل رجل يعرف للشرف معنى ينفر منها . ولـكن النظام الذى سار

عليه الاحتلال فى تفضيل موظف على آخر ليس أشرف من الرشوة التى كانت سائدة من نحو ثلاثين عاما ، ولا أفيد لمصالح البلاد .

لأنه إذا كان من السهل تشويه الماضى ، واتهام كافة رجاله بالفساد واختلال الأخلاق والمبادىء ، مع أنه لا يزال بين ظهرانينا شيوخ هم التاريخ الحى ، تدلك أحوالهم وسيرهم على الفضيلة الراسخة فى نفوسهم ، والاستقامة التى اتخذوها رائداً لهم طول حياتهم فى خدمة هذا الوطن العزيز ، فان من أسهل الأمور وأيسرها أن نذكر جناب اللورد — إن كان ناسيا — أو نظهر له — إن كان غير عالم — عيوب النظام الذى وضعه المحتلون ، وقضوا له به على المبادىء الحرة ، والأخلاق العالية ، والنفوس الكريمة شر قضاء . إذ لمن كانت رعاية الاحتلال وعنايته وحمايته ؟

كانت لكل منافق أو خائن لبلاده . كانت لكل دساس مفسد حرم لذة العلم والكفاءة ، فلم ير للترقى سلما سوى المناداة بفائدة الاحتلال . كانت لكل مدمن على شرب الخمور ، محالف للفساد والسلوك المشين . كانت لهؤلاء جميعاً . ولا عبرة بغيرهم من الفضلاء الذين تعب الاحتلال فى تحويلهم . ولسنا فيما تقدم مبالغين .

هذه أقاليم القطر لا يزال يتردد فيها صدى تلك الليالى التى كان يحييها بعض المديرين إكراما للمفتشين الانكليز ، ويقول لسان حالها « إلى مثل هذا انتهى فساد الأخلاق والتهتك والفجور ! » فهل قتل الفضيلة على هذه الصورة أقل خطراً على الأمة من الرشوة ؟ وهل المدير الذى يرتبط برئيسه الانكليزى بمثل هذه الصلة لا يقدم على كل مفسدة ، ويستحل الحرام ، ويبذر بذور الدناءة والانحطاط بين الأهالى والموظفين ؟ وهل غاب عن جناب اللورد أن كثيرين من هذا « الطراز الاحتلالى » فازوا بأسمى الوظائف ، ونالوا منتهى الاكرام ؟ وأن بين المديرين الحاليين من كوفىء وسلمت إليه أزمة إقليم لأنه كان جاسوسا على رئيسه ؟

وبماذا يسمى جناب اللورد الخطة التى جرى عليها الاحتلال مع

الوزراء المصريين ؟ إن النـاس جميعاً يعلمون أن الوزير هو الرئيس الأعلى لوزارته ، المسؤول عن كل صغيرة وكبيرة فيها ، المراقب لجميع أعمالها وعمالها ، المطالب أمام الملك والشعب باصلاح المختل ، وتقويم المعوج وإظهار محاسن سياسته . فما شأن الوزير المصري الآن ؟ هل هو ذلك العامل ذو النفوذ العظيم والمسئولية الكبرى ؟ كلا . إنما له من الوزارة إسمها ، ومن الرئاسة « قاعتها » . ولمستشاره أو لوكيله الانكليزى كل السلطة والعمل . فلأى عمل يدفع له مرتب فى آخر الشهر ؟ وبأى حق يؤخذ من مال الأمة أجر لعامل لا يؤدى وظيفته الحقيقية ؟ أليس هو مأجوراً على أن لا يعمل ؟؟ أو ليس هذا النظام أضر على كل أمة من داء الرشوة ؟

إننا لا نشك ولا نرتاب لحظة واحـدة فى أن جناب اللورد أعدى أعداء الرشـوة والفساد . ولـكن الأميال الشخصية شىء ، والسياسة شىء آخر . فـكما أن جنابه يضطر فى أغلب الظروف ـ إن لم يكن فيها كلها ـ أن يعلن كراهته للوطنيين الأحرار ، مع احترامه لهم أمام ضميره ، وإعجابه بهم فى سره وبين خاصته فان السياسة قضت على المحتلين أن يعتمدوا فى تنفيذ مآربهم على المسالمين والمستسلمين والخائنين والمنافقين وفاقدى الشعـور والاحساس . ولولا مقتضيات هذه السياسة ومطالبها لما كان صنائع الاحتلال من نرى ، ولما عادى المحتلون كل مصرى حر الضمير غيور على بلاده ، ولما اتبعوا فى تثقيف الناشئة هـــذه الخطة المعلومة التى لا تربى وطنية ولا إقداما .

إنما تعرف أخـلاق الرجال ، ويظهر شرف نفوسهم بمقدار حبهم لوطنهم وإخلاصهم فى خدمته . فلو أراد جنـاب اللورد أن تـكون الحـكومة مؤلفة من رجال نزيهين أمناء أكفاء لوجب عليه أن يختبر شعورهم قبل كل شىء . لأن الوطنية حليفة الفضائل ، ومحال أن تقوى على هذا التحالف مصلحة ، أو يضعفه غرض من الأغراض.

نعم — إنه لا يروق للمحتلين أن يكون كبراء الحكومة ، وقادة أزمتها ميالين للجلاء والاستقلال ، مبغضين للاحتلال والمحتلين . ولكن أمثال هؤلاء هم الرجال الذين ترقى البلاد بهم ، وتسمو على غيرها بهممهم ، ويزول منها كل داء عضال بفضل عزمهم وإخلاصهم . ومحال أن يزول على أيدى غيرهم الفساد والاحتلال ، ويتم شيء من الاصلاح المرغوب ! (الى آخر ماقال)

ثم من هذا القبيل ما نشرته اللواء أيضاً بعنوان :

واضعو القانون فى مصر

(بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٠٣)

لم تذكر الصحف فى عصر من العصور ، ولا فى مملكة من الممالك كلمة « الدستور » كما ذكرها المحتلون وأنصارهم فى مصر فى هذا الزمان . فلا يجرى أمر مخالف لسياستهم ، أو مناف للقانون بعيد عن مطالبهم إلا وتسمعهم ينادون : « إن هذا الأمر لا يصح وقوعه فى بلاد يسود فيها الدستور ، وتخفق أعلامه فوق الرؤس »

وقد قضينا السنين الطوال نبحث عن ذلك الدستور لنراه ، ونبتهج بحكمه وسلطانه ، ونقدم إليه الاعظام المفروض على محبى الحرية لحاميها . ولبثنا الأعوام نترقب ظهور أعلامه وراياته لنقول مع القائلين إن مصر بلاد الحرية والمساواة والاخاء ، فأضعنا الوقت سدى ، وذهب انتظارنا على غير جدوى . إذ قامت الدلائل والبراهين مثبتة نفور الدستور من مصر ، ومخالفة نظاماتها وصورة الحكم فيها لمبادئه السامية وقواعده المتينة .

وآخر هذه الدلائل ما شاع وذاع فى أنحاء القطر من أن أربعة من المحتلين يعقدون الاجتماعات العدة تحت مباشره عميد الاحتلال لقلب النظامات القضائية التى مضى عليها واحد وعشرون عاما .

ومن هم واضعو القانون ؟ هم المستر مكاريث مستشار الحقانية . وغاية مايعلمه المصريون عنه أنه شاب ترفع عن مخالطة أهل البلاد ، وتعالى على كبرائها الأمجاد ، واكتفى بعلمه ومنصبه . ولعله لا يدرى من أخلاقنا إلا ما قرأه فى كتب سياح الانكليز . والمستر متشل مستشار الداخلية الذى لا تكفى معرفته بالقوانين العسكرية لأن يكون شارعا ، ولا علمه باللغة العربية ليكون خبيراً بحاجات البلاد . وها هو يلقى المسئولية فى اختلال الأمن على القضاء ، قائلا إن القضاة يبطئون فى الأحكام ، ويبرئون الكثيرين من المجرمين الطغام . والمستر كوربيت النائب العمومي الذى شب معلما للانكليزية ، وألهمه الاحتلال التشريع ، فصار بفضله قاضيا ، ثم نائبا عموميا عن أمير البلاد ، بعد أن أسند هذا المنصب بالتعاقب لفاضلين من صفوة المصريين بلغت النيابة فى أيامهما غاية الكمال ، ثم صارت فى زمنه مثالا للاعتلال والاختلال . والمستر برونيت الذى بلغ علمه بأخلاق البلاد وأحوال أهلها أنه قال للجنة مجلس الشورى عندما عارضته فى باب الفسق ومخالفة أحكامه لأخلاق المصريين وشريعتهم « إن مصر ليست بلاداً شرقية بل يجب أن تعتبروها غربية ! »

هؤلاء هم واضعو القانون فى مصر ، أى النائبون عن هيئة نيابية تمثل الأمة ، ويتكون أعضاؤها من نخبة من الأهالى العارفين بحاجات الأمة ومطالبها ، والأدوية النافعة لأدوائها .

هؤلاء هم واضعو الدستور الموهوم الذى تقوم عليه العدالة والحرية فى البلاد المتمدنة . فما أعجب حال مصر فى عهد الاحتلال ! (الى آخر هذه المقالة التى انتهت بقوله) : —

فما أكبرها فرية على الحقيقة والدستور ؟ وما أصدق القائلين من بنى مصر ومنصفيها إن المستبدين السابقين كانوا يستبدون باسم الاستبداد ، وإن مستبدى الاحتلال يستبدون باسم الحرية ، وعلى وجوههم براقع نسجتها المدنية الكاذبة التى ضاع بسببها هذا الوطن الأسيف .

الفصل التاسع

اسلوب مصطفى كامل

كنا فى تلك الفترة من حياة مصر ، وهى الفترة التى سميناها (عهد الاحتلال) أمام ثلاثة من أشهر الكتاب ؛ وهم : ابراهيم المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل .

أما أولهم فهو أديب هذه الحلبة ؛ رزقه الله موهبة الأدب ، فأصبح لا يصدر إلا عن هذه الموهبة فى كل ما كتبه فى جريدته مصباح الشرق .

ومن ثم جاء أسلوبه رفيعا ؛ يرضى أذواق الخاصة من الأدباء ، وعشاق الترسل ، ويروعهم بما فيه من فن وزخرف ، ويعيد إلى أذهانهم ذكرى النثر العربى فى أزهى عصوره ، وأحفلها بالمظهر الخارجى للعبارة . ومن أجل ذلك أيضاً جاءت صحافة هذا الرجل أدباً فى أكثرها . ومنذ أخرج للناس جريدة (مصباح الشرق) وهم مفتونون بأسلوبها ، معجبون ببعض الوسائل الأدبية التى اصطنعها صاحبها فى الوصول إلى أغراضه ، ومن أهمها القصص .

وأما ثانيهم — على يوسف — فهو سياسى هذه الحلبة ؛ أوتى ذوقا سياسيا بفطرته ، ثم كشف له فى نفسه عن كل هذه الكنوز ، وذلك منذ أصدر للناس جريدة (المؤيد) فكانت برهانا ساطعا على هذه المواهب التى ربما كان يجهلها فى نفسه ، لولا ظهور جريدة المؤيد التى أظهرت له وللناس هذه الموهبة .

وأما ثالثهم — مصطفى كامل — فهو خطيب هذه الحلبة ، لا بقدرته

البيانية التى يزعم كثير من الناس أنها لا تضارع ، ولـكن بحماسته العاطفية التى أزعم أنا للناس أنها لا تبارى .

ومعنى ذلك باختصار أن أهم ما يلفت نظر الباحث فى أسلوب مصطفى كامل إنما هو التدفق الشعورى ، أو الطابع الحماسى الذى طبعت به كتابته ، وخطابته ، وصحافته فى وقت معاً .

وإذا كان الأدب فى ذاته معنى أو فكرة ، وشعوراً ، أو عاطفة ، وخيالا أو صورة ، وصياغة أو أسلوبا ، وما الأخير إلا وعاء تصب فيه كل هذه العناصر السابقة ، فمن الحق أن نحكم لصاحب اللواء بتفوقه على غيره من الكتاب تفوقا عظيما فى العنصر الثانى من هذه العناصر الأدبية المتقدمة ، ونعنى به عنصر الشعور أو العاطفة . ولـكن ما رأينا فى العناصر الثلاثة الباقية ؟

أما العنصر الأول وهو عنصر المعنى أو الفكرة ، فلا نقول فيه أن صاحب اللواء كان مساويا لرصفائه من رجال القلم والصحافة فى عهده ، وأن جواده كان محاذيا لجيادهم ، بل نقول ان صاحب اللواء كان يبز هؤلاء الرصفاء ، وإنه حاول أن يسبقهم بأشواط بعيدة. وبنوع خاص حين يكون صاحب اللواء ممتلئاً بالأفكار السياسية الكثيرة التى قرأ عنها فى الصحف والمجلات ، بل فى الكتب والرسائل والمذكرات الهامة لبعض الساسة الأوروبيين . والذى نستطيع أن نؤكده فى هذا المجال أن صاحب اللواء كان يبدو أكثر من رصفائه اطلاعا ، وأكثر منهم معرفة بكبار الشخصيات المشهورة فى عالم السياسة ، وأكثر منهم أسفارا فى مختلف أنحاء العالم . وقد أكسبه كل ذلك مادة غنية من المعانى ، ورصيداً عظيما من الأفكار كان يستقى منه فى صحافته كلما أراد ذلك .

وأما العنصران الباقيان من عناصر الأدب ، وهما الخيال أو الصورة ، والأسلوب أو الصياغة فلنا فيهما رأى خاص نلخصه فيما يلى :

عرضنا لكثير مما كتبه صاحب اللواء فى شتى الصحف والكتب، كما قرأنا غير يسير من خطبه وأحاديثه فلفت نظرنا فى كل ذلك أن مصطفى كامل كان لا يعنى بالخيال أو الصورة ، وكان لا يتوخى درجة عالية من جمال العبارة ، وذلك كما يتوخاها الأديب الذى يرى الجمال غاية فى ذاته ، وغرضا يسعى إليه .

وآية ذلك أن القارىء لمصطفى كامل قلما يعثر فى طريق قراءته بتشبيه جميل ، أو خيال بعيد ، أو بصورة رائعة ، أو استعارة رائقة ، أو نحو ذلك مما يزين به الكتاب الأدباء كتبهم وصحفهم وأحاديثهم . وهذا كله من حيث الخيال أو الصورة.

وأما من حيث الأسلوب فما لا ريب فيه أن مصطفى كامل كتب جميع مقالاته بعبارة عربية سليمة فى جملتها . ولكن عباراته هذه لم تبلغ بعد من الرقى مبلغاً عظيما يلفت نظر جملتها الناقد الأدبى أو الباحث الفنى ، ويسترعى أذهان الأدباء من القراء خاصة والأدباء يتلمسون الجمال الحقيقى فى العبارة ويتتبعون البراعة الفنية الصحيحة فى الصياغة . فاذا ظفروا بشىء من ذلك تهافتوا عليه ، وصغت قلوبهم نحوه ، وبادروا إلى حفظه كما يحفظون الشعر أو الحكمة أو المثل .

ولكن لا ينبغى أن ننسى مع ذلك أنه كان لأسلوب مصطفى كامل روعة فى نفوس قارئيه وسامعيه ، وأن هذه الروعة جاءته من الظرف الذى كتب فيه . فقد كان لكل كلمة من كلمات هذا الزعيم الخالد جو مناسب لا تفهم إلا فيه ، ولا يدرك أحد قيمتها إلا به . ومن هنا جاء سحر الرجل ، وجاء عظم تأثيره فى نفوس الخاصة والعامة .

صحيح ما يقال من أن لمصطفى كامل بعض الكلمات الرائعة والعبارات الحماسية الخالدة . ولكن ذلك فى مجموعه قليل ، ولا يجوز أن يبنى عليه الناقد حكما فى أسلوبه الكتابى .

وعلى هذا القياس يكون صاحب اللواء متفوقا على أقرانه فى عنصرين ، ومتخلفا أو كالمتخلف عنهم فى عنصرين آخرين . وأنت تري مع ذلك أننا تزن النتاج الصحفى لصاحب اللواء بميزان الأدب . ولكن أيحق لنا أن نفعل ذلك ، وقد سبق لنا القول فى بعض الكتب إن الأدب شيء ، والصحافة شيء آخر ؟ ألم نقل إن الصحفى يهدف إلى غير ما يهدف اليه الأديب ؟ ألم نقل إن الصياغة الفنية للأدب الخالص يجب أن ترتفع عن الصياغة الفنية للصحافة الخالصة ؟

بلى — قلنا ذلك ، ونحن عند رأينا فى كل ذلك . وإذن فلا مناص لنا من الحكم لمصطفى كامل بأن أسلوبه الصحفى كان يلائم الصحافة ، لولا ما قد غلب على أسلوبه هذا من طابع الخطابة . وهل كان يسع الرجل أن يتخلى عن أسلوبه الخطابى مهما كانت الدواعى إلى ذلك ؟ كلا :

اجل — كان اسلوب مصطفى كامل ألصق بالخطابة منه بالكتابة . وأنا وإن كنت ممن لا يرون بأسا من تداخل الفنون الأدبية بعضها فى بعض ، وأخذ بعضها من بعض ، إلا أننى ممن يرون فى الوقت نفسه أن لكل فن من هذه الفنون الأدبية خصائص يستقل بها ، وسمات يعرف من خلالها . وليس من العسير على أهل البصر بالكلام أن يتعرفوا على هذه الخصائص والسمات ، وأن يبنوا على ذلك رأيهم فى الأثر الأدبى ومن حيث هو . فللكاتب الصحفى أن يستعير فى اسلوبه شيئاً من ملامح الخطابة ، كالاشارة أو الخطاب أو تكرار عبارة بعينها مرات كثيرة ، ونحو ذلك . ولكن عليه ألا يسرف فى هذا الأخذ والاستعارة . فاذا فعل ذلك فهو خطيب يكتب خطبته على الورق ، وليس بكاتب صحفى إلا من قبيل التجوز والتساهل . !

إذا صح هذا — وهو عندى صحيح إلى درجة كبيرة — فمعناه فى صراحة وجلاء أن مصطفى كامل يعتبر فى نظر الناقد والباحث خطيبا من النوع الممتاز — لا جدال فى ذلك — ولكنه لا يعتبر فى الوقت نفسه كاتبا صحفيا من النوع الممتاز — وان غضب بعض الناس من ذلك .

والحق أن قراء صـــاحب اللواء إنما كانوا يقرأون دائماً لمصطفى كامل الخطيب ، لا لمصطفى كامل الـكاتب أو الأديب . !

* * *

وثم مقياس آخر تقيس به الأدب بوجه عام وبهذا المقياس يمكن أن يقال : إن عناصر الجودة فى الأدب ثلاثة هى :القوة والحق والجمال . ونحن حين نزن بهذا الميزان الاخير جميع الآثار الصحفية لمصطفى كامل نرى أن فى جانبه منها عنصرين منها ، هما عنصرا القوة والحق .

أما القوة فمصدرها عنده الحماسة ، وسمو العاطفة . وأما الحق فمصدره فى أسلوبه صدق الدعوة التى دعا إليها ، والغرض الذى هدف إليه ، والحركة التى قام بها ، والايمان الذى ملأ نفســـه ، وغمر قلبه ، وسما به إلى منزلة أوشكت أن تقرب من منازل الأنبياء والقديسين والشهداء .

بل إن سمو العاطفـة عند مصطفى كامل إنما يرجع إلى ما فطر عليه من الحب لمصر ، والغيرة الشديدة على خير مصر . والذى لا يماري فيه أحـد أن مصر لم تعرف رجـلا أحبها بكل جوارحه كما أحبها ذلك الرجـل . وان قارىء هذا الفتى ليشعر أنه إنما يقرأ ذوب قلبه ، وعصارة كل قطرة من قطرات دمه . وحسبك أنه القائل : « لو لم أولد مصريا لتمنيت أن أكون مصريا » . وحسبك أيضا أنه كان يكتب على ظهر (اللعب) التى يلعب بها أطفال المدرسة التى سميت باسمه مثل هذه العبارات :

الوطن عزيز ، الوطن جميل ، لا شرف بغير الوطن ، ونحو ذلك . (١)

وكم من المعانى الوطنية استخدمها مصطفى كامل ، وكم من العبـارات الحماسية جرى قلمه بها فى الصحف ، ولسانه بها فى المحافل . وهذه ناحية من الفضل ينبغى أن تذكر له دائماً بالتقدير والتبجيل .

وعلى هذا فلا يبقى من تلك العناصر الثلاثة السابقه غير عنصر الجمال . وهو

---

(١) راجع اللواء فى أول مارس سنة ١٩٠٢

العنصر الذى لم يفرغ له الرجل ، ولا كانت الصحافة من جهة ، ولا شغله الدائم بالقضية المصرية من جهة ثانية يتيحان له وقتاً لتوفيره ، أو النظر إليه .

والخلاصة أن الفكرة التى تألفت لنا عن أسلوب مصطفى كامل أنه (أسلوب خطابى) قبل كل شىء . وإذا قلنا (خطابى) فمعنى ذلك أنه اسلوب متوسط التعبير ، فلا هو بالأنيق الممتاز بجماله ، ولا هو بالأسلوب الهابط إلى درجة تقرب من أسلوب الحديث العادى .

ونحن إذ نقف فى الحكم على أسلوب الرجل عند هذا الحد لا نريد أن نبخسه حقه من الفضل . فاننا لو نظرنا فى صحافته من ناحية الأسلوب وحدها استطعنا أن نقول باختصار : إن صحافة مصطفى كامل تدلنا دائماً على رجل واحد هو مصطفى كامل . ومعنى ذلك فى عرف النقاد المحدثين أن فى كتابة صاحب اللواء قدراً من (الأصالة الحقيقية) يرتفع بها أسلوبه إلى درجة عالية ، ويزداد بها فى الميزان الأدبى زيادة واضحة .

وقليلا ما يطالب الزعماء والقادة ومن إليهم من أهل اللسن والخطابة بأن يعنوا عناية كبيرة بالخيال أو الصورة ، لأنهم قوم مشغولون دائماً بالمعانى يشرحونها للأشياع والمريدين ، وبالعواطف ينقلونها فى حرارة كبيرة إلى قلوب الجماهير . وقصاراهم أن يؤمن الناس بدعواهم . وهم يلحون فى ذلك حتى لا يتركوا مجالا لفكرة تتسرب إليهم غير أفكارهم ، أو دعوة مخالفة لدعاواهم . وقليلون جداً من أولئك الزعماء والقادة وأصحاب اللسن والخطابة من يعتمدون فى كل ذلك على الصور أو الأخيلة .

اجل — إن بين الأديب والخطيب أو صاحب الدعوة فرقاً كبيراً من هذه الناحية . فالأديب يؤلف الصور البيانية ، ويأتى بالعبارات الطلية ، ويتخذ من هذا كله دليلا على صدق فكرته أو صحة قضيته . أما الخطيب أو الدعية فيعتمد على الحوادث الجارية ، والحقائق التاريخية الواضحة ، ويتخذ

منها دليلا على صحة رأيه ، وسلامة قوله . والصورة البيانية تصلح دائما للايضاح ولكن لا تصلح أبداً للقياس . أما الحوادث والحقائق ونحوها فهى مادة الاستدلال الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والصورة البيانية عند النقاد هى الصدق المغنى ، ولكنها عند غيرهم من الناس لا صلة لها بالواقع ، ولا ينبغى أن يعتمد عليها فى الاحتجاج .

* * *

ومهما يكن من شيء فالناظر فى أسلوب صاحب اللواء يلمح به طائفة من الخصائص منها :

أولا ـ شيوع اللهجة الخطابية . وقد تحدثنا الآن عنها . ولكنا نزيد على هذا الحديث أن الخطابة فى أسلوب مصطفى كامل أوضح منها فى أسلوب المويلحى وعلى يوسف وغيرهما من رجال المدرسة الصحفية التى سميناها (مدرسة عهد الاحتلال) . ثم أن هذه اللهجة الخطابية التى غلبت على أسلوب مصطفى كامل تمتاز بالحماسة والتدفق ، وهما الصفتان اللتان من أجلهما صارت مقالات صاحب اللواء أدخل فى باب الخطب منها فى باب الترسل الأدبى أو الترسل الصحفى الممتاز .

انظر إليه حين يقول فى المقال الذى عنوانه (١٩ يناير) وهو يوم اتفاق السودان . وقد سبقت الاشارة إلى هذا المقال فى فصل بعنوان (اللواء والحركة الوطنية) :

تذكروا يا معاشر المصريين أن أخوانكم فى الوطن والدين أهرقت دماؤهم العزيزة فى سبيل استرداد السودان .

تذكروا يا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم ، وصرفت فيها أموالكم ، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء .

تذكروا يا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان ، وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم .

تذكروا يا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر ، وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة .

تذكروا يا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد، وفرامانات جلالة السلطان الأعظم، ومعاهدات الدول الأوروبية.

تذكروا يا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم، وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاما. وما حاجة فرنسا إليهما كحاجة مصر إلى السودان الخ »

ثانيا - ومن هذه الخصائص التى يمتاز بها أسلوب الرجل جنوحه إلى إحداث الموازنات فى الأفكار والمعانى، واعتماده على ذلك لاحداث التأثير المطلوب فى نفس القارىء. ففى مقالة له بعنوان (اتحاد كلمة المسلمين) بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٠ كتب يقول :

. . . على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب لوجدناها جنت على الاسلام والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فمم يشتكي المسلمون ؟

نشتكي معاشر المسلمين من أن أوروبا المتمدنة لا تعاملنا كما يجب أن يعامل بنو الانسان. نشتكي من أنها دخلت بلادنا بدعوى الاصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى.

نشتكي من أنها تكرهنا كراهية دينية شديدة، وهي المنادية بمبادىء العدل والحرية والمساواة. نشتكي من أنها تقصد إبادتنا كما تباد الحيوانات الضارة، وكما أبيد السود من أمريكا، وهم أصحاب البلاد الأولون.

نشتكي من كل أعمال التمدن والمدنية. وبودنا لو كنا غير شاكين.

هذا مانشتكي منه. فمم تشتكي أوروبا ؟

أتشتكي من أننا سلمنا إليها بلادنا، ووثقنا بأقوالها ووعودها ؟

أتشتكى من أنها سادت علينا بارادتها، وهضمت حقوقنا، واستنزفت أموالنا، وضيقت علينا فى حياتنا ؟

أتشتكي من أننا نحسن للمسيحيين فى الشرق، ونعدهم إخوانا لنا ؟

أتشتكي من اعتدالنا وتسامحنا، وهى معنا ظالمة قاهرة ؟

ثم قال :

فيا كتاب أوروبا وسواسها قبل أن تحكموا على الدولة العلية ، وتسموها دولة الهمجية والتعصب اسألوا أنفسكم بالله عليكم هل يلاقى المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر ما يلاقيه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية ؟ وهل تعتبر أوروبا المسلمين الخاضعين لها كأبنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين ؟

إذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالسلب فما بالكم يا كتاب المدنية الغربية تزيدون المسلمين بلاء على بلائهم ؟ وما بالكم لا تعرفون للحقيقة مقاما ؟ ولا تدركون للفضيلة الصحيحة احتراما ؟

اللهم إن كل المسلمين فى كل أنحاء الأرض متألمون لما أصابهم ، آسفون على ضياع استقلالهم ، ساعون فى تحسين أحوالهم . ولكن أى خطر على أوروبا من ذلك ؟

نحن نصرح فى كل كتاباتنا وخطبنا وأعمالنا بأن الاعتدال أول مبدأ للمسلمين ، وأن الهيجان والاضطراب خطر أشـــد على سلامتهم من كل الأخطار .

ثالثا — ومن تلك الخصائص التى تصف لنا أسلوب الرجل إسهابه النسبى فى العبارة . ونقول النسبى لأننا نقيس الكتابة عند صاحب اللواء بالكتابة عند صاحب المؤيد . وقد كان السيد على يوسف يمتـــاز بصفة ظاهرة فى أسلوبه ظهورا تاما . وهذه الصفة هى ما سميناه (بمساواة اللفظ للمعنى) . ومن ثم جاء أسلوبه أميل إلى الاقتصاد فى الألفاظ والعبارات ، وأعانه على ذلك أنه لم يكن خطيباً ، ولا كاتبا له صلة صحيحة بالخطابة .

أما مصطفى كامل فقد كان على عكس ذلك مفتونا بالخطابة . وكانت له صفاتها . وكان عنده استعداد كبير لها . ومن صفات الخطيب الميل قليلا أو

كثيراً إلى الاسراف فى اللفظ ، وإلى تكرار العبارات ، وإلى طول النفس فى الكلام ، ونحو ذلك .

ومن هنا جاءت مقالات صاحب اللواء أطول فى بعض الاحيان من مقالات صاحب المؤيد . تقرأ للأخير فلا تكاد تفتح فمك بالقراءة ، وتقرأ لمصطفى كامل فتميل ميلا عظيما إلى أن تحرك فمك بالقراءة . ومعنى ذلك عند النقاد المحدثين أن أولهما كاتب له أصالته فى الكتابة . وأما الثانى فخطيب له أصالته فى الخطابة . وكلاهما صحفى ناجح ، لا موضع للشك فى هذه الدعوى .

كلاهما كان يرد على جبار الاحتلال كلما كتب تقريرا ، ونشرت الصحف له هذا التقرير . ولكن رد أولهما - وهو على يوسف — كان أدنى إلى الايجاز والمنطق على السواء . وكان رد ثانيهما أدنى إلى الاسهاب وإثارة العواطف . وأعتقد أن القارىء فى غنى عن أن آتى له بمثال على هذا الاسهاب الذى اشتهر به مصطفى كامل بالنسبة إلى على يوسف .

رابعا - ولعل من أوضح الخصائص الفنية لمصطفى كامل سخريته الجادة ، أو الحزينة ، ونعنى بها ما كان يظهره صاحب اللواء أحيانا من التهكم المرير بالمحتلين حينا ، والمصريين أنفسهم فى بعض الأحيان . وهو تهكم لم يصدر قط عن نفس مرحة ، ولا قلب يغمره الفرح . وإنما كان يصدر دائما عن نفس حزينة ، وصدر مشحون بالغيظ والألم من أجل هذه الحالة التى أصبحت عليها مصر ، ومن أجل الاحتلال الذى قبض بكلتا يديه على رقبة مصر . ومن ثم كان لصاحب اللواء العذر كل العذر فيما امتلأ به فؤاده من هم ، وما أحس به من كرب . فاذا أضفنا إلى ذلك أن نفس الرجل كانت تميل بطبعها إلى الجد والحزن لم نعجب من أن اللواء لم تنفرج قط عن ابتسامة أمل ، ولا نبضت طول حياتها بشىء من السرور أو الفرح . ولهذا كان مصطفى لا يعرف الضحك ، ولا يحسن السخرية التى تأتى من شعور صاحبها بعلو منزلته على من يسخر بهم ، أو يحس قارئها بابتسامة صفراء

مرسومة على الورق !

أجل من الكتاب الساخرين من يحسن « التنكيت » و « التبكيت » معا كما فعل ذلك السيد عبد الله النديم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومنهم من لا يحسن إلا (التبكيت) فقط أو (التنكيت) فقط . وصاحب اللواء كان يحسن أولهما ولا يحسن ثانيهما . ومعنى ذلك أن سخرية مصطفى كامل حينا تكون ضربا من الغضب أو الهياج ، وحينا تكون لونا من الرثاء أو الاشفاق ، وحينا تكون نوعا من الحزن أو البكاء وليست شيئا غير ذلك .

خامسا — على أن شيئا هاما يلفت النظر كذلك فى أسلوب مصطفى كامل ؛ وهو أنه قليل الأخذ من معين الأدب الخالص ، زاهد فى كلام الأدباء والشعراء والفلاسفة ، من العرب أو غيرهم على السواء .

فلم نر صاحب اللواء يعنى بالاقتباس من غيره إلا فى حالة واحدة ، هى اقتباس الأقوال المتصلة بالساسة . وهنا نجد الرجل يستعير من كبار الساسة ، ويبنى على ما يستعيره من كلامهم . ويعقب على هذا الكلام ، وينظر إلى العبارة المقتبسة فى هذه الحالة كما ينظر المحامى الى وثيقة من الوثائق التى يعتمد عليها فى أثناء النظر فى قضية من القضايا .

أجل — كان مصطفى كامل قليل الأخذ من معين الأدب الخالص . ومن شأن الأديب الذى يزهد فى هذا المعين أن يقوم بنفسه ، وأن يتخذ له أسلوبا عصريا بحتا يشتقه من نفسه . وقد رأينا رجلا كالسيد على يوسف يحاول بين حين وآخر أن يكون عصريا فى أسلوبه بهذا المعنى . أما مصطفى كامل فانه حتى فى هذه الناحية أيضاً — كان قليلا ما تعجبه الأساليب العصرية ، والعبارات المتداولة على ألسن المصريين ، فيأتى بها فى تضاعيف كلامه فى الصحف أو الخطب . ولا تكاد ذاكرتى تعى لمصطفى كامل من أمثال هذه الأساليب العصرية ، أو الجمل المتداولة على ألسن المصريين — بغض النظر عن مقدار عربيتها — أكثر من قوله :

« لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويعم الأرض ومن عليها مديحهم ، والاطراء عليهم وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور من الحب والاعجاب والثناء إلا لأنهم رفعوا لواء الوطن الخ » . وهو جزء من مقال له عنوانه (البوير والدخلاء) لا بأس من أن نأتى به هنا كاملا .

وهذا المقال . وان لم يكن من المقالات المشهورة لمصطفى كامل ، إلا انه يصف أسلوبه ، ويترجم عن طريقته . ولأمر ما أتينا به فى هذا المكان ، وهو بعنوان :

البوير والدخلاء (١)

ما هذه الضجة الهائلة التى وصل صداها إلى جبال آسيا ، وقرى البوسفور ؟ ما هذا الاعجاب العام والتحدث بشمائل البوير ؟ ما هذه العناية (بديلارى) و (دى ويت) (وبوتا) ؟ ماذا أقام هؤلاء القوم من بنيان ، وشيدوا من دول حتى صار لهم فى العالم كله هذا المقام وذلك الاحترام؟

لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويعم الأرض ومن عليها مديحهم ، والاطراء عليهم ، وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور من الحب والاعجاب والثناء إلا لأنهم رفعوا لواء الوطنية ، وأعلوا منارها ، وألقوا على الشعوب أفضل الدروس فى الاقدام ، وعلمت الأمم الحاضرة والآتية كيف تكون الهمة والشهامة والاستهانة بالحياة فى سبيل أقدس ما أهدى الرحمن للانسان : الوطن العزيز!

ولكن ما هذا القول ، وفى مصر رجال محنكون ، وفلاسفة مطلعون ينادون بأن الفضيلة فى خيانة الأوطان ، والشرف فى عبادة الاجنبى والمحتل ، والمجد فى قتل عواطف الأمة وتمزيقها . فهل لنا أن نصدق الأمم والدول والممالك والساسة والكتاب والشعراء ونكذب طغمة الدخلاء ؟

---

(١) كتبه مصطفى كامل وهو بالاستانة وبعث به الى اللواء فنشرته فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢

كيف نمجد الوطنيـة مع ممجديها من سادة أوروبا وقادة أزمتها ، ولا نحتقرها مع صنائع الاحتلال فى مصر ، وآلات الفساد والاختلاق بها ؟ كيف نترك تصفيق الأمم وتهليلها (لديلارى) و (دى ويت) و (بوتا) يخترق قلوبنا ، ويلعب بأفئدتنا ، أو (بارين) وأمثاله من أنصار الخيانة حكموا على أبطال البوير وأشباههم بالجنون ، وقضوا على المتقدمين والمتأخرين من خدمـة لأوطان وحملة رايتها بضعف العقل وموت الارادة .

لا محل للسؤال والحيرة . فقد سمع المصريون صوتين فى ، الآفاق صوت البوير والوطنيين من أمثالهم ينادون :

« إنمـا الوطن آية الله الـكبري ونعمتـه العظمى . وفى كل ذرة من ذرات ترابه شىء من عظام الآباء والأجـداد ، وأثر من الآثار المقدسـة التى يهين الانسان أشرف شىء فى وجوده وفى الوجود بالاستهانة بها

إنما الوطن مهد الانسان ولحده . وجنته فى الدنيا وغاية سعوده ، وأبوه وأمه وولى نعمته وأمره ، ومسدى الخير لذريته وسلالته من بعده ، وموزع الشرف والرفعة بين قومه ، وحامل مجد آبائه وناقل ميراثهم اليه .

إنما الوطن خالد باق . ونحن نمر أمامه ونقيد فى سجله ما لنا من حسنات وسيئات . فويل ثم ويل لمن كثرت سيئاته وتعددت على الوطن جناياته . وما جناية الجنايات عليـه إلا الاعتماد على الدخيل ، والثقة بأقواله ، وقبول سم مقاله غذاء للعقول والنفوس !

إنما الوطن يحتاج فى سـلامته إلى اجتماع كلمة الأمـة ومعرفتها لتمييز عنصرها على غيره ، وتمسكها بسلامة لغتها التى سماها (دى ويت) « الحارس الوحيـد للجنسية » والعلم بأن الدخيل فى الأمة ديناميت يبيدها ، ويمزق شملها ، ويقطع أوصالها ، ويهدم بنيانها ، ويجعل عزها ذلا ، ونعيمها شقاء وبلاء .

إنما الوطن ببنيه وأبناؤه به . فلا يرتفع للمرء شأن مهما كانت معارفه إذا كان وطنه ذليلا مهانا . ولا ينخفض للانسان مقام مهما سفلت أخلاقه

وقلت معارفه إذا كان وطنه عزيزاً مهابا . »

كما سمع المصريون كذلك صوت الدخلاء يناديهم :

« لا وطن ولا وطنيين ! إنما مصر لمن ينهبها ويخدم المحتل فيها ، وما الشهامة والهمة وعلو النفس والاباء إلا أخلاق همجية لا محل لها فى بلاد دخل فيها التمدن وارتفعت فوقها راية الحرية

وما أنتم معاشر المصريين إلا قوم متأخرون فى الحضارة ، فاستمعوا لأقوالنا نحن معاشر الفلاسفة ، واعتقدوا إخلاصنا « نحن الأجانب عن جنسيتكم ودمكم ودينكم » ولا تتبعوا قوما منكم تجمعكم وإياهم جامعة « الجنسية والدين » ! النصيحة الحقة منا ، والرأى الصادق يصدر عنا نحن « الذين لم يدفن لنا أب ولا أم فى أرض مصر » والضلال كل الضلال فى اقوال أولئك « الذين ملئت البلاد بعظام آبائهم واجدادهم » ! اهتدوا بهدينا ، واقتدوا بنا نحن « الذين نسب الاسلام ونعلن بطلان مبادئه » وخالفوا أولئك الذين « يؤملون رفعة الاسلام ويحلمون بعودة مجده وسؤدده » ! أطيعونا نحن القائلين لكم « بيعوا الوطن واشتروا سلامتكم الوقتية . ضحوا المصلحة العمومية وأنقذوا المصلحة الشخصية . تمتعوا بالحياة المادية واقتلوا الحياة الأدبية . فوزوا بالنعيم الباطل وقولوا « بعدنا الطوفان » . أعبدوا المحتل الذى سلبكم استقلالكم ومجدكم وعظمتكم . وسبحوا بحمده بكرة وأصيلا ! » ودعوا أولئك المتهورين الذين يزعجونكم بقولهم « شهد دوفرين وغيره من الانكليز انفسهم بأن للمصري أن يكره المحتل مادام فى بلاده لان الاستقلال لا ثمن له . وقرر الحاضرون والمتقدمون من الفلاسفة « الصادقين » والعقلاء أن الأمة لا تكون امة إلا إذا كانت شديدة الغيرة على جنسيتها ولغتها ودينها ، شديدة النفور من الدخيل »

سمع المصريون هذين الصوتين : صوت الحياة العالية ، والشرف الصحيح ، وصوت الخيانة والموت والعار الفاضح ، ورأوا حال الأمم التى سمعت الصوت

الأول ، رأوا نعيما وملكا كبيراً ، رأوا اساطيل فى البحر ، وجيوشا فى البر . رأوا سلطة وسلطانا ، وقوة وشانا ، ورفعة للجموع والأفراد ، وراية يحل الاجلال اينما حلت ، ويعز من بها اعتز ، ويذل من لم يؤد لها واجب الاحترام . فأى الصوتين هم سامعون ، وبأى القولين هم عاملون ؟

اللهم إن كانوا للموت طالبين ، وبالعار متعلقين ، فها هم الدخلاء أئمتهم وقادتهم المختارون . وإن كانوا من طلاب الحياة والوجود والجاه والرفعة فليسمعوا الملأ صوت احتقارهم لطغمة تسبهم بأقوالهم ، وتطالبهم فوق ذلك بالامتثال والحمد والشكران

الآستانة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢ (مصطفى كامل)

فى هذا المقال تظهر خصائص صاحب اللواء بأكملها دفعة واحدة ففيه :

أولا — تلك اللهجة الخطابية التى تحدثنا طويلا عنها . وهى اللهجة التى تعتمد على التكرار والاستفهام والاشارة وتوجيه الخطاب إلى القراء كأنهم أمام الكاتب فى حفل عام .

ثانيا — تلك الموازنات التى أغرم صاحب اللواء بها لكي يعطى الصورة كاملة للقراء . وهو هنا يوازن بين حالة مصر وحالة البوير . ثم يوازن بين كلام الوطنيين الصادقين ، وكلام المحتلين ، وأنصار الاحتلال من المصريين .

ثالثا — تلك المعانى الوطنية التى يفتأ صاحب اللواء يأتى بها فى مقالاته ، والعواطف القومية الشريفة التى لا ينفك يبعثها بين مواطنيه .

رابعا — تلك السخرية الحزينة بل ذلك البكاء المتواصل علي مصر من جهة ، وعلى الاسلام من جهة ثانية . وهو بكاء لا يصدر إلا عن نفس حز فيها الألم ، وقلب أثخنته الجراح .

خامسا — ذلك الاسهاب أو الاطناب فى العبارة . وهو إسهاب يتمشى

مع آلام الرجل ، ويسير مع أفكاره دائما . وإذا كانت آلامه كثيرة لا تنتهى وأفكاره متلاحقة لا تعرف الوقوف فمن الضرورى إذن أن تكون عباراته مسايرة لهذا الطول والامتداد فى الفكرة والعاطفة .

سادسا — ذلك الصدود الظاهر عن الصور البيانية على اختلافها ، وعن الزينة اللفظية بأنواعها ، وعن الأخذ من الأدبين القديم والحديث بفنونهما . فحسب الكاتب هنا أن تخرج عبارته وكأنها نفثة من نفثات صدره ، أو قطعة من قلبه وعقله . وما دام هو قد رضى عن قلمه على هذا النحو ، ورأى فيه أنه قد عبر عن غرضه على هذا الوجه ، فما حاجته إلى الاقتباس والاستشهاد ، وما حاجته الى التسلق على كلام الشعراء والحكماء والعلماء والفلاسفة ؟

سابعا — صفة (التوسط) فى التعبير . فليس تعبيره هذا بالأدبى الرفيع ، ولا هو بالسوقى الوضيع . ولكنه فى منزلة بين المنزلتين ، يعتمد فيه الكاتب على نفسه ، ولا يحاول الاتيان بلفظ لا يدور على الألسنة ، ولا يشق على القارىء . بل لا بأس عنـــده من أن يأتى ببعض الجمل التى تداولتها الألسن ، وظهرت أحيانا فى أثوابها العامية المألوفة ، وإن كان ذلك لا يأتى من صاحب اللواء إلا فى مرات قليلة نادرة . كتلك المرة التى قال فيها :

« لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويعم الأرض مديحهم ، وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور الخ » .

والشاهد فى قوله (العلالى والقصور) فهو تركيب مألوف فى بلادنا ، معروف فى أحاديثنا العامة فى مصر . وباختصار كان مصطفى كامل شديد الاعتزاز باللغة العربية فخوراً بها مؤيداً لها . ولكنه كان أقل الثلاثة الذين تحدثنا عنهم محصولا فى هذه اللغة ، وذلك بالرغم من جنوحه إلى الاسهاب والمترادف على الطريقة التى شرحنا بعضها .

ثامنا — استجابة هذا الاسلوب للعاطفة والشعور أكثر من استجابته للعقل والتفكير . وهـذا هو الفرق بينه وبين على يوسف . فاذا كان هذا اسيراً لأفكاره التى يتقيد بها ، ويخضع أسـلوبه لها ، ولا يعنيه من العبارة الصحفية مهما كان شكلها إلا أن توضح هـذه الأفكار التى يحاول نقلها إلى جمهور القراء ، فان مصطفى كامل كان أسير عواطفه يجعل أسلوبه تابعا لها ، خادما لأغراضها ، فلا يعنيه من العبـارة الصحفية مهما كان شكلها إلا أن تترجم عن هـذه العواطف التى يزدحم بها قلبه ويحاول أن يجد لها متنفسا فى المحافل أو الصحف .

(وبعد) فانما يقرأ الأدب لشىء فى بعض عناصره له جاذبيته وله قوة لمعانه وإضاءته . وقد يكون هذا الشىء صورة رائعة ، وقد يكون هذا الشىء عاطفة من العواطف الشريفة الصادقة . وقلما تجتمع للقطعة الأدبية كل هذه الأشياء دفعـة واحدة . والذين يقرأون لمصطفى كامل ينبغى لهم أن يستحضروا فى أذهانهم صورة الظروف التى ألمت به ، والجهاد المتصل الذى كان يبذله ، والنفس القلقة المعذبة التى انقطعت لعبادة الوطن ، وتوفرت على خدمته حقبة من الزمن

إذ ذاك يستطيع القراء أن يتجاوبوا معـه دائماً ، وان يجدوا له صدى فى نفوسهم وعقولهم كلما اتصلوا به فى جريدته .

خاتمة المطاف

« . . . ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه . وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذى حمل زعيمهم إلى مثواه . أولئك هم الأنصار الذين غدوا — وقد مات الزعيم — خلفاءه من بعده.

كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا بأسره .وقد صار هذا الشعب وارث مثله الأعلى . »

عباس حلمى الثانى

وفاة مصطفى كامل

رأينا كيف اتخذت الحركة التى قام بها هذا الزعيم الشاب شكل مقاومة عنيفة ضد سلطة أجنبية بغيضة ، هى سلطة الاحتلال البريطانى . ورأينا كيف وجدت هذه الحركة لنفسها سنداً قويا من ولى الأمر أولا ، ومن الشعب المصرى ذاته بعد ذلك ، وهذا هو الفرق بين حركة عرابى، وحركة مصطفى كامل .

أما الأولى — وهى حركة عرابى — فكانت تناهض النفوذ الشركسي فى الجيش ، ولكنها كانت موجهة ضد صاحب السلطان الشرعى فى مصر، ومن ثم لم تجد لها سنداً قويا من جانب الشعب المصرى ، الذى لم يشترك فى هذه الثورة بحظ ما .

وأما الثانية — وهى حركة مصطفى كامل — فكانت تقوم على أساس واضح من الشعبية ، وكانت تهدف إلى غرض واضح ، هو مقاومة السلطات الأجنبية والأغراض الاستعمارية . ثم كانت الحركتان تشتركان بعد ذلك فى المطالبة بالدستور ، وكان لكل منهما أثر كبير فى تطور النهضة الوطنية والوعى القومى فى مصر .

ومع هذا وذاك فيأبى البحث التاريخى أحيانا الا أن ينظر الى أعمال العظماء من زاوية غير التى ينظر منها عامة الناس . ولسنا من القائلين بعصمة العظيم ، ولا ممن يتصورونه — مهما علا قدره وعظمت قيمته — رجلا لا يجوز عليه الخطأ . بل ننظر إلى هذا الخطأ أحيانا على أنه ظل لعقيدته ومبادئه ، وعمل من الأعمال التى لجأ اليها لتحقيق أهدافه ومآربه ، ومصدر من مصادر العظمة الانسانية التي لا تعرف الكمال المطلق .

وعلى هذا الأساس نريد أن نعرض لبعض الهنات التى يلصقها بعض الباحثين بالزعيم الشاب مصطفى كامل

* * *

قد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل أنه ربط مصر بعجلة الامبراطورية العثمانية ، ونصب نفسه مدافعاً عنها مدة طويلة ، حتى لقد استنفذ ذلك من جهده وطاقته شيئاً غير قليل .

ونحن لا نعد ذلك خطأ من أخطاء مصطفى كامل . ولا نقول ذلك رغبة منا فى تبرئة ساحته فى محكمة التاريخ . وما نحن من القائلين بعصمة الرجال كما قدمنا ، ولا من الذين ينظرون إلى العظماء على أنهم أنصاف آلهة كما فعل الذين من قبلنا ، ولكنا نأخذ بوجهة نظر الرجل نفسه فى الأمر . فما العيب فى سياسة قامت على التكتل ، وهى سياسة يأخذ بها كثير من الدول إلى وقتنا هذا ؟ لقد كان مصطفى كامل كغيره من زعماء الشرق فى ذلك الوقت يحلم بوجود كتلة اسلامية كبيرة . ولا بأس عنده يومئذ من أن تكون زعامة هذه الكتلة للآستانة . وتلك سياسة رشيدة من شأنها أن تجعل للممالك الاسلامية المهضومة كلمةمسموعة فى المجامع الدولية الكبيرة . وعلى هذا فلا محل للطعن فى هذه السياسة إلا من جهة واحدة ؛ هى ضعف الدولة العثمانية ، وبلوغها من المرض والشيخوخة حدا لا تصلح معه لتولى هذه الزعامة الدينية أوالسياسية . وذلك ما أدركه الزعماء والقادة فى مصر فيما بعد وفى مقدمتهم احمد لطفى السيد . ومن أجله فكروا جديا فى تعديل هذه السياسة . ولم يتأخر مصطفى كامل نفسه عن غيره من القادة في هذا التعديل . كما تشهد به مذكرات الخديو عباس ، وقد قال عن هذا الزعيم الخالد إنه استبدل بسياسته التركية الطابع سياسة وطنية خالصة . وتطور بسرعة فائقة جعلت تلاميذه يتبعونه دون أن يفطنوا الى الخطأ الأول .

وقد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل أنه تحدث كثيراً فى شئون الاسلام والمسلمين فى جريدة اللواء وانزلق أحياناً الى نوع من التعصب الدينى ضد القبط فى مصر، حتى عابه الأقبـاط أنفسهم فى ذلك، وأخذوا عليه اهتمامه بالمسلمين فى الصـين والبوسنه والهرسك باكثر من اهتمامه بهم وهم معه فى وطن واحد هو مصر. والذين يطلعون على الصحف القبطية المصرية فى تلك الفترة، والذين يتتبعون حركة الأقبـاط فى المصالح الحـكوميـة، وفى بعض المجتمعات الدينية وغير الدينية يلتمسون العـذر لمصطفى كامل فى إفساح صحيفته لهذه المهاترات المذهبية التى تحرك لهـا من قبل رجل محكوم بعقله أكثر من قلبه كالسيد على يوسف.

على أن الذوق يشهد لمصطفى كامل أنه لم يسف فى حديثه عن القبط فى مصر إلى الدرجة التى هبط هؤلاء إليها.

فالحق أنه برغم ثورته وحدة مزاجه لم يكن بذيئاً فى لفظه. ولا أحس قراؤه بفحش فى عبارته، أو هبوط فى مستوى خلقه، أو اسفاف فى نقده. بل كان عف القلم واللسان، نقى النفس والسريرة. وكل ما فى الأمر أن غيرته الدينية كانت كغيرته الوطنية أثراً من آثار نفس قلقه، وإحساس مرهف، وجسم عليل، لم يمنحه صاحبه ما يستحق من الراحة لحظة واحدة من لحظات العمر.

وللباحثين أن يعقدوا موازنة ما بين مقالات مصطفى كامل ومقالات الصحف القبطية المصرية، فسيجدون مصداق هذا القول، وسيحكمون لقلم هذا الشاب المهذب بالنزاهة والأمانة والعفة والصدق والأدب فى المناظرة.

ومهما يكن من شىء فلا محـل للنزاع بعد ذلك فى أن مصطفى كامل باعث الحركة الوطنيـة، وأعظم داع من دعاة القومية المصرية، وإذا كان كل داع من الدعاة قبله أو بعده قد وضع فى بناء «القومية المصرية» لبنة واحـدة فان مصطفى كامل وضع بيده لبنات متعددة. وفى ذلك

ما يدل دلالة واضحة على عمق إحساسه بالوطنية التى لا تقيم وزنا للخلافات المذهبية أو الفوارق الدينية .

ومعنى ذلك أنه لا محل هنا مطلقاً لهـذه التهمة من التهم التى وجهت الى باعث نهضتنا الأخيرة . ثم ألا يكفى ان تعلم أن زعماءنا المصريين تعرضوا جميعاً لتهمة الممالأة للانجليز ، وهى تهمة يبرأ منها كل زعيم منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، ونجا الزعيم الشاب مصطفى كامل وحده من هذه التهمة ، ولم يستطع أحد من أعدائه أن يرميه بها يوما ما ؟

وقد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل إنه دعا إلى حجاب المـرأة ولم يدع إلى السفور الذى دعا إليه قاسم أمين ومن آمنوا معه بهذه الدعوة .

ولسنا نرى فى ذلك عيباً من عيوب مصطفى كامل، فبحسبه أنه كان يدعو الى تعليم المرأة ، والى الأخـذ بيدها الى المدنيـة الصحيحة والرقى الصحيح .

لقـــد شهد هذا الشاب الذي يمتلىء بالغيرة كيف شقى المجتمع الاوروبى بسبب سفور المرأة ، وكيف حرمت البيوت الأوروبيـة أنس الأسرة . وكيف نشأ الأطفال الاوروبيون فى غير حجور أمهاتهم وآبائهم واخواتهم فأبت عليه نفسه أن تـكون المرأة المصرية معذبة محرومة كالمرأة الأوروبية ، وراح يلح فى أن تصان فى البيت كريمة معززة ، ولـكن بعد أن تأخذ حقها كاملا من التربية والتعليم فى المدرسة ، لأنه يعلم علم اليقين أن العمل الأسمى للأم فى كل بلد هو أن تصنع الرجل للأمة . وتلك وجهة نظر لها احترامها إلى اليوم .

تلك مجموعة الأخطاء التى أخذها بعض النـــاس على مصطفى كامل . وربما كان من أخطرها الخطأ الأول ، وقد وضحنا وجهـة نظر الرجل فى ذلك ، وإن قلنا من قبل ما معناه : إنه كما أخطأ الـكثيرون من الأوروبيين فى النظر الى النهضة الفـكرية التى شملت جميـع البلاد الاسلامية الشرقيـة

على أنها نهضة صليبية ، فكذلك أخطأ مصطفى كامل من جانبه فى فهم السياسة الأوروبية على أنها سياسة مسيحية ، وفهم السياسة العثمانية على أنها سياسة إسلامية .

ولمصطفى كامل كما قلنا غيرة دينية لا تقل بحال ما عن غيرته الوطنية فأحب أن ينقل هذه العواطف كلها إلى نفوس المصريين ، وأخذ يدعوهم الى التمسك بالدين ، وذكر لهم فيما ذكر يومئذ أن الأوربيين بلغوا ما بلغوه من التقدم العظيم بسبب الدين ، متغافلا عما أشرنا إليه فى إحدى المقدمات التى بدأنا بها هذا الحديث من أن أوروبا كانت فى ذلك الحين قد بدأت تؤمن إيمانا كاملا بالعلم والحضارة الحديثة ، ويقل إيمانها فى الوقت نفسه بالدين وبالعقيدة ، وذلك منذ نشر دارون وأمثاله من العلماء كتبهم المعروفة فى أصل الأجناس البشرية ، وعلم طبقات الأرض ، وما اليها .

ولئن أصر بعض الناس على أنه كان لمصطفى كامل أخطاء فان مرد هذا كله إلى شبابه وحاجته الى ذخيرة أخرى من التجارب التى هى كل ما يمكن ان تمنحه الكهولة أو الشيخوخة لبعض الرجال ممن رزقوا سعادة العمر ، وصحة الجسد ، وسلامة الاعصاب من المرض . ولا غرابة فى ذلك فقد تطلع الشاب الى زعامة أمته وهو فى العشرين . ولو تأخر الزمن قليلا بهذا الرجل حتى يصل الى سن النضوج لكان لنا منه زعيم لم ير العالم مثله فى صدق عقيدة أو إصابة رأى أو بعد نظر أو نفاذ بصيرة ، بل زعيم لا يقل فى خطورته وعظيم نفعه لأمته عن بسمارك .

أجل — لقد كان للسياسة الأوروبية أسرار لا تعرف بالقراءة قدر ما تعرف بالتجربة . والتجربة لا توهب عفواً أو فى لحظة واحدة . وإنما هى بنت الزمن وربيبة المحن . فلو أن القدر المحتوم أمهل هذا الزعيم، ومد فى أجله الى حين لاستطاع أن يصل بأمته الى أعلى من الدرجة التى سمت اليها أية أمة من الأمم .

ولكن الأجل قطع على مصر هذا الأمل ، وحرمها ذلك الرجل الذى قلما تجود بمثله الأمم فى أزهى عصورها ، وأحفلها بالعظمة والجلال .

كان مصطفى كامل قائد حركة خطيرة من حركات المقاومة الشديدة ضد الاستعمار . والمقاومة فى كل زمان ومكان هي مبعث القوة ، ومثار النشاط ، ومقياس العزة والاباء ، ودليل الشهامة والبطولة ، وعنوان الحياة . وقد تمثلت هذه المعانى كلها فى مصر فى الفترة التى كانت القيادة فيها لهذا الفتى الشهم الذى رفع صوته عالياً فى المطالبة بحقوق بلاده ، حتى وصل صوته إلى أقصى الأرض .

والحق أن مصر تدين لهذا الفتى بكل ما أصابها من تقدم منذ العشر الاواخر من القرن التاسع عشر الى يومنا هذا .

ألم يكن أول من دعا الى إنشاء الجامعة ؟

ألم يكن أقوى من دافع عن اللغة العربية بحرارة بالغة ؟

ألم يكن أشد مواطنيه محاربة للظلم ، وكراهية للاستعباد الذى كان عليه القوم ؟

ألم يكن هازم الجبروت البريطانى فى مصر ؟

ألم يكن أخطر من هز الضمير الأوروبى لصالح القضية المصرية ؟

الم يكن اعظم من طالب بالدستور والحياة النيابية ؟

الم يكن اكبر من نجح فى إعداد المصريين وتدريبهم على الحكم الذاتى الصحيح ؟

أما أسلوبه فى الكتابة فقد فرغنا من أنه أدنى إلى الخطابة منه الى الصحافة. ولم نعد الحق — فيما نعتقد — حين دمغنا صحافته فى اللواء بهذه الصفة

أجل — لقد مخض القدر الحكيم رجال مصر فى هذا العصر فكان هذا الفتى زبدة العقل المصرى، والنفس المصرية ، والقلب المصرى ، وكان عنوان أمته فى كل جانب من هذه الجوانب المتقدمة .

فاذا كان الوفاء طبيعة فينا نحن المصريين فعلينا ان نذكر هـذا الزعيم الباسل كلما جد على حضارتنا جديد ، وكلما ربحنا شيئاً فى ميادين التقدم السياسى أو العلمى ،أو الأدبى، او الخلقى، او الاجتماعى، او الاقتصادى .

أجل — ينبغى ان نذكر مصطفى كامل كلما أصبنا قدراً من النصر فى واحد من تلك الميادين ، وينبغى أن نذكر له سهره على تربية هـذا الجيل الذى غدا — وقد مات الزعيم — خلفا له من بعده . فكما يقول الخديو عباس إن روح مصطفى كامل تلهم شعبا بأسره وقد أصبح هـــذا الشعب وارث مثله الأعلى .

* * *

ألح المرض على الزعيم الشاب قبل وفاته بثلاثة أشهر ولـكن ذلك لم يمنعه من المضى فى عمله « ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سـنة ١٩٠٧ ترك سرير مرضه ،ونزل إلى ساحة اللواء حيث اجتمعت الجمعيـة العمومية ، والقى خطبة رائعـة ، حتى ذهل السامعون لبلاغته ، وبراعة إلقائه ، وقوة جنانه مع ما كان باديا عليـه من الضعف . وكانت هذه آخر خطبـــة ألقاها رحمه الله . ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع ، وعاد إلى غرفته مريضا ولم يغادرها . وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صـديقه ونصيره الـكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى ، وأحد أعلام الحركة الوطنية ، فجزع لوفاته جزعا شديدا وازداد ما به من مرض حزنا على صديقه العظيم . وكان — وهو على سرير المرض — لا يدع العمـل والتفـكير . فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السـير إدوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى ، اتهم فيهـا المصريين بعدم الـكفاءة للحكم الذاتى ، ورد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم

الذاتى كثيرا من الأمم الاوروبية ، وأن مصر ستظل تجاهد فى سـبيل حريتها واستقلالها حتى تنالهما . (١)

* * *

وفى يوم الاثنين الثامن من المحرم سنة ١٣٢٦ — والعاشر من شهر فبراير سنة ١٩٠٨ اسلم الفقيد روحه إلى بارئها وروع المصريون لهذا النبأ الذى صك مسامعهم ، واضطربت له مشاعرهم ، واجتمعت الألوف المؤلفة منهم للسير فى جنازته التى وصفها قاسم أمين بقوله :

« هذه هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ، والمرة الثانية يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء » .

ووصل الجثمان الطاهر إلى مقره الأخير فوقف الشاعر إسماعيل صبرى أمام النعش . وحاول أن يلقى قصيدة فى رثائه . ولم يكد يلقى البيت الأول فيها وهو :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا ... هددت القوى إذ قمت بالأمس داعيا

حتى غلبه البكاء ، وبدا عليه التأثر ، ولم يستطع أن يتم قصيدته . ومما جاء فى هذه القصيدة قوله :

الا عللانى بالتعازى وأقنعا ... فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
والا أعينانى على النوح والبكا ... فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى ... أحب دموع البر والمرء وافيا

* * *

أيا مصطفى بالله نومك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فان القوم حولك أطرقوا ... وقل يا خطيب الحى رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة ... تخالك أعواد المنابر فانيا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٢٥

وتبكيك لولا أن فيها بقيـــة تعللها من ذلك الصـوت داويا
فهل ألفت ما بين جفنيك والـكرى مخالفـــة ام قد أمنت الأعاديا

ثم قام الشاعر الـكبير حافظ ابراهيم ، فألقى فى رثاء الفقيد قصـــيدة رائعة منها :

أيا قبر هـــذا الضيف آمال أمة فـكبر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا ان نرى فيـك مصطفى شهيد العلا فى زهرة العمر زاويا
أيا قبر لو أنا فقـدناه وحــده لـكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولـكننا فقدنا كل شىء بفقـــده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا ســـائلي أين المروءة والوفا وأين الحجا والرأى ويحـك ها هيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صـــائح فقـد أسكت الصوت الذى كان عاليا
شـــهيد العلا لا زال صوتك بيننا يرن كما قـد كان بالأمس داويا
يهيب بنا : هـــذا بناء أقمتــــه فلا تهـدموا بالله ما كنت بانيا
يصيـح بنا : لا تشعروا الناس أننى قضيت وأن الحى قد بات خاليـا
أجل أيها الداعى الى الخـــير إننا على العهد ما دمنا فنم أنت هانيا
بنـاؤك محفوظ وطيفـــك ماثل وصوتك مسموع وإن كنت نائيا
عهدناك لا تبكى وتنكر أن يرى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البـــكاء وفى غد ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيا نيل إن لم تجر بعـــد وفاته دما أحمراً لا كنت يا نيل جاريا
ويا مصر إن لم تحفظى ذكر عهـده إلى الحشر لا زال انحـلالك باقيا
ثلاثون عاما بل ثلاثون درة بجيد الليالى ســـاطعات زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تـكن فتى مفردا بل كنت جيشا مغازيا

وكان أحمد شوقى كذلك من أسبق الشعراء إلى رثاء الفقيد . فقـــد نشرت له قصيدة رائعة بعد وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوما . وهى قصيـدة مشهورة منها قوله .

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما فى مأتم والدانى
يا خادم الاسلام أجر مجاهد ... فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... فى الزائرين وروع الحرمان

جار التراب وانت اكرم راحل ... ماذا لقيت من الوجود الفاني
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى ... هذا عليه كرامة للجانى
يتساءلون أبا لسلال قضيت أم ... بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد والاقدام والعرفان

إن كان للأخلاق ركن قائم ... فى هذه الدنيا فأنت البانى
المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جعلت لها الاخلاق كالعنوان
واحب من طول الحياة بذلة ... قصر يريك تقاصر الأقران
دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للانسان عمر ثان

يا طاهر الغدوات والروحات والـ ... خطوات والاسرار والاعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح ... غاز بغير مهند وسنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران

شقت لمنظرك الجيوب عقائل ... وبكتك بالدمع الهتون غوانى
والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصتون لخطبه وبيان
فلو ان أوطانا تصور هيكلا ... دفنوك بين جوانح الاوطان
أو كان يحمل فى الجوارح ميت ... حملوك فى الأسماع والأجفان
أو صيغ من غر الفضائل والعلا ... كفن لبست أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية ... لم تأت بعد رثيت فى القرآن

* * *

ثم أتت حفلة التأبين الكبرى — يوم الأربعين — فقام الحزب الوطنى

على تنظيم هذه الحفلة . وقد حدد لها موعد الساعة الثالثة من ظهر يوم الجمعة الثانى من شهر مارس سنة ١٩٠٨ . فاحتشدت جموع لا حصر لها من الطلبة ، ومن الشعب على اختلاف طبقاته . وسار الجميع فى موكب رهيب وخلف هذه الجموع سارت عربة الفقيد مجللة بالسواد وليس فيها راكب علامة على فقد صاحبها . وبدأ سير الموكب من الساعة الواحدة بعد الظهر ، وانتهى فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين . وبدىء الاحتفال بتلاوة ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ثم صعد إلى منبر الخطابة محمد بك فريد فألقى خطبة طويلة بدأها بقوله : —

إخوانى الأعزاء .

إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى باشا كامل لم يمت . نعم لم يمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس ، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق ، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما ، حتى ضرب بتخاذلنا المثل ، وقالوا إن المصريين اتفقوا على الا يتفقوا .

إخوانى الأعزاء .

. . . . إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق الذي رسمه ومهده لنا . وإن نضم صفوفنا . ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية ، وامتلاك أبراجها ، وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانيا . إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليه روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم اجمع . أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا ، فأصبحنا كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لى « وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار ، وواجب دعوة الأحياء إلى العمل . . الخ .

ثم نهض شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم فألقى فى تأبين الفقيد قصيدة أخرى أولها :

نثروا عليك نوادى الأزهار ... وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زين الشباب وزين طلاب العلا ... هل أنت بالمهج الحزينة دارى
غادرتنا والحادثات بمرصد ... والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا ... عاد وصاح الصائحون بدار
أين الخطيب وأين خلاب النهى ... طال انتظار السمع والابصار
بالله مالك لا تجيب مناديا ... ماذا أصابك يا أبا المغوار
قم واح ما خطت يمين «كرومر» ... جهلا بدين الواحد القهار
قد كنت تغضب للكنانة كلما ... همت وهم رجاؤها بعثار
غضب التقى لربه وكتابه ... أو غضبة الفاروق للمختار
قد ضاق جسمك عن مداك فلم تطق ... صبرا عليك وأنت شعلة نار
أودى به ذاك الجهاد وهده ... عزم يهد جلائل الاخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت ... لعب الفوارس بالقنا الخطار
وجريت للعلياء تبغى شأوها ... فجرى القضاء وانت فى المضمار
أو كلما هز الرجاء مهندا ... بدرت عليه غوائل الاقدار ؟
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمت فيه مراتب الأقدار
تسعون الفا حول نعشك خشع ... يمشون تحت لوائك السيار
آنا يوالون الضجيج كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزوار
وتخالهم آنا لفرط خشوعهم ... عند المصلى ينصتون لقارى

وقد ألقى الشاعر الكبير خليل مطران قصيدة طويلة أربت على مائة وثلاثين بيتاً منها .

أعلى مكانتك الاله وشرفا ... فانعم بطيب جواره يا مصطفى
اليوم فزت بأجر ما أسلفته ... خيرا وكل واجد ما أسلفا
وجزيت من فانى الوجود بخالد ... ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

من يبرىء الاسلام من تهم العدا ... ويرد نقد الناقدين منزيفا
قف ايها الناعى عليـــه جهوده ... فلقد تجاوزت الهدي متفلسفا
إن يعتر الشمس الكسوف هنيهة ... أيكون منقصة لها أن تكسفا

مصر العزيزة قد ذكرت لها اسمها ... وأرى ترابك من حنين قد هفا !
وكأننى بالقبر أصبح منبرا ... وكأننى بك موشك أن تهتفا
مصر التى أحببتها الحب الذى ... بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا ... من شملها مالم يكن ليؤلفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى ... لا مفترى فيه ولا متكلفا
فارقد رقادك إن ربك قد محا ... بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

هذا قليل من كثير مما رثى به الخطباء والشعراء الزعيم الخالد مصطفى كامل . ولو ذهبنا نتتبع هذه المراثى التى نشرتها الصحف الوطنية ، والصحف الأجنبية لا تسع أمامنا مجال القول .

عوض الله البلاد عن هذه الخسارة الكبيرة خير العوض ، وهدى أبناءها وقادتها وكبراءها سواء السبيل .

عبد اللطيف حمزه

تم بحمد الله الجزء الخامس

من كتاب ادب المقالة الصحفية فى مصر

ويليه بمشيئة الله تعالى

الجزء السادس وعنوانه

احمـــد لطفى السيد

(صاحب الجريدة)

فهرست الكتاب

صفحة

قائمة كتب المؤلف

١ — تراث الاسلام : ترجمة بالاشتراك (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦)

٢ — ابن المقفع : (القاهرة سنة ١٩٣٧)

٣ — ابن المقفع (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٥٢)

٤ — صلاح الدين : طبع سنة ١٩٤٤

٥ — حكم قراقوش : (مطبعة الحلبي سنة ١٩٤٥)

٦ — الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول . (القاهرة سنة ١٩٤٧) .

٧ — أدب الحروب الصليبية (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٨) .

٨ — أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جزء اول (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩)

٩ — أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جزء ثان (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٥٠)

١٠ — أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جزء ثالث (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٥١)

١١ — أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جزء رابع (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٥٢)

وسيظهر قريباً بمشيئة الله تعالى : —

١٢ — أدب المقالة الصحفية فى مصر الجزء السادس

١٣ — الحركة الأدبية فى مصر الأيوبية : (وضع سنة ١٩٤١) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول

